الصوفة الإسلامية

مجلة فصلية جامعة

تصدر عن : الجامعة الإسلامية دار العلوم حيدرآباد - الهند

السنة : ٣٠ . العدد : ٧٦ . جمادى الأولى ١٤٣٨هـ . فبراير ٢٠١٧م

- شعار سلماننا خدمة إسلامنا
- أحداث ١١/سبتمبر ٢٠٠١م ـ و ـ إصدار قانون جاستا
- إطلاق الحوثيين صاروخا باتجاه الكعبة المشرفة
- توصيات هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند
- أمة ممتحنة

خطوة تاريخية مباركة بإذن الله

فجزيل الشكر نهديك ورب العرش يحميك

بمناسبة ترفيع حصة الهند السنوية في الحج لـ ٣٤٥٠٠ حاج وبلوغ أعداد حجاج الهند
من ١٣٦٠٢٠ حاجا إلى ١٧٠٥٢٠ حاجا ما بعث السرور والبهجة في قلوب الشعب الهندي

يتقدم **الأستاذ محمد رحيم الدين الأنصاري**
رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/حيدرآباد ـ الهند باسمه وباسم جميع منسوبي الجامعة وحكومة حيدرآباد وقطانها

بأسمى معاني الشكر والعرفان وأحلى عبارات التقدير والامتنان

إلى مقام خادم الحرمين الشريفين

الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود أيده الله

وصاحب السمو الملكي

الأمير محمد بن نايف بن عبد العزيز آل سعود يحفظه الله
ولي العهد نائب رئيس مجلس الوزراء وزير الداخلية

وصاحب السمو الملكي

الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود يحفظه الله
ولي ولي العهد النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء وزير الدفاع

ومعالي الدكتور محمد بن صالح بن طاهر بنتن يحفظه الله
وزير الحج والعمرة

وندعو الله لخادم الحرمين الشريفين وولي عهده وولي ولي العهد ووزير الحج والعمرة بالتوفيق والسداد لخدمة الحرمين الشريفين والمقدسات الإسلامية وضيوف الرحمن من الحجاج والمعتمرين والزوار.

حما الله المملكة ومقدساتنا المشرفة
متمنين للحكومة الرشيدة دوام السؤدد

الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد (الهند)
JAMIA ISLAMIA DARULULOOM HYDERABAD, INDIA
JAMIA NAGAR, PO. S.V.P.N.P.A. HYDERABAD-500052. T.S. (INDIA)
Ph: +91 9849044900, 040- 20024146, darululoom.hyd@gmail.com

الصحوة الإسلامية

مجلة فصلية جامعة

الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد۔ الهند

السنة : ٣٠ العدد : ٧٦

جمادى الأولى ١٤٣٨هـ فبراير ٢٠١٧م

المشرف العام

محمد رحيم الدين الأنصاري
رئيس الجامعة

رئيس التحرير

إمداد الحق بختيار القاسمي
رئيس قسم اللغة العربية

المدير المسؤول

محمد حسام الدين ثاني
مدير الجامعة

أعضاء إدارة المجلة

* **محمد زين العابدين الأنصاري**
نائب رئيس هيئة التدريس بالجامعة
* **آس محمد القاسمي**
أستاذ الجامعة
* **عبيد الله القاسمي**
أستاذ الجامعة
* **محمد عظيم الدين الأنصاري**
نائب رئيس الجامعة
* **عبد الله القاسمي**
أستاذ الجامعة

هيئة الإشراف

* **محمد حسيب الرحمن القاسمي**
رئيس هيئة التدريس بالجامعة
* **محمد جمال الدين القاسمي**
رئيس قسم الفقه والإفتاء
* **سيد أحمد وميض الندوي**
نائب رئيس قسم الحديث
* **محمد أنصار القاسمي**
رئيس قسم الحديث
* **محمد تجمل حسين القاسمي**
نائب رئيس قسم الفقه والإفتاء
* **محمد مجيب الدين الحسامي**
أستاذ الجامعة

الصحوة الإسلامية

مجلة فصلية جامعة

الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد. الهند

المشرف العام

محمد رحيم الدين الأنصاري

رئيس الجامعة

رئيس التحرير

إمداد الحق بختيار القاسمي

الاشتراكات السنوية

للهند: ٣٠٠ روبية هندية

للخارج: ٦٠ دولارا بالبريد الجوي

المراسلات

JAMIA ISLAMIA
DARULULOOM
HYDERABAD
Jamia Nagar, Post. S.V.P.N.P.A
Hyderabad, 500052, (T.S) INDIA

الهاتف والفاكس

Ph: 0091-40-20024146
Fax: +91-40-24016479

البريد الإلكتروني والجوال

Email: darululoom.hyd@gmail.com
ansari.raheem900@gmail.com
Mob: 0091-9849044900

الكتابة

محمد بُشير نعمان المعروفي القاسمي
أمين قسم الحاسب الآلي بالجامعة

المقالات والبحوث المنشورة بهذه المجلة تعبر عن رأي أصحابها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

في هذا العدد

كلمة الصحوة الإسلامية

• إصدار قانون جاستا — التحرير — ٣

كلمة العدد

• إطلاق الحوثيين صاروخا باتجاه الكعبة المشرفة — الأستاذ محمد رحيم الدين الأنصاري — ٦

بحوث

• منهج الإمام النانوتوي في تعليقه على الصحيح للإمام البخاري — إمداد الحق بختيار القاسمي — ٨

• منهج القسطلاني في الاستشفاع بالصالحين والتبرك — د. مها بنت عبد الرحمن أحمد نتو — ٢١

دراسات

• التفسيرات الأحمدية لملا جيون دراسة في المنهج والاتجاه — الأستاذ محمد نوشاد النوري القاسمي — ٣٣

• مع أسرة أنصارية من أهل قباء — د. خالد بن مرغوب أمين الهندي — ٤٠

• زجاجة المصابيح ... دراسة موضوعية — الأستاذ محبوب فروغ أحمد القاسمي — ٥٢

أدب

• قراءة أدبية في كتاب الطريق إلى المدينة — الأستاذ محمد أعظم الندوي — ٥٥

• دورالحديث النبوي الشريف في توسعة نطاق النثر العربي — محمد سعيد الله بن شيخ نور عين — ٥٩

الفقه الإسلامي

• النهي عن الاكتناز والشح والإسراف والأمر بالحجر على السفيه — الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد — ٦٧

الفكر الإسلامي

• من ماض مجيد الى حاضر عظيم — الأستاذ تنوير خالد القاسمي — ٧٣

تاريخ

• جهود خالد بن عبد الله القسري في رعاية المسجد الحرام في العصر الأموي — د. فيصل عبد الله بني حمد — ٧٦

رحلة وانطباعات

• في ضيافة خادمِ الحرمين الشريفين الملك سلمانَ بن عبد العزيز — الأستاذ محمد ساجد القاسمي — ٧٨

واقع الأقلية المسلمة في الهند

• توصيات هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند — الأخ وسيم أحمد — ٨٥

إلى رحمة الله

• فضيلة الشيخ عبد الحق المحدث الأعظمي رحمه الله — رئيس التحرير — ٨٩

إضاءة

• أمة ممتحنة — إمداد الحق بختيار القاسمي — ٩٦

التحرير

أحداث ١١/سبتمبر ٢٠٠١م و إصدار قانون جاستا

لأمر ما جدع قصير أنفه

تبريرا لتدمير الدول الإسلامية واختلاق بيئة الإسلاموفوبيا، وتشويه سمعة الإسلام والمسلمين في العالم، واتخاذ السيطرة على الموارد الطبيعية من النفط والغاز وما إلى ذلك.

جاء تمثيل مسرحية أحداث ١١/سبتمبر التي كانت قد نسجتها المنظمة الصهيونية (الموساد) ونفذتها بدقة متناهية هي نصيبها في المكر والخداع واختلاق (الحقائق) وتحقيق "الأكاذيب" وحققه الخبراء والمحللون والعلماء من دول العالم كافة أكثر من مرة.

وبعد مضي ٤٨ ساعة على الأحداث كانت قد نشرت كل من الـ "سي بي ايس" والـ "إين بي سي" قائمة بركاب الطائرات الأربع المخطوفة التي اصطدمت منها طائرتان ببرجي مبنى التجارة العالمية، ولم يكن في أسماء الركاب ما تماثل أسماء عربية؛ بل كانت كلها غير عربية، والركاب كانوا جميعا ينتمون إلى أميريكا أو أميريكا الجنوبية كما نشرت صحيفة "الانديبندينت" يوم الجمعة ٢٠٠١/٩/١٤م. وصحيفة "جارديان" البريطانية يوم الخميس ٢٠٠١/٩/١٣م قائمة بأسماء جميع ركاب الطائرات الأربع وأسماء طواقمها لم يكن من بينها أي من الأسماء العربية الإسلامية. وعلى الرغم من ذلك اتخذتها أميريكا حجة لشن الغارات على دولة أفغانستان، وكست سمائها أثوابا سوداء، وحفلتها بأنواع من الطيارات الحربية التي ألقت على المدنيين وبين العمران القنابل المتفجرة والبراميل المدمرة، وسفكت دماء الآلاف، ودمرت مئات القرى والمدن، وعلى كل نالت هدفها الدامي وغايتها الضارية.

ومن ثم روّجت كلمة الإرهاب، ونجحت فى تصنيف الإسلام والمسلمين الإرهابيين، وابتكرت مصطلح الإسلاموفوبيا، واحتالت حيلا ومكرت مكرا فهدمت دولة تلو دولة، يولمنا سرد قصتها.

"قد نشرت كل من الـ "سي بي ايس" والـ "إين بي سي" قائمة بركاب الطائرات الأربع المخطوفة التي اصطدمت منها طائرتان ببرجي مبنى التجارة العالمية، ولم يكن في أسماء الركاب ما تماثل أسماء عربية؛ بل كانت كلها غير عربية، والركاب كانوا جميعا ينتمون إلى أميريكا أو أميريكا الجنوبية."

ولم تجد أي سبيل لأن تلعب في المملكة العربية السعودية لعبها العدائي في الدول الأخرى العربية والإسلامية، باعتبارها

مهوى قلوب المسلمين، وحاضنة للحرمين الشريفين والمقدسات الإسلامية التي تحميها الأمة الإسلامية عن آخرها مقابل آخر قطرة من دمهم، ولن يتحملوا أي عدوان وإلحاد فيها؛ ومن ثم جاء الصياد القديم الحاقد بشكبة جديدة، لإلحاق الضرر بالمملكة العربية السعودية مثابة الإسلام والمسلمين، وحبيبة لكل فؤاد المسلم وهو ماسمي بقانون "جاستا" وكلمة "جاستا"(JASTA) اختصارٌ لـ "Justice Against sponsors of terrorism Act" والكلمة تعني بالعربية "قانون العدالة ضد رعاة الإرهاب". وتم تشريعه بتاريخ ٢٠١٦/٩/٢٨م، بعد تصويت الكونغرس الأميركي بمجلسيه النواب والشيوخ بأغلبية تفوق وصف "الساحقة" يوم الأربعاء بنفس التاريخ برفض الفيتو الذي استخدمه الرئيس باراك أوباما ضد قانون "العدالة ضد رعاة الإرهاب" بحجة أن القانون سيضر بالمصالح الأميركية، وسيكون له تأثير ضار على الأمن القومي للولايات المتحدة، وأضاف: أن تشريع قانون (جاستا) يمكن أن يشجع الحكومات الأجنبية على العمل على أساس المعاملة بالمثل والسماح لمحاكمها المحلية لممارسة الولاية القضائية على الولايات المتحدة أو المسؤولين الأميركيين بما في ذلك رجالنا ونساؤنا في الجيش، وهذا يمكن أن يؤدي إلى قيام دعاو ضد الولايات المتحدة أو مسؤوليها بسبب أفعال من قبل أعضاء في جماعة مسلمة، تلقت مساعدة أميركية، أو استخدام خاطئ لمعدات عسكرية أميركية، مما ينبئ بعواقب مالية خطيرة على الولايات المتحدة.

"وهذا القانون ــ المثير للجدل الواسع في العالم ــ يمثل للمدنيين الأميركيين فرصة رفع قضايا مدنية إلى المحاكم الأميركية ضد أولئك الأشخاص أو الجهات أو الدول التي قامت بتقديم دعم سواء بشكل مباشر أو غير مباشر إلى أشخاص أو منظمات تعتبر مسؤولة عن الإصابات التي لحقت بهم كما تنصه المادة السادسة من القانون، وبعبارة أخرى يمكن للمصابين الأميركين جراء العملية الإرهابية مقاضاة دول ينتمي إليها منفذ العملية الإرهابية."

كما يستحق لصاحب أي تعويض بقانون جاستا الحجز على أي نوع من الأموال التي تملكها دولة ـ تمت مقاضاتها ـ في أميريكا من عقارات، استثمارات، صناديق، شركات وما إلى ذلك.

ولم تأت في القانون ومادته صراحة عن دولة أو جهة أو منظمة باعتبارها إرهابية! ولكن الذين يتبايعون القضايا الدولية، ومن لهم قدح معلى في إدراك شعوذة سياسية من المراقبين والمحللين السياسيين ينظرون من خلال نظارة هذا القانون أنها لا تستهدف بحجة هذا القانون ــ التي تشكل سابقة خطيرة في القوانين الدولية ـ إلا الدول العربية والإسلامية واحدة ثم أخرى، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية، فإن القانون يتيح لأسر وأقارب ضحايا هجمات ١١/ سبتمبر ٢٠٠١م، مقاضاة دول ينتمي إليها المهاجمون، وفي طليعتها المملكة العربية السعودية التي ينتمي إليها حسب مزاعم أميريكا ١٥ من مجموع ١٩ من المهاجمين، ومن نوايا الخبيثة التي تعمل وراء سنّ هذا القانون أن تصنف المملكة العربية السعودية دولة إرهابية ثم تؤخذ السيطرة على أموال السعودية التي تتواجد في أميريكا.

وأثار القانون الجدل واسع النطاق في العالم كافة، وجاءت الإدانات والاستنكارات والكراهية من عدة دول فإن القانون ليس بمبادئ المساواة والحصانة السيادية للدول، وفيه مخالفة

واضحة وصريحة لميثاق الأمم المتحدة، ومبادئ القانون مبادئ المساواة في السيادة، وحصانة الدولة، والاحترام المتبادل وعدم فرض القوانين الداخلية لأي دولة على الدولة الأخرى، وكان طبيعيا أن يلقى هذا القانون معارضة العديد من الدول، ناهيك عن الكثير من الخبراء والمسؤولين حتى الأميريكيين أنفسهم؛ في ظل استشعارهم للمخاطر التي يشكلها هذا القانون في العلاقات الدولية.

وقد أعربت الإدارة الأمريكية عن معارضتها للقانون المسمى اختصار (جاستا) بصيغته، وذلك على لسان الرئيس الأمريكي ووزير الدفاع، ورئيس هيئة الأركان المشتركة، ومدير وكالة الاستخبارات المركزية.

بالإضافة إلى الدول الأخرى من التركيا وباكستان، والدول الخليجية، وشعوبها وشعب الهند وعلمائها ومنظماتها ومراكزها الإسلامية تقف بجانب المملكة العربية السعودية ضد هذا القانون النادر المناقض القوانين الدولية، والمُصدِر قلقا كبيرا، وما يهدد الأمن الدولي، والعلاقات الدولية ومن شأنه أن يحقق التباعد المتزايد بين الأمريكية والمملكة، ويسن سنة سيئة لجميع الدول، فكل دولة تحاول اتخاذ مثل هذا القانون صيانة لها ولشعبها؛ وهكذا تنفجر حرب جديدة النوع في العالم جميعا، ويفتح الباب على مصراعيه، ويدخل العالم مرحلة فوضى وعبث تشريعي عندما يكون لكل دولة قانونها الخاص بها، الذي يحميها من الدول الأخرى، ويعطيها الحق في السيادة عليها، ومطالبتها بالمثول أمام قضاتها كالأفراد.

وهكذا تنهار الثقة بين الدول، فتتأثر التجارة الدولية والاقتصاد والسوق العالمي، حيث ستصل المعاملات الاقتصادية بين الدول إلى أدنى مستوى.

مهما كان الأمر؛ فإن القانون كشف القناع عن الأميريكة ووجهها الحقيقي ومواقفها الكامنة وسياستها الخارجية بالنسبة إلى الدول العربية والإسلامية، وإلى المملكة العربية السعودية بصفة خاصة، فآن الأوان أن يقف أرباب ولاة الأمر للدول العربية والإسلامية متكاتفين مساعدين في ضوء نصوص الكتاب والسنة، معتبرين بالتاريخ الإسلامي والصهيوني اعتبارا يتمتع بالإخلاص.

ومن نعم الله ـ تبارك وتعالى ـ الكبرى أنه فوض أمر الحرمين الشريفين إلى أسرة ونفوس تسهر للأمة، وتضحي لها كل نفيسها وغاليها، والخدمة شعارها، ولديها تجربة ناضجة للتعامل مع المواقف المضادة للإسلام والمسلمين، فيجب على جميع الدول وشعوبها أن تشد أزرها وتقف بجانبها في كل يسر وعسر.

وهذا القانون ـ الذي لا سوابق له ـ سيصل إلى مصيره، ويسقط على وجهه، ولن ينجح من أصدروا القانون في موامراتهم ومحاولاتهم ويرجعون خائبين خاسرين.

فكل دولة تحاول اتخاذ مثل هذا القانون صيانة لها ولشعبها؛ وهكذا تنفجر حرب جديدة النوع في العالم جميعا، ويفتح الباب على مصراعيه، ويدخل العالم مرحلة فوضى وعبث تشريعي عندما يكون لكل دولة قانونها الخاص بها.

إطلاق الحوثيين صاروخا باتجاه الكعبة المشرفة

من أبشع العمليات الإجرامية ومحاولة المساس بحرمة الحرمين الشريفين

ولا يلقون جزاء بما كسبوا إلا ما لقي أبرهة اليمن من خزي وذل وحتف وموت.

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

الأستاذ محمد رحيم الدين الأنصاري *

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وبعد.

فقد ألّبت حادثة إطلاق الحوثيين لصاروخ بالستي بهدف استهداف الكعبة المشرفة والأماكن المقدسة موجات غضب وسخط عمت أرجاء العالم قاطبة بما فيها المنطقة العربية والدول الإسلامية والديمقراطية الأخرى، كما أثارت الحادثة إدانات واستنكارات رجالات الدين والسياسة من أصقاع العالم برمتها، ولا تزال تتصاعد حتى الآن.

وما حصلت العملية البشعة هذه إلا سرى نبأها في الكوكب الأرضي طوله وعرضه أسرع ما تسري النار في الهشيم، واندلعت نيران السخط في قلوب المؤمنين، وانفجروا غيظا وغضبا، ولم يتمالكوا أنفسهم وعبروا عن امتعاضهم وغضبهم من تطاول الحوثيين على الكعبة المشرفة، واستهدافهم لأطهر بقاع الأرض عبر الصحف والجرائد اليومية، والقنوات الجوية التلفزيونية، ومواقع التواصل الاجتماع بشكل لا عهد لها من قبل.

وهذه فعلة إجرامية منبوذة لا يجترئ عليها إلا من كان عدو الله وملائكته ورسله وسائر المسلمين والحرمين الشريفين والأماكن المقدسة، لما تحمله من انتهاك للحرمات المقدسة الإسلامية، ومن استهتار بمشاعر ملايين المسلمين عبر العالم، ومن محاولة لزعزعة الأمن والاستقرار في المملكة العربية السعودية ـ زادها الله حفظا وأمنا.

وهذه فعلة إجرامية منبوذة لا يجترئ عليها إلامن كان عدو الله وملائكته ورسله وسائر المسلمين والحرمين الشريفين والأماكن المقدسة، لما تحمله من انتهاك للحرمات المقدسة الإسلامية، ومن استهتار بمشاعر ملايين المسلمين عبر العالم، ومن محاولة لزعزعة الأمن والاستقرار في المملكة العربية السعودية زادها الله حفظا وأمنا.

وإذا كلّل الله ـ تبارك وتعالى ـ موسم حج هذا العام بالنجاح الباهر، وجَنّبه كل مكروه وسوء، وأفاض عليه الأمن والاستقرار، ولم ينجح أي مكر وكيد

* رئيس الجامعة

للأعداء لتكدير الموسم وتسييسه؛ وذلك لمنظومة متكاملة تحت إشراف مباشر لخادم الحرمين الشريفين ـ أيده الله ـ لإنجاح الحج، فعض الأعداء على النجاح الأنامل، وأخذت بهم الجنة، فاقترفوا بعملية عشوائية مجنونة هذه.

وليس هو إلا العدوان السافر والطغيان الفاجر والاعتداء الآثم، ولم يستهدف من خلالها إلا المساس بحرمة الأماكن الإسلامية المقدسة، وإزهاق أرواح المدنيين الأبرياء، والاستفزاز لمشاعر المسلمين في كل أنحاء العالم، ولا يلقون جزاء بما كسبوا إلا ما لقي أبرهة اليمن من خزي وذل وحتف وموت.

"هذا إلى أن المسلمين عن بكرة أبيهم يرفعون شعارات الثناء والشكر لقوات التحالف من الدول العربية والإسلامية بقيادة خادم الحرمين الشريفين ـ أيده الله تعالى ـ على ما قامت بإسقاط الصاروخ، وتدميره على بعد ٦٥ الكيلو مترا من مكة المقدسة، ما يعكس على مدى وعيها وشعورها بواجباتها ومسؤولياتها تجاه الأمة والحرمين الشريفين والأماكن المقدسة ـ زادها الله شرفا وعظمة ـ وهكذا أحبطت القوات العربية الباسلة مؤامرة الحوثيين الخبيثة، وخيّبت آمالهم الدنيئة، وضلّلت كيدهم، وجعل صاروخهم عصفا مأكولا."

والهجوم الآثم باتجاه الحرم المكي الشريف من قبل الجماعة المتطرفة الإرهابية الحوثيين المدعومين من الإيران الحاقد تشكل مؤشرة من مؤشرات بداية نهايتهم والقضاء عليهم، فالتاريخ خير شاهد، ومن هو أحسن شاهدا من القرآن الكريم بأنه لم يتوجه أحد نحو الكعبة المشرفة بوجه ما كر إلا سوّده الله ـ العزيز القدير ـ فانظر كيف كان عاقبة المفسدين.

كما كشف الاعتداء السافر قناع الانغلاق عن وجه الإيران الحقيقي، ومؤامراتها العدائية ضد الإسلام والمسلمين، وهتافاتها الإسلامية الجوفاء، وخطة تصدير مشروعها الاستعماري إلى الدول الإسلامية المجاورة.

فأعرب جميع المسلمين من أطراف العالم كافة، ومن بينها شعب شبه القارة الآسيوية: الهند وباكستان وبنجلاديش، عن استنكارهم وامتعاضهم للحوثيين والإيران الداعم الماكر الغاشم، كما عبروا عن تضامنهم المطلق ومساندتهم الكاملة مع القيادة الرشيدة من المملكة العربية السعودية وخادم الحرمين الشريفين ـ أيده الله تعالى ـ في مواجهة كل ما من شأنه أن يمس سيادتها وطمأنينتها، وفي درء أي سوء عن الحرم المكي الشريف، مهما كان الثمن من تضحية الروح والدم لأجل صيانة الحرمين الشريفين والدفاع عن المقدسات الإسلامية.

ونبتهل إلى المولى ـ عزوجل ـ أن يحفظ بلاد الحرمين الشريفين من كيد الكائدين ومكر الماكرين وردهم على أعقابهم خائبين خاسرين، ويذيقهم من عذاب أليم، ولا يذر على الأرض من الكافرين ديارا، ويمزقهم تمزيقا فلا نحس منهم أحدا ولا نسمع لهم ركزا.

وسلام على خادم الحرمين الشريفين وأسد قوات التحالف للدول العربية والإسلامية.

كما كشف الاعتداء السافر قناع الانغلاق عن وجه الإيران الحقيقي، ومؤامراتها العدائية ضد الإسلام والمسلمين، وهتافاتها الإسلامية الجوفاء، وخطة تصدير مشروعها الاستعماري إلى الدول الإسلامية المجاورة.

منهج الإمام النانوتوي في تعليقاته على الجامع الصحيح للإمام البخاري

إمداد الحق بختيار القاسمي *

ملخص البحث

يتناول البحث منهج الإمام النانوتوي في تدريس الحديث الشريف، ومنهجه في التعليقات على الجامع الصحيح للإمام البخاري، وكذلك تمت المحاولة في تحديد الأجزاء التي علق عليها النانوتوي؛ فإن المحققين والمؤرخين ذهبوا إلى مذاهب في هذا الأمر، فجاء توزيع البحث على ملخص البحث وفاتحة وأربعة مباحث وخاتمة وهي كما يلي:

(١) **ملخص البحث**

(٢) **فاتحة البحث**

(٣) **المبحث الأول**: منهج الإمام النانوتوي في تدريس الحديث الشريف.

(٤) **المبحث الثاني**: تحديد فترة التعليق على البخاري في حياة الإمام النانوتوي رحمه الله.

(٥) **المبحث الثالث**: عدد الأجزاء من الجامع الصحيح للبخاري التي علق عليها الإمام.

(٦) **المبحث الرابع**: منهج الإمام النانوتوي في التعليق على البخاري.

(٧) **خاتمة**

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا التوفيق والسداد، ويقينا الزيغ والضلال، وهو الموفق لكل صواب وميسر لكل صعاب.

فاتحة البحث

خلال مطلع النصف الأول من القرن الثالث عشر قد ولدت من ستار أرض الهند شخصية عبقرية؛ لا تزال تسطع شمس علومه مع كر الليالي ومر الأيام، وظلت تكشف أشعتها العلمية الدعوية ظلام الكفر والشرك، وبيئة الإلحاد والزندقة، وسواد الضلال والغي، وأوهام البدعات والخرافات، وظلمات الجهل والأمية، ولا تشرق طلعتها العلمية على قارة أسيا فحسب؛ بل امتدت إلى الأصقاع المأهولة كافة.

وهي شخصية حجة الإسلام الإمام محمد قاسم النانوتوي ــ رحمه الله تعالى ــ (١٣٤٨هـ= ١٨٣٢ء أم ١٨٣٣/٤/ جمادى الأولى ١٣٩٧ء= ١٥/ إبريل١٨٨٠ ء) كان الإمام من عجائب الزمن، متعه الله ــ عزوجل ــ بالمؤهلات المدهشة، وقام في كل من مجال الجهاد والمناقشة العلمية والمناظرة الدينية وإلقاء الدروس والخطابة والتصنيف والتأليف بخدمات مشكورة.

وعلى الرغم من أن القسط الكبير من جهوده قد بذلت لأجل استعادة مجد المسلمين وقوتهم المفقودة، ضد استعمار الإنجليز لتحرير الهند، ولأجل الجهاد العلمي المتواصل ضد المسيحية والكفر والشرك والإلحاد والزندقة والبدعات والخرافات؛ ولكن إلى جانب ذلك ترك

* Email: ihbq1982@gmail.com

البصمات الملموسة المغبوطة بها في حقل التعليم والتربية، والخطابة والكتابة، جاءت عشرات الكتب نابعة من قلمه الممطر اللآلي، وفي هذا السياق تشكل تعليقاته على الأجزاء الأخيرة من الجامع الصحيح للإمام البخاري كحل العيون لهواة التحقيق وعطشى العلم.

المبحث الأول: منهج الإمام النانوتوي في تدريس الحديث الشريف

أفاد الشيخ السيد محبوب الرضوي: (١)

ولعب الإمام النانوتوي دوراً عظيماً في الرقي بما كان يمتاز به جامعة دارالعلوم/ديوبند من منهج إثبات مذهب الحنفية وترجيحه، وأسلوب العرض والتنقيح والشرح مما تتبعه معظم المدارس العربية في طول البلاد وعرضها في تدريس مادة الحديث. فقد كانوا يكتفون في تدريس الحديث بنقل الحديث إلى اللغة المحلية، وسرد المذاهب الفقهية الأربعة حتى منتصف القرن الثالث الهجري، ولكن قامت جماعة أهل الحديث في الهند بتسديد السهام اللواذع إلى الأحناف بأن مذهبهم لايوافق السنة النبوية، فاهتم الشاه محمد إسحاق وطائفة من تلامذته بإثبات المذهب الحنفي وترجيحه، وحذا حذوهم الإمام النانوتوي وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي في دارالعلوم بديوبند، ونفخوا الروح في هذا الأسلوب التدريسي، وبلغوا به ذروةَ الكمال؛ فلا تجد مدرسةً من مدارس الحديث ـ اليوم ـ إلا وتتبع هذا المنهج التدريسي لمادة الحديث.

وكان من الصعوبة بمكان الاستفادة من دروس الإمام النانوتوي والاستقاء من منهله إلا لمن أوتي حظاً كبيراً من الذكاء والفهم والقدرة، بالإضافة إلى دراسة مسبقة واعية متأنية للكتاب. و لك أن تدرك ـ بصورة إجمالية ـ ما كان يتمتع به الإمام النانوتوي من الفهم وقوة الذاكرة، وبعد النظر، وعمق التفكير، وقوة الاستدلال من خلال دراسة كتبه وتأليفاته القيمة. وكان رحمه الله يقول: «إن أحكام الكتاب والسنة بأسرها توافق العقل مئة في المئة، إلا أنه لا يصل إليه عقول الناس جميعاً». ويقول الطبيب منصور علي خان المراد آبادي ـ أحد كبار تلامذته (٢)

وهو يتحدث في كتابه الماتع «مذهب منصور» عن خصائص دروس الإمام النانوتوي وميزاتها- : «والحق أن أساطين العلم والكمال كانوا يأخذهم العجب كل مأخذ، ويقطعون أيديهم حين كان الشيخ النانوتوي يستدل في مسألة عويصة صعبة على خلاف ما ذهب إليه جماهير العلماء. فتجد حكماً من أحكام الشرع لا يعضده دليل شرعي في بادي الأمر؛ فإذا تحدث عنه الشيخ وشرحه وكشفه وجدتَه يوافق ـ أيَّ موافقة ـ للعقل. وعجز كبار أهل العلم والفضل أن يردّوا الأدلة التي يقدمها الشيخ النانوتوي» (٣) ويقول شيخ الهند رحمه الله - في «أرواح ثلاثة»: «كنت أطالع مؤلفات الشاه ولي الله الدهلوي ثم أحضر دروس الإمام النانوتوي، وأسأله عما دقَّ وصعب في كتب الشاه ولي الله، فكان الإمام النانوتوي يبدأ بالرد الذي انتهى به الشاه ولي الله الدهلوي. وقد جربته مراراً» (٤)

وقد تخرج عليه جماعة من مشاهير و جبال العلم و المعرفة يعز مثيلها في أعقاب الشاه عبد الغني الدهلوي، أمثال شيخ الهند محمود حسن الديوبندي، والشيخ أحمد حسن الأمروهوي (٥) والشيخ فخر الحسن (٦) الكنكوهي (٧)

المبحث الثاني: زمن التعليق على البخاري

في أي سنة من الهجرة والميلادية قام الإمام النانوتوي فيها بالتعليق على صحيح البخاري، وكم قضى الإمام من عمره وقتئذ؟

يقول مولانا أسير الأدروي (٨) في هذا الصدد:

"تم طبع البخاري بعد إكمال الشيخ أحمد علي السهارنفوري أعمال التصحيح والتعليق على البخاري، وبعد إكمال

الإمام النانوتوي التصحيح والتعليق على الأجزاء الستة الأخيرة منه في ١٢٦٧هـ (١٨٥٠ء)" (٩)

وذكر الشيخ مناظر أحسن (١٠) الكيلاني:

"أسند الشيخ أحمد علي السهارنفوري(١١) (المعلق والناشر للبخاري) الأجزاء الخمسة أو الستة من البخاري التي لم يأت التصحيح والتعليق عليها بعد إلى الإمام النانوتوي، وذلك في زمن قرأ الإمام فاتحة الفراغ من الدراسة، ولا يناهز ٢٢ أو ٢٣ من عمره." (١٢)

وأضاف في موضع آخر:

"وقد حصل التعيين به أن دخول الإمام الكبيرفي إطار الحياة الزوجية كان فيما يقرب من ٢١ و٢٢ سنة من عمره، وينبغي أن يكون عمره ذلك في ١٨٥٣ء."(١٣)

وأفاد في موضع:

"وحسب إفادته (محمد يعقوب النانوتوي) أن الإمام النانوتوي قام بالتعليق على البخاري بالإضافة إلى تصحيحه في المطبع الأحمدي (١٤) في نفس الزمن (زمن النكاح)." (١٥)

يتجلى بهذه السطور من الكتاب (سوانح قاسمي) بوضوح أن زمن التعليق على البخاري حوالي الفترة المتراوحة منذ ١٨٥٠ء إلى ١٨٥٣ء، وهذا الذي كتبه الشيخ الأدروي.

وأفاد السيد محبوب الرضوي الديوبندي:

قام الإمام النانوتوي بتعليقاتٍ قيمةٍ على «صحيح البخاري» كما سبق، ويبدو ـ من خلال سرد الشيخ محمد يعقوب النانوتوي قصته ـ أن الإمام النانوتوي قد أنهى دراسته قبل عام ١٢٧٦هـ/١٨٥١م، ثم قضى نحواً من سنةٍ في بيت الشيخ يعقوب، ثم غادر الشيخ يعقوب«دهلي» في أواخر عام ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م إلى «أجمير» فتنقل الإمام إلى أماكن وقضى بها مدة من الزمان، حيث أسند إليه التعليق والتحشية على «صحيح البخاري» حينئذٍ.

أضف إلى ذلك أنه من المعلوم يقيناً أن الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ـ زميل الإمام النانوتوي في الدراسة ـ مكث في «دهلي» أربع سنوات، وأنهى بها دراسته عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م وعاد إلى بلده (١٦) وربما كان الإمام النانوتوي قد تخرج في العام نفسه (١٢٦٥هـ) وبهذا يكون قد أنهى دراسته النظامية وهو ابن سبع عشرة سنة.

وطبعة «صحيح البخاري» التي أصدرتها «مطبعة جتبائي» بـ«دهلي» عام ١٣٢٢هـ /١٩٠٤م تنتهي بنص فارسي معناه: «وفي عام ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م أمر بنشره وطبعه، ثم تولى أولاده ـ الذين هم على حظ وافر من العلوم النقلية و العقلية، والأخلاق المحمدية بنشره وطبعه عام ١٢٨٤هـ /١٨٦٧م ثم في عام ١٣٠٨هـ/١٨٩٠م».

وصرح كتاب «حياة شبلي» بأن أول ما نشر وطبع صحيح البخاري عام ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م حيث يقول: «ومن أهم خدمات الشيخ السهارنفوري أنه بذل جهوداً مضنيةً في تصحيح نصوص مخطوطات الحديث الشريف وتحقيقها وطبعها ونشرها، ففي عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٨م طبع جامع الترمذي، وفي عام ١٢٦٧هـ/١٨٥٠م صحيح البخاري. ويقول العلامة «شبلي»(١٧) قد أنفق شيخنا رحمه الله عشرين عاماً في تصحيح نصوص صحيح البخاري، والتعليق عليه. (١٨)

والذي أرى أن سنة طباعة صحيح البخاري التي ينص عليها إصدار «مكتبة مجتبائي» (١٩) أقرب إلى الصحة. وقد جاء في نهاية صحيح البخاري ما يستخرج منه تاريخ طبعه حيث قال: و هذه مادة تاريخ ختم الطبع استخرجها المولوي محمدعمر بن المولوي أحمد سعيد المجددي: قد طبع أصح كتب بعد كتاب الله:١٢٧٠هـ

و هذه التفاصيل التي سردناها تقضي بأن تحقيق نصوص الأجزاء الخمسة أو الستة لصحيح البخاري والتعليق عليها إنما قام به الإمام النانوتوي عام ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م.

ولايخفى أن الإمام النانوتوي من مواليد عام ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م، إذاً كان لا يتجاوز عمره ـحين قيامه بعمل التصحيح والتعليق هذا ـ واحداً وعشرين عاماً. ولم يقطع الشيخ مناظر أحسن الكيلاني بشيء في

ذلك، وإنما قال: «الأغلب أنه كان لا يتجاوز اثنين وعشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً من عمره» (٢٠)

وليس غريباً أن يكون إسناد تصحيح نصوص صحيح البخاري والتعليق عليه ـ ذلك العمل العلمي العظيم ـ إلى شابٍ حديث السن مبعثَ عجبٍ وحيرةٍ لأولئك الذين خفي عليهم مكانةُ الإمام النانوتوي العلمية وعبقريتهُ، إلا أن الشيخ أحمد علي السهارن فوري قد تفطن ـ بفراسته و ذكائه ـ لما كان يتصف به تلميذه من الذكاء المفرط، والذهن الوقاد، والتضلع من العلوم. (٢١)

هذا. إلى أن الشيخ نور الحسن الكاندهلوي (٢٢) ألقى على الأمر عين التحقيق من شتى الجهات، وحاول أن يحدد تاريخ التعليق، فعلق الإمام على البخاري في الشهور الستة الأولى من ١٢٦٩هـ وفق تحقيقه وهو كما يلى:

"علمنا من خلال شتى القرائن والدلائل أن الإمام ربما قام بهذه الخدمة في الشهور الستة الأولى من ١٢٦٩هـ، والدليل على ذلك أن وصفة البخاري هذه (أي التى تم التعليق عليها) تمت طباعتها في ١٢٧٠هـ، وتلمح كتابات الشيخ يعقوب النانوتوي (الذي سافر من دهلى إلى أجمير في ١٢٦٨هـ) إلى أن الإمام لم يأخذ في التعليق حتى سافر الشيخ يعقوب النانوتوي (٢٣) من دهلي إلى أجمير."(٢٤)

وأضاف الشيخ الكاندهلوي:

"وكان الإمام النانوتوي شابا آنذاك (٦٩ـ ١٢٦٨هـ) وكان في العشرين أو الحادي والعشرين من عمره." (٢٥)

كان الإمام في ١٩ من عمره وفق التقويم الهجري وفي ١٧ وفق التقويم الميلادي كما صرح به أسير الأدروي، وكذلك أفاد بما يقرب منه الشيخ مناظر أحسن الكيلاني، ويثبت تحقيق نور الحسن راشد الكاندهلوي أن الإمام كان في ٢١ أم ٢٢ من عمره، ومن المقرر أن طباعة الصحيح للبخاري حصلت في ١٢٧٠هـ (٢٦)

المبحث الثالث:

عدد الأجزاء من الجامع الصحيح للبخاري الذي علق عليه الإمام

يتفق كاتبو سيرة الإمام عن بكرة أبيهم: أن الإمام علق على الأجزاء الخمسة أو الستة من البخاري، على حين يذهب بعضهم أن عدد الأجزاء التي جاء التعليق عليها هو أربعة ونصف، ويقول بعضهم: ثلثة، من بينهم الشيخ نور الحسن راشد الكاندهلوي، أثبت حسب تحقيقه أن الإمام علق على ثلاثة أجزاء فقط.

وأقوى ما يدل ويعول عليه لدى الكاندهلوي هو كلمات ألقاها الشيخ محمد يونس الجونفوري المحترم شيخ الحديث بجامعة مظاهر علوم سهارنفور في إحدى جلساته، تفضل فيها الشيخ بالمقارنة بين هوامش الشيخ أحمد علي السهارنفوري وبين هوامش الإمام النانوتوي، وقام بإبراز الفروق والتمييز بين هوامشهما، وحقق أن الإمام النانوتوي علق على الأجزاء الثلثة الأخيرة فحسب.

وإليكم المقارنة:

(١) يفيد الشيخ محمد يونس: أن أسلوب الكلام قد أخذ لونا جديدا من كتاب المحاربين، مما يبدو أن التعليق على الجامع إلى كتاب المحاربين وبعده قام به شخصيتان مختلفتان.

(٢) وأفاد في جلسة في سياق بيان الفرق بين هوامشهما: أن هوامش الأجزاء الأخيرة تختلف عما سواها بوجوه آتية:

(الف): تتسم هوامش الشيخ أحمد علي بميزة الإيجاز، ويسعى الشيخ جاهدا في كشف مغلقات الكتاب، ولا يقتطف من شروح وتعليقات البخاري ولا من الكتب الأخرى إلا الأجزاء والمقاطع التي لا بد منها، ولا يكتب الشيخ المقتطفات الطويلة؛ بل تستخرج الجوهر والعطور من جميع العبارات والمقتطفات المعنية.

(ب) ولا يعجب الشيخَ تكرارُ مبحث في الهوامش، ويكتفي بالإشارة إلى مصدره عند مساس الحاجة.

(ج) هناك مرجع "عثماني" من مراجع الشيخ أحمد علي، ولو لم أتوصل بعد إلى معرفة هذا الكتاب ولا إلى مؤلفه، ولكن الشيخ يكتبه مرارا وكرارا.

وتتميز الهوامش التي تبدأ من كتاب المحاربين مما قبلها بوجوه: وهي كما تلي:

(١) نجد في الهوامش الطوالة والتفصيل بشكل أكثر، نقلت العبارات الطويلة من فتح الباري والشروح الأخرى التي لا تنسجم مع طبيعة الشيخ أحمد علي.

(٢) هذا إلى أنه هناك مباحث طويلة عديدة مكررة سلفت فيما قبلها من الهوامش.

(٣) أخذ الإمام النانوتوي في مواضيع من الفقهاء المتأخرين من أمثال الشيخ ابن همام، ومن إليهم وذلك لا يصدر من الشيخ أحمد علي إلا غرارا.

(٤) لم يأت في هذه الهوامش ذكر مصدر "عثماني" الذي كان من المصادر الدائمة لدى الشيخ السهارنفوري.

(٥) ويختلف أسلوب الكلام بعضه عن بعض، ونشعر أن القلم قد تغير.(٢٧) انتهت المقارنة.

ويقول الشيخ برهان الدين (٢٨) السنبهلي القاسمي:

"ويحصل اكتشاف الفروق المتمثلة في الإيجاز لدى الشيخ السهارنفوري، وفي الإطناب لدى الإمام النانوتوي، ويتضح هذا الفرق أكثر وضوحا مما مضى في الأجزاء الثلثة الأخيرة، ومن ثم ذهبت وجهة نظر من بعض أهل البصيرة إلى أن الإمام النانوتوي لم يعلق إلا على الأجزاء الثلثة الأخيرة."(٢٩)

وبعد هذا التحليل الصادر عن الشيخ السهارنفوري المتمتع بالخبرة الطويلة في مجال التدريس نستحيي أن أقول شيئا في هذا الصدد؛ وعلى الرغم من ذلك نحاول أن نطرح طلبات باعتباري طالبا، وهي:

(١) أما إطالة الهوامش لدى الإمام النانوتوي؛ فيرى أهل الخبرة في هذا الصدد أنها هناك مباحث في الأجزاء الأخيرة تستدعي معالجة حلولها إلى الشرح المستفيض، مثلا: المسائل العقدية الكلامية الهامة، كما كثر في هذه الأجزاء توجيه الاعتراض من قبل الإمام البخاري إلى الأحناف من خلال قوله: قال بعض الناس.

فصرح الشيخ مناظر أحسن الكيلاني:

"يتبادر من صنيع الإمام البخاري أنه طعن في الأحناف من خلال قوله "بعض الناس" وكتب الإمام النانوتوي أيضا أنه أصعب المواضيع في البخاري، ولا سيما في هذا السياق وذلك أن الشيخ أحمد علي اهتم منذ بداية الكتاب بتأييد المذهب الحنفي، وقصد الإمام البخاري في هذه المواضيع رد المذهب الحنفي، وكتب وأصاب: أفلا تدري الصعوبة في الرد على اعتراض الإمام البخاري."

وأردف قائلا:

"وهذا مما يتجلى أن الإمام النانوتوي قد ألقيت عليه مسؤولية الرد على اعتراض الإمام البخاري في الأجزاء التي أسند التعليق عليها إلى الإمام النانوتوي."(٣٠)

وذكر الشيخ أسير الأدروي:

"وأكثر الإمام البخاري الاعتراضات على مذهب الإمام أبي حنيفة، والإشارة إليها في هذه الأجزاء الأخيرة، ولا يخفى على من له أدنى وصلة بعلوم الحديث مدى مكانة الروايات المخرجة في جامعه؛ ومن ثم كان لا يمكن أن تقدم الردود على هذه الاعتراضات دونما إمعان النظر العميق في خزانة الأحاديث بأكملها، كما بات لزاما أن تشرح هذه الروايات شرحا يتمتع بالدليل والعقلانية؛ حتى يتحقق توافق مذهب الأحناف بالسنة تماما."(٣١)

وأفاد الشيخ خالد سيف الله الرحماني: (٣٢)

"استهدف الإمام البخاري الأحناف في الكثير من الأماكن من الأجزاء الأخيرة

لصحيحه، فقدم الإمام النانوتوي فيها وجهة النظر للحنفية مصحوبة بالرواية والدراية، وذلك بأسلوب بديع."(٣٣)

وكذلك ذكر الشيخ برهان الدين السنبهلي القاسمي ما قاله الشيخ الرحماني آنفا في المصدر نفسه.(٣٤)

وتوصلنا من خلال مقتطفات هؤلاء الأعلام البارزين إلى القرب من معالجة حلول سر إطالة تعليقات الإمام النانوتوي، وهي ما تمت الإشارة إليها من المباحث المستعصية والاعتراضات للبخاري على الأحناف، وما إلى ذلك، وإطالة التعليقات في الأجزاء الأخيرة ليست بغريبة، فنرى هذه الإطالة في بعض الأماكن من تعليقات الشيخ أحمد علي السهارنفوري، نقدم مثالا غيضا من فيضة،راجع إلى (جامع البخاري ١٠٢/١،ح:١) نجد ههنا تعليقا طويلا:

وأما ما قال الشيخ الجونفوري: إنه لا يتواجد المصدر العثماني الذي اعتمد عليه الشيخ أحمد علي السهارنفوري بشكل مصدر دائم، ففيه نظر؛ فإننا ظفرنا بذلك المصدر في التعليق من الجزء الثامن والعشرين من الصحيح، انظروا (صحيح البخاري ١٠١٠/٢، كتاب المحاربين،ح:٤، فيصل فبليكيشنز ديوبند)

على أن قول الشيخ الجونفوري يبدو ضعيفا؛ لأن الإمام النانوتوي قام بالتعليقات في نفس المكان الذي علق الشيخ السهارنفوري فيه، (وهو المطبع الأحمدي بدهلي) فالإمام النانوتوي استفاد من الكتب التي استفاد منها الشيخ السهارنفوري، وذلك أمر بديهي لا يختلف فيه إثنان.

كتب الشيخ برهان الدين السنبهلي القاسمي:

"أضاف (كاتب السيرة): كلمة "وغير ذلك" بعد عدّ ٦٤ كتابا من شتى العلوم في هذا الفهرس، ولا يعني ذلك إلا الاستفادة من الكتب الأخرى ما عدا تلك الكتب، ولا ريب في أن المصادر كلها كانت لدى الإمام النانوتوي.(٣٥)

وأضاف الشيخ السنبهلي:

"ولكن لم نعلم علما محتوما عليه من خلال أي مصدر أنه على كم جزءا علق عليها الإمام النانوتوي."(٣٦)

المبحث الرابع: منهج الإمام النانوتوي في التعليق على البخاري

من كبرى المسؤوليات على المعلق والشارح لكتاب أن يبذل كل ما لديه من المحاولة في كشف مغلقات الكتاب وجعله سهلا ويسيرا للناظرين فيه؛ حيث تتبادر أذهانهم من عبارة الكتاب إلى مراد المؤلف دونما عائق، تجد كثيرا من صفات التعليق والشرح الناجح هذه في تعليقات الإمام النانوتوي وهي كمايلي:

(١) معالجة الحلول لمغلقات البخاري، وشرح موجز للنصوص التي تحتاج إليه، وتفصيل الإجمال، وتحديد الأخطاء، وتحقيق الرجال، وتحديد مستويات الرواة والروايات، والتوفيق بين الروايتين المتعارضتين ثم الترجيح بينهما، ودراسة الأصول لعلم الحديث، وعرض مذاهب الأئمة الأربعة المتبوعين وأدلتهم. هذه وكثيرة من أمثالها الخصائص والميزات نستشعر بها خلال قراءة تعليقات الإمام النانوتوي.

(٢) ومن أهم الميزات التي تتسم بها تعليقات النانوتوي أنه لم يكتب الإمام شيئا إلا واحال على مصدر، ما يعد واحدا من الأصول الأساسية للبحث والتحقيق، وكان الإمام النانوتوي خلال التعليق على البخاري كثير الاستفادة من كتب الفقه وأصوله وكتب الحديث وعلومه؛ إلى جانب الشروح المعروفة للجامع البخاري، كما سلف آنفا أنه كانت هناك ٦٢ كتابا لديه خلال التعليق على الجامع.

(٣) كما حظيت الكلمات الغريبة والألفاظ المستعصية بجهوده الجبارة، فشرحها النانوتوي لغة وصرفا ونحوا، وجاء بالكلمات المترادفة المشهورة المأنوسة لدى الناظرين، ونثرت أمثلتها في كل صفحة؛ وعلى الرغم من ذلك نأتي

بالمثالين وهما كما يليا:
حديث: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَدِمَ رَهْطٌ مِنْ عُكْلٍ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانُوا فِي الصُّفَّةِ، فَاجْتَوَوْا المَدِينَةَ.....إلى آخره .
هامش: (رهط) هم عشيرة الرجل، وأهله من الرجال، مادون العشرة، وقيل: إلى الأربعين، ولا يكون فيهم امرأة، ولا واحد له من لفظه، ويجمع على: أرهط وأرهاط، وأراهط جمع الجمع، قوله: (فى الصفة) هى سقيفة في مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت مسكن الغرباء والفقراء المهاجرين، قوله: (أبغنا) بهمزة قطع ثم باء موحدة وغين معجمة، أي: اطلب لنا، وأبغاه الشيء: طلبه له وأعانه على طلبه، قوله: (رسلا) بكسر الراء وسكون السين المهملة: اللبن، ..... قوله: (الذود) بفتح الذال المعجمة من الإبل: ما بين الثلاثة إلى العشرة، قوله: (صريخ) أي مستغيث، وهو من الأضداد جاء بمعنى المغيث أيضا، قوله: (الطلب) بفتحتين جمع الطالب، قوله: (ترجل) بلفظ الماضي من الترجل بالراء والجيم، وهو الارتفاع.....(٣٧)
(٤) ولو تمس الحاجة إلى الشرح في الأماكن المختلفة من الحديث الواحد، يأتي الإمام بشرح الجميع في التعليق الواحد، ولا يرقم على كل كلمة من الحديث، وعلّه تبنى هذا المنهج ابتغاء الإيجاز.
(٥) المناهج التي تبناها سائر أصحاب الشروح لجامع البخاري، نجدها لدى الإمام النانوتوي، كما يقوم النانوتوي بالتوفيق بين الكتاب ومارادفه من الكتاب، وبين الكتاب والباب الذي يأتي تحته وبين الآيات والأحاديث، كما بيّن المناسبة بين كتاب الحدود وكتاب المحاربين فيما يلي:
هامش: قوله: (كتاب المحاربين) المناسبة في وضع هذه الترجمة ههنا موجودة؛ فإن كتاب الحدود الذي قبله مشتمل على أبواب مشتملة على شرب الخمر والسرقة والزناء، وهذه معاص داخلة في محاربة الله ورسوله، وأيضا قد ثبت في بعض النسخ في رواية النسفي بعد قوله: من أهل الكفر والردة ومن يجب عليه حد الزناء إلى المحاربين، فيكون داخلا فيها لإفضائه إلى القتل في بعض الصور، وفيه أبواب لا يتعلق إلا بما يتعلق بالمحاربين فحينئذ ذكره بلفظ الكتاب أولى، كذا في العيني.(٣٨)
(٦) واختار الأحناف في أصول الحديث بوجه عام ومسند الهند الشيخ الشاه ولي الله المحدث الدهلوي (٣٩) والإمام النانوتوي وسائر العلماء الذين ينتمون إلى دارالعلوم/ديوبند بوجه خاص، أنه لو كان الحديثان متعارضين فيما يبدوا، فيقدمون لرفع التعارض التطبيق من بين سائر أنواعه من التطبيق والترجيح والنسخ؛ لكي لا يفوت العمل بأحد منهما، وسار الإمام النانوتوي على هذا الأصل والمنهج في التعليق على البخاري بالإضافة إلى سائر مؤلفاته، نقدم مثالا منه:
نص: باب ما يجوز من اللو وقوله تعالى: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً.
هامش: الحديث الذي رمز إليه البخاري بقوله ما يجوز من اللو؛ فإن فيه إشارة إلى أنها في الأصل لا يجوز إلا ما استثنى، وهو مخرج عند النسائي وابن ماجة والطحاوي من طريق محمد بن عجلان عن الأعرج عن أبي هريرة يبلغ به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، ولا تعجز، فإن غلبك أمر فقل قدر الله وما شاء الله، وإياك واللو فإن اللو تفتح عمل الشيطان، قال الطبراني: طريق الجمع بين هذا النهي وبين الأحاديث الدالة على الجواز، أن النهي مخصوص بالجزم بالفعل الذي لم يقع، فالمعنى: لا تقل لشيء لم يقع: لو أني فعلت كذا لوقع كذا قاضيا بتحتم ذلك، غير مضمر في نفسك شرط مشية الله تعالى، وما ورد

من قول لو محمول على ما إذا كان قائله موقنا بالشرط المذكور وهو أنه لا يقع شيء إلا بمشية الله وإرادته.(٤٠)

(٧)وقد اشتهر القول: إن "فقه البخاري في تراجمه" أي إن الإمام البخاري قد طرح فقهه في المسائل الشرعية المستنبطة من النصوص من خلال عقد الأبواب، فالأبواب التي عقدها الإمام كما تترجم الأحاديث تحتها، كذلك تترجم فقه البخاري ومذهبه، ولا يخفى أن الإمام البخاري عدل في الكثير من المسائل الفقهية عن الجمهور، فأدى الإمام النانوتوي مسؤولية إبراز وتحديد تلك المواقع من جامع البخاري، على أنه أتى بما ذهب إليه الجمهور، كما في المثال الآتي:

نص: كتاب المحاربين من أهل الكفرة والردة، وقول الله عزوجل: إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ.

هامش: قوله: (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ الخ) ظاهر الكلام البخاري أنه يريد بالذين يحاربون الله ورسوله في الآية الكريمة الكفار لا قطاع الطريق، وقال الجمهور هي في حق القطاع، وبه قال أبو حنيفة ومالك والشافعي وأبوثور.(٤١)

(٨) واستعان الإمام النانوتوي في تعليقاته بالعديد من العلوم العربية من أمثال النحو، والصرف، واللغة، والاشتقاق، والمعاني، والبيان وما إلى ذلك:

حديث: عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ الخ.

هامش: قوله: (إلا ظله) إضافة الظل إلى الله تعالى إضافة تشريف؛ إذا الظل الحقيقي هو منزه عنه، لأنه من خواص الأجسام، أو ثمه محذوف أي: ظل عرشه، وقيل: المراد به: الكشف من المكاره في ذلك الموقف الذي دنت الشمس منهم واشتد عليهم الحر وأخذهم العرق، يقال: فلان في ظل فلان أي: كنفه وحمايته، قوله: (عادل) أي الواضع كل شيء موضعه..... (ففاضت عيناه) فإن قلت: العين لا تفيض؛ بل الدمع؟ قلت: اسند الفيض إليها مبالغة كقوله تعالى: ترى أعينهم تفيض الدمع، قوله: (في المسجد) أي: بالمسجد، ومعناه: شديد الملازمة للجماعة فيه، قوله: (في الله) أي: بسببه كما ورد في النفس المؤمنة مائة إبل، أي بسببها، أي لا يكون المحبة لغرض دنياوي.....(٤٢)

(٩)كان للإمام النانوتوي براعة فائقة في علم الكلام؛ بل كان إماما في علم الكلام الجديد، لو تم نقل كتب الإمام النانوتوي إلى اللغات العالمية الحية؛ لعرفت الدنيا العلمية علم كلام جديد، ولكن فترة الغفلة عن أداء مسؤولياتنا قد تجاوزت القرن.(٤٣) فقدم الإمام النانوتوي إشراقات علم الكلام في مكان بعد مكان في تعليقاته الأنيقة.(٤٤)

(١٠) لم تتناول تعليقات النانوتوي بمتون الأحاديث فحسب؛ بل لو جاء حديث بطرق عديدة يختلف بعضه بعضا في الإسناد أو المتن؛ فعالجه النانوتوي معالجة مستفيضة مثلا:

حديث: عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ.....الخ» قَالَ عَمْرٌو: فَذَكَرْتُهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَكَانَ حَدَّثَنَا عَنْ سُفْيَانَ، عَنِ الأَعْمَشِ، وَمَنْصُورٍ، وَوَاصِلٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ قَالَ: «دَعْهُ دَعْهُ».

هامش: قوله: (دعه دعه) مرتين، أي أترك هذا الإسناد الذي ليس فيه ذكر أبي ميسرة بين أبي وائل وبين عبد الله بن مسعود، قاله في الفتح، والحاصل: أن الثوري حدث بهذا الحديث عن ثلاثة أنفس حدثوه به عن أبي وائل، فأما الأعمش ومنصور، فأدخلا بين أبي وائل وبين ابن مسعود أبا ميسرة، وأما واصل فحذفه، فضبطه يحي القطان عن سفيان هكذا مفصلا، وأما عبد الرحمن فحدث به أولا بغير تفصيل، فيحمل رواية

واصل على رواية منصور والأعمش، فجمع الثلاثة وأدخل أبا ميسرة في السند، فلما ذكر له عمرو بن علي عن يحي فصله، كأنه تردد فيه، فاقتصر على التحديث به عن سفيان عن منصور والأعمش حسب، فترك طريق واصل، وهذا معنى قوله دعه دعه، أي أتركه، والضمير للطريق التي اختلفا فيها، وهي رواية واصل، وقد زاد الهيثم بن خلف في رواية كما أخرجه الإعيلي عنه عن عمرو بن على بعد قوله دعه دعه، فلم يذكر فيه واصلا بعد ذلك، فعرف أن معنى قوله دعه أي أترك السند الذي ليس فيه ذكر أبي ميسرة، وقال في الكواكب: حاصله أن أبا وائل وإن كان قد روى كثيرا عن عبد الله، فإن هذا الحديث لم يروه عنه، قال وليس المراد بذلك الطعن عليه؛ لكن ظهر له ترجيح الرواية بإثبات الواسطة لموافقة الأكثرين، والذي جنح إليه في فتح الباري أنه إنما تركه لأجل التردد فيه، إلى كلام يطول ذكره والله الموفق والمعين. قس.(٤٥)

(١١) ودافع الإمام النانوتوي عن الإمام البخاري أكثر من مرة، فجاء البخاري بحديث عن شعبي عن علي، وادعى الإمام الحازمي أنه لم يثبت سماع الشعبي عن علي عند أئمة الحديث؛ فحقق الإمام النانوتوي نقلا عن الدار قطني والعيني. أنه يثبت سماعه عن علي في حديث واحد، وهو نفس الحديث الذي خرجه البخاري.

حديث: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ بْنُ كُهَيْلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ الشَّعْبِيَّ، يُحَدِّثُ، عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ رَجَمَ المَرْأَةَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَقَالَ: «قَدْ رَجَمْتُهَا بِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

هامش: قوله: (الشعبي) قال الحازمي بالمهملة والزاي: لم يثبت للأئمة سماع الشعبي عن علي، وقيل للدارقطني: سمع الشعبي من علي؟ قال: سمع منه حرفا ما سمع منه غير هذا، كذا قال العيني، قلت: لعل البخاري لم يصح عنده سماع الشعبي عن علي الا هذا الحرف كما ذكره الدارقطني.(٤٦)

(١٢) ربما يقع الاختلاف والاضطراب في متن الحديثين بواحد من الرواة، ومن ثم يجابه الناظر عائقا في فهم الحديث، ولا يمكن إدراكه ومعالجته إلا لمن له ملكة بارزة في الحديث وعلومه، قام الإمام النانوتوي بحل هذه المشاكل من البخاري.

حديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ..... إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ .....الخ.

هامش: قوله: (إن ابني) هذا كلام الأعرابي لا خصمه، مر في كتاب الصلح هكذا، جاء الأعرابي، فقال: يا رسول الله! اقض بيننا بكتاب الله، فقام خصمه، فقال صدق، فقال الأعرابي: ان الخ، هكذا قال الكرماني، وقال بعضهم: بل الذي قال: اقض بيننا هو والد العسيف، قلت الاختلاف في هذا على ابن أبي ذئب، يظهر ذلك بالتأمل. (٤٧)

(١٣) قد يصير معنى الحديث جراء الإجمال والاختصار خلافا للأحاديث الأخرى والقواعد الشرعية، استكشف الإمام النانوتوي مثل هذه الأحاديث في البخاري، وشرحه شرحا لا يبقي بعده خلاف ولا اعتراض.

حديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَزَيْدِ بْنِ خَالِدٍ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعْرَابِ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ جَالِسٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! ..... إِنَّ ابْنِي كَانَ عَسِيفًا عَلَى هَذَا فَزَنَى بِامْرَأَتِهِ .....الخ.

هامش: قوله (فارجمها) فيه اختصار، أي فإن اعترفت بالزناء فارجمها، يشهد عليه سائر الروايات والقواعد الشرعية.(٤٨)

(١٤) ومن ميزات التعليقات أن الإمام النانوتوي يأتي بمذاهب الأئمة الأربعة المتبوعين ومن إليهم، وأمثلته كثيرة.

حديث: إِذَا زَنَتِ الأَمَةُ فَتَبَيَّنَ زِنَاهَا فَلْيَجْلِدْهَا.....الخ.

هامش: قوله (فليجلدها) فيه اقامة السيد الحد على عبده وأمته، وهي مسئلة خلافية، فقال الشافعى وأحمد وإسحاق: نعم في الحدود كلها، وهو قول جماعة من الصحابة، أقاموا الحدود على عبيدهم، منهم ابن عمر وابن مسعود وأنس بن مالك، وقال الثوري والأوزاعي يحد المولى في الزناء، وقال مالك والليث: يحده في الزناء والشرب والقذف، إذا شهد عنده الشهود وبإقرار العبد إلا القطع خاصة لا يقطعه إلا الإمام، وقال الكوفيون: لا يقيمها إلا الإمام خاصة، واحتجوا بما روي عن الحسن وعبد الله بن محيريز وعمرو بن عبد العزيز، أنهم قالوا: الجمعة والحدود والزكاة والنفي إلى السلطان خاصة.(٤٩)

(١٥) والجدير بالذكر عن تعليقات الإمام أنه يشرح اسم بعض الرواة من السند ويقدم ترجمته بالإيجاز.

سند: وقال إبراهيم بن المنذر حدثنا معن.....

هامش: قوله (إبراهيم بن المنذر) على وزن اسم الفاعل من الإنذار، ابن عبد الله بن المنذر أبو إسحاق الخرامي المديني، وهو أحد مشائخ البخاري، وروى عنه في غير موضع، وروى عن محمد بن أبي غالب عنه حديثا في الديات، ومعن بفتح الميم وسكون العين المهملة وبالنون ابن عيسى القزاز بالقاف وتشديد الزاي الأولى.(٥٠)

خاتمة البحث

توصلنا في نهاية المطاف لهذا البحث المتواضع إلى النتائج التالية:

(١) كان منهج أصحاب الحديث الهنود في تدريس الحديث الشريف، منهج أصحاب السنن: من عرض مذاهب الأئمة المتبوعين وسرد دلائلهم، وإذا طعنت جماعة في الهند في المذهب الحنفي: أنه لا ينسجم مع الحديث الشريف، وأن الأحناف يقدمون العقل على النقل، فابتكر الإمام النانوتوي منهجا جديدا، وحقق المذهب الحنفي بالأحاديث وقدم الموافقة التامة للمذهب الحنفي مع الحديث الشريف.

(٢) قوض الإمام النانوتوي عن التعليقات على البخاري خيامها بالاختتام قبل نهاية ١٢٦٩هـ/١٨٥٢ م، وهو ابن ١٢ سنة يومئذ.

(٣) لم يقم الإمام النانوتوي بالتعليق على أقل من خمسة أجزاء لصحيح البخاري كما ذهب إليه عدد لا بأس به من المؤرخين والكتّاب وأصحاب العلم والمعرفة في الحديث الشريف.

(٤) تتسم تعليقات الإمام النانوتوي بميزات الشرح والتعليق كافة باعتباره شرحا وتعليقا لصحيح البخاري، بالإضافة إلى المباحث العقدية اللطيفة مصحوبة بعلم الكلام الجديد، وتحقيق التوفيق بين المذاهب الحنفية والحديث الشريف.

المصادر والمراجع

(١) الأستاذ السيد محبوب الرضوي الديوبندي، كان مسؤولا عن غرفة المحفوظات (الأرشيف) من دارالعلوم ديوبند، وكان مصنفا وصاحب قلم، وكان التاريخ من موضوعاته الخاصة، فجاء من قلمه الرشيق: تاريخ مشاهير ديوبند وتاريخ دارالعلوم ديوبند، والمكتوبات النبوية التي تشكل أنموذجة رائدة للمحاولة التاريخية والتحقيقية، وانتقل إلى رحمة الله في ٢٥/مارس ١٩٧٩م)

(٢) هوالشيخ العالم الفقيه منصور علي بن المولوي حسن علي خان بن المولوي عبد الله خان بن المولوي أمان الله خان الحنفي المراد آبادي (...-١٣٣٧هـ/...- ١٩١٨م): أحد العلماء المشهورين في بلاد الهند، قرأ العلم على العلامة محمد قاسم الحنفي النانوتوي، ولازمه مدةً من الزمان، ثم أخذ الحديث عن الشيخ أحمد علي بن لطف الله السهارنبوري، وصحبه زماناً، ثم سافر إلى بلاد الدكن، و ولي التدريس في المدرسة الطبية بـ«حيدر آباد»، فدرس بها مدةً طويلةً، وأحيل إلى المعاش، فسافر إلى مكة المباركة وتوطن وتوفي بها. له: «مذهب منصور» في جزأين، و«الفتح المبين»، و«معيار الأدوية». نزهة الخواطر٢/٣٣٦١

(٣) مذهب منصور٢/١٧٨

(٤) أرواح ثلاثة قصة رقم /٣٤

(٥) الشيخ العالم الفقيه أحمد بن حسن الحسيني الأمروهوي (١٢٦٧-١٣٣٠هـ/١٨٥٠-١٩١١م) أحد العلماء المشهورين بسعة التقرير و التبحر في الكلام، ولد ونشأ ببلدة «أمروهه»، واشتغل بالعلم أياماً في بلدته، ثم سافر إلى «ديو بند»، ولازم الإمام قاسم بن أسد علي النانوتوي وأخذ عنه، وأخذ عن غيره من العلماء أيضاً، وفاق أقرانه في كثير من العلوم والفنون، ثم أسند الحديث عن الشيخ أحمد علي بن لطف الله

السهارنبوري وغيره، وسافر إلى الحجاز فحج و زار، ثم ولي التدريس في المدرسة العربية ببلدة «أمروهه». و كان حسن الصورة، حلو الكلام، مليح الشمائل، قوي العمل، كثير الدرس والإفادة «نزهة الخواطر»٢/٢٨٣٤

(٦) هو العالم الصالح فخر الحسن بن عبد الرحمن الحنفي الكنكوهي (...١٣١٥هـ... - ١٨٩٧م) أحد العلماء المشهورين ممن اشتغل بالعلم وتميز، وكتب، واشتهر بالفضل والكمال، من تلامذة الشيخ محمد قاسم النانوتوي وأصدقائه وملازميه في الظعن و الإقامة، أخذ الصناعة الطبية عن الحكيم محمود بن صادق الشريفي الدهلوي، واشتغل بمداواة الناس في آخر عمره بـ«كانبور»، وقرأ الحديث على الشيخ العلامة رشيد أحمد الكنكوهي. وكان حسن الشكل ضخماً ظريفاً بشوشاً، حلو اللفظ والمحاضرة، موصوفاً بالصدق والصفاء، صاحب شجاعةٍ، متصلباً في المذهب، ذا نجدة وجرأة، يصرف أوقاته كثيراً في المناظرة مع الهنود والنصارى، ويتلذذ بذكرها وفكرها. له تعليقات بسيطة على «سنن أبي داود» سماها بـ«التعليق المحمود»، وحاشية على «تلخيص المفتاح»، وحاشية مختصرة على «سنن ابن ماجه». توفي بـ«كانبور». نزهة الخواطر٢/٣٢٠٧

(٧) الرضوي، السيد محبوب الرضوي، تاريخ دارالعلوم ديوبند، الناشر: إداره اهتمام دارالعلوم ديوبند، ط ١، (١٩٩٢م) ج ١، ص ١١٢– ١١٤، التعريب: عارف جميل القاسمي المباركفوري.

(٨) هو الباحث الكبير والكاتب الشهير والمؤرخ المحقق مولانا نظام الدين أسير الأدروي، مدير مجلة "ترجمان الإسلام الشهرية" وأستاذ مادة الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية ريوري تالاب بنارس سابقاً، وله مؤلفات كثيرة هامة من بينها شيخ الهند حياته وآثاره، الخدمات العلمية للحديقة الديوبندية وأفكار عالم (مجموعة مقالاته) والروايات الإسرائيلية في كتب التفاسير المتداولة وما إلى ذلك، والله يطيل بقاءه وينفع الأمة بعلمه وكتاباته وأفكاره النيرة

(٩) الأدروي، أسير الأدروي، مولانا محمد قاسم نانوتوي ـ حياته وأعماله، الناشر: شيخ الهند اكيدمي دارالعلوم ديوبند، ص:٧٦

(١٠) هو العلامة مناظر أحسن الكيلاني (١٨٩٢ ـ ١٩٥٦م) ينتمي إلى قرية "كيلان" من أعمال مدينة بتنه بولاية بيهار، كان عالماً بصيرًا، وأديبًا أريبًا، ومؤرخًا كبيرًا، يجميع بين القديم والجديد، والأصالة والمعاصرة، تخرج في دار العلوم/ديوبند، على كبار علمائها أمثال الشيخ أنور شاه الكشميري والشيخ محمود الحسن الكنكوهي، كان من الكتاب المرموقين، كان يكتب بأسلوب رشيق وبديع لم ينسج على منواله، قد ملكه الحب النبوي وأخذ بمجامع قلبه، وسيطر على لسانه وقلمه، عمل أستاذًا في قسم الدراسات الإسلامية من الجامعة العثمانية أعوامًا، من مؤلفاته: "النبي الخاتم" و"تدوين الحديث" و"الاقتصاد الإسلامي" و"حياة الإمام أبي حنيفة السياسية" و"سيرة الصحابي الجليل أبي ذر الغفاري" وغيرها.

(١١) هو الشيخ المحدث أحمد علي بن لطف الله السهارنبوري (١٢٢٥ـ ١٢٩٧هـ /١٨١٠ ـ١٨٨٠م): ولد في "سهارن فور"، وتلقى العلم على الشيخ مملوك العلي والشيخ وجيه الدين، وأسند الحديث عن الشيخ محمد إسحاق الدهلوي في مكة المكرمة، حيث كان ينسخ الأحاديث ابتداءً من عقب صلاة الفجر حتى صلاة الظهر وهو في الحرم المكي، ثم يستمع لما نسخه من الأحاديث على الشيخ محمد إسحاق عقب صلاة الظهر حتى صلاة العصر، و هكذا دواليك، حتى أنهى الكتب الحديثية كلها ليعود إلى الهند وعاءً للعلم والمعرفة ، فتصدر لتدريس الحديث النبوي . وقام بطبع "سنن الترمذي" عام ١٢٦٥هـ /١٨٤٦م من مطبعته التي أنشأها ،و هو مستمر في دراسة الحديث وتدريسه كما اعتنى ـ عنايةً بالغةً ـ بنشر وطبع كل من" صحيح البخاري"عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣م ،و"مشكاة المصابيح "عام ١٢٧١هـ /١٨٥٤م مصححةً محشاةً . وأنفق عشر سنوات في تصحيح نصوص صحيح البخاري والتعليق عليه . وهذه هي أول المصادر الحديثية التي تشهد الهند نشرَها وطبعَها على أراضيها . قضى الشيخ حياته في تدريس الحديث ونشر و طبع مصادره . وهو من أبرز العلماء والمحدثين في عصره . أخذ عنه فطاحل العلماء في عصره أمثال الشيخ محمد قاسم النانوتوي ،والشيخ محمد علي المونغيري والعلامة شبلي النعماني وكان العلامة شبلي يقول: "إن معظم كبار علماء الأحناف في عصره قد استقوا من منهله العذب".

واسترزق المحدث السهارن فوري بالتجارة والمطبعة ، ومنَّ الله سبحانه عليه بحظٍ كبيرٍ من العلم بجانب المال، فكان طويل اليد، رحب الصدر على طلبة العلم . وكان يلقي درس الحديث والتفسير في أخرياته . وعُرِف بالتواضع وإنكار الذات والرخاء . ولعب دوراً بارزاً ملموساً في الرقي بمستوى جامعة مظاهر علوم بـ"سهارن فور"فقدم له النفس والنفيس، وكان لا يتقاضى منها راتباً ولايريد جزاء ولا شكوراً . توفي في ٦/من جمادى الأولى عام ١٢٩٧هـ /١٨٨٠م، بـ "سهارن فور"، ورُيَ جثمانه في مقبرة عائلته بجوار المصلى . و للاستزادة من أخباره راجع : مقال كاتب السطور المنشور في مجلة "برهان"شهر نوفمبر عام ١٩٧٤م، الصادرة في دهلي (محبوب رضوي .

(١٢)الكيلاني، مناظر أحسن الكيلاني، سوانح قاسمي، الناشر: مكتبة دارالعلوم ديوبند، ج:١، ص:٣٥١ – ٣٥٢

(١٣) سوانح قاسمي، ج:١، ص:٥١١

(١٤) إن "المطبع الأحمدي" أول دار النشر التي تولت طبع كتب الحديث نحو الصحيح للبخاري، والجامع الترمذي، ومشكاة المصابيح للتبريزي، أسسه الشيخ أحمد علي السهارنفوري عام ١٢٦٣= ١٨٤٥م، تنقل هذا المطبع بعد ثورة ١٨٥٧م إلى "ميرتهـ"

(١٥) سوانح قاسمي، ج:١، ص:٥٣١

(١٦) تذكرة الرشيد ٣٥/١

(١٧) العلامة شبلي بن حبيب الله البندولي (١٢٧٤-١٣٣٢هـ/ ١٨٥٧- ١٩١٣م) : فريد هذا الزمان

المتفق على جلالته في العلم و الشأن، من مواليد قرية «بندول» من أعمال «أعظم كره» شرقي البلاد. وقرأ على مولانا فاروق بن علي العباسي الجرياكوتي، و الشيخ إرشاد حسين العمري الرامبوري، ثم توجه إلى «لاهور»، وأخذ الفنون الأدبية عن الشيخ فيض الحسن السهارنبوري، وقرأ الحديث على الشيخ أحمد علي بن لطف الله السهانبوري، حتى فاق أقرانه في الإنشاء والشعر والأدب والتاريخ و كثير من العلوم و الفنون ، ولي التدريس بمدرسة العلوم في «علي كره»، فصحب الأساتذة الغربيين وأدار معهم كؤوس المذاكرة. له كتب في سيرة «المأمون» العباسي و«سيرة النعمان» في سيرة الإمام أبي حنيفة و «الجزية» و«حقوق الذميين» كلها تلقيت بالقبول، وحصلت له شهرة عظيمة في بلاد الهند ،وسافر إلى بلاد الروم والشام ومصر ولقي رجال العلم والدولة، وأعطاه السلطان عبد الحميد العثماني النيشان من الطبقة الرابعة، ولما رجع إلى الهند لقبته الدولة الإنكليزية «شمس العلماء». وكان عضواً من الأعضاء البارزين لندوة العلماء، بـ«لكناؤ»، واشتغل بنظارتها مدة ثمانية أعوام. للاستزادة من أخباره وأعماله العلمية راجع: نزهة الخواطر٢ /٢٩٩٥.

(١٨) حياة شبلي ص ٨٥ ط: الثانية، دار المصنفين، أعظم كره، الهند.

(١٩) «مطبعة مجتبائي» من المطابع المشهورة في الهند، أنشأها - أولاً - المنشئ ممتاز علي في «ميروت»، وإليها انتسب الإمام النانوتوي - محققاً للنصوص -

بعد ما قُضِيَ على مطبعة «أحمدي» في «دهلي» ثورة عام ١٨٥٧م/١٢٧٤هـ العارمة ثم سافر المنشئ المذكور عام ١٢٨٥هـ /١٨٦٨م إلى الحرمين حاجاً، فتملكها الشيخ عبد الهادي (المتوفى عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م. فقام الشيخ بإعادة طبع المصحف الذي طبعه المنشئ ممتاز علي، بالإضافة إلى ملفوظات «الشاه عبد العزيز» و«ميزان البلاغة» له وغيرهما من الكتب، ثم خلفه نجله الشيخ القاضي بشير الدين (المتوفى ١٩٤٩م/ ١٣٦٤هـ) في إدارة المطبعة، وأصدر كتباً نافعة، منها «تذكرة عزيزية»، وغيره. ثم أغلقت المطبعة في أعقاب تقسيم البلاد.

ثم عاد المنشئ ممتاز علي من الحج في عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م، فأنشأ- من جديد- «مطبعة مجتبائي»، بـ«دهلي» دون «ميروت»، و هاجر المنشئ ممتاز عام ١٣٠٤هـ /١٨٨٦م إلى مكة المكرمة، وباع مطبعته الشيخَ عبد الأحد بخمس مئة روبية هندية. وفي أعقاب وفاة الشيخ عبد الأحد عام ١٩٢٠هـ /١٣٣٩م تقاسم أبناؤه «مطبعة مجتبائي» فيما بينهم، ولفظت المطبعة نفسَها الأخيرَ حين غادر أعضاء هذه العائلة إلى باكستان، واستوطنتها. وكان مقر هذه المطبعة في حي"چوڑی والان" بالقرب من الجامع المعروف بـ«دهلي».

ورفع الشيخ عبد الأحد مستوى - مطبعة مجتبائي- كثيراً، فكانت تلاقي الكتب الصادرة عن هذه المطبعة ترحاباً وتقديراً كبيرين، وكان الناس يحرصون على اقتناع وتوفير إصدارات مطبعة «مجتبائي».

ولعبت مطبعة «مجتبائي» دوراً ملموساً في إصدار الآلاف المؤلفة من المصادر العربية والأردية والفارسية بما فيه معظم كتب المنهج الدراسي النظامي. وخلاصة القول إن هذه المطبعة قامت بخدمة جليلة للعلوم والفنون الدينية.

وقيضت - مطبعة «مجتبائي» علماء ماهرين ثقات لعمل التأليف والتعليق والتحشية من أبرزهم: الشيخ محمد أحسن النانوتوي، و الشيخ محمد منير النانوتوي، والشيخ نظام الدين الكيرانوي، والشيخ خليل الرحمان البرهان فوري، والشيخ محمد إسحاق والشيخ محمد بيغ.

وقال يوسف البخاري الدهلوي: «لئن كانت هناك مطبعة نالت شهرة خالدة - بعد مطبعة «نول كشور» بـ«لكناؤ»- فإنما هي مطبعة «مجتبائي» بـ«دهلي». قامت بطبع عشرات الإصدارات ومئات الآلاف من النسخ تخص مئات من العلوم الدينية والأدبية والتاريخية. ذلك العمل العظيم الذي أثرى مكتباتنا اليوم بالمصادر في مختلف العلوم والفنون. راجع: ترجمة الشيخ محمد أحسن النانوتوي ص ١٦١، وسوانح قاسمي، وكتاب«يه دهلي ہے»- أي هذه «دهلي» - لصاحبه يوسف البخاري الدهلوي ص ١٠٣.(سيد محبوب الرضوي.

(٢٠) سوانح قاسمي ٣٥١/١، ط: مطبعة نيشنل المطبعة الوطنية – ديوبند.

(٢١) الرضوي، السيد محبوب الرضوي، تاريخ دارالعلوم ديوبند، الناشر: إداره اهتمام دارالعلوم ديوبند،ط ١،(١٩٩٢م) ج ١،ص ١٠٩– ١١٢، التعريب: عارف جميل القاسمي المباركفوري.

(٢٢) هو الكاتب والباحث الإسلامي الكبير الشيخ نورالحسن بن افتخار الحسن بن رؤوف الحسن الكاندهلوي من مواليد ١٠/ربيع الأول ١٣٧٠هـ الموافق ٢٠/ديسمبر ١٩٥٠م في بلدة كاندهلة بمديرية مظفر نجر بغربي ولاية أترا براديش وتخرج من مظاهر علوم بمدينة سهارنفور في العلوم الشرعية عام ١٣٩٠هـ الموافق ١٩٧٠م، وقد صدرت بقلمه مؤلفات ودراسات كثيرة دلت على علو كعبه في البحث والتحقيق والكتابة والتأليف، ومن بين مؤلفاته أستاذ الكل مولانا مملوك علي النانوتوي رحمه الله، مولانا عبد الله الأنصاري أخباره وإنجازاته وتراثه العلمي، والشيخ إنعام الحسن الكاندهلوي أمير جماعة الدعوة والتبليغ سابقا، ترجمة مولانا محمد مظهر النانوتوى وما إلى ذلك.

(٢٣) محمد يعقوب النانوتوى ١٢٤٩ ــ ١٣٠٢ هـ/١٨٣٣ ـ١٨٨٤ م، هو عالم ديوبندي و فقيه حنفي، من أهل الهند، ولد ببلدة نانوتة بمديرية سهارنفوربولاية أتربرديش. أخذ عن والده الذي كان يدرس بمدينة دهلى في كلية دهلى العربية. كما وُلى منصب الرئاسة والتدريس بالجامعة الإسلامية دارالعلوم في الديوبند لمدة . اعتزل في بيته حين شبت الفتنة العامة ببلاد الهند سنة ١٨٥٦ م.

(٢٤) الكاندهلوي، نور الحسن راشد الكاندهلوي، قاسم العلوم حضرت مولانا قاسم نانوتوي،أحوال وآثار وباقيات ومتعلقات، الناشر: حضرت مفتي إلهي بخش اكيدمي كاندهله، ط٣،

١٤٣٦هـ/٢٠١٤م ص:٧٧

(٢٥) قاسم العلوم حضرت مولانا قاسم نانوتوي، أحوال وآثار وباقيات ومتعلقات، ص:٧٣

(٢٦) قاسم العلوم حضرت مولانا قاسم نانوتوي، أحوال وآثار وباقيات ومتعلقات، ص:٨٢، ٧٧

(٢٧) قاسم العلوم حضرت مولانا قاسم نانوتوي، أحوال وآثار وباقيات ومتعلقات، ص:٧٥ – ٧٧

(٢٨) الشيخ برهان الدين السنبهلي القاسمي وهو رئيس قسم التفسير وأستاذ الحديث الشريف والفقه والأصول والأمين العام لمجلس الدراسات الشرعية، جامعة دارالعلوم ندوة العلماء لكناؤ(الهند) والعضو التاسيسي لهيئة أحوال المسلمين الشخصية لعموم الهند وعضو لمجلس تنفيذها ورئيس مجلس القضاة للمحكمة الشرعية المركزية (بولاية أترابراديش) ونائب الرئيس للمجمع الفقه الإسلامي، الهند.

(٢٩) حجة الإسلام محمد قاسم نانوتوي رحمه ا لله ـ حيات، افكار، خدمات، الناشر: تنظيم أبنائ قديم دارالعلوم ديوبند، دهلي الجديدة، ط١، ٢٠٠٥م ص:٣٠٩

(٣٠) سوانح قاسمي، ج:١، ص:٣٥٢ – ٣٥٣

(٣١) مولانا محمد قاسم نانوتوي رحمه ا لله ـ حياته وأعماله، ص:٧٦

(٣٢) الشيخ خالد سيف الله الرحماني وهو رئيس المعهد العالي الإسلامي للتخصص في الفقه والإفتاء ـ حيدرآباد وسكريتري هيئة أحوال المسلمين الشخصية لعموم الهند والأمين العام للمجمع الفقه الإسلامي الهند وعضو المجمع الفقه الإسلامي بالمملكة العربية السعودية وصاحب المؤلفات الكثيرة من بينها قاموس الفقه والنوازل المعاصرة وترجمة القرآن الكريم الأردية وما إلى ذلك.

(٣٣) حجة الإسلام محمد قاسم نانوتوي رحمه ا لله ـ حيات، افكار، خدمات، ص:٢٩٥

(٣٤) حجة الإسلام محمد قاسم نانوتوي رحمه ا لله ـ حيات، افكار، خدمات، ص:٣٠١

(٣٥) حجة الإسلام محمد قاسم نانوتوي رحمه ا لله ـ حيات، افكار، خدمات، ص:٣٠٧

(٣٦) حجة الإسلام محمد قاسم نانوتوي رحمه ا لله ـ حيات، افكار، خدمات، ص:٣٠٩

(٣٧) البخاري:١٠٠٥/٢، كتاب الحاربين، باب لم يسق المرتدون المحاربون حتى ماتوا، رقم الحديث: ٦٨٠٤، رقم الهامش:٥، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور

(٣٨) البخاري:١٠٧٥/٢، كتاب المحاربين، رقم الهامش:١، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور

(٣٩) هو الإمام المحدث الفقيه العالم المجتهد أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشاه ولي الله المحدث الدهلوي (١١١٤–١١٧٦هـ = ١٦٩٩–١٧٦٢م) طلب العلم في بلده ثم رحل إلى الحجاز عام ١١٤٣هـ، ورجع إلى الهند عام ١١٤٥، أحياه الله به وبأولاده وأولاد بنته وتلاميذهم الحديث والسنة بالهند، فهو رئيس المحدثين ونعم الناصر لسنن سيد المرسلين، قال الكتاني: "وهو ممن ظهر لي أنه يُعد من حفاظ القرن الثاني عشر؛ لأنه ممن رحل ورُحل إليه، وروى وصنف ورجح وغرس غرسًا بالهند أطعم وأثمر وأكل منه خلق"، من أشهر مؤلفاته: "حجة الله البالغة"، و"الفوز الكبير في أصول التفسير"، و"إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء" وغيرها.

(٤٠) البخاري:١٠٧٥/٢، كتاب التمني، بال ما يجوز من اللو وقوله تعالى: لو أن لي بكم قوة، رقم الهامش:٢

واقرأ: حديث: عن جابر، أن رجلا من أسلم جاء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاعترف بالزنى ..... فأدرك فرجم حتى مات، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيرا وصلى عليه.

هامش: قوله: (وصلى عليه) هكذا وقع ههنا عن محمود بن غيلان عن عبد الرزاق، وقال المنذري: رواه ثمانية أنفس عن عبد الرزاق فلم يذكروا قوله: (وصلى عليه) ورواه محمد بن يحي الذهلي وجماعة عن عبد الرزاق فقالوا في آخره: ولم يصل عليه؟

والجمع بين الروايتين: بأن رواية المثبت مقدمة على رواية النافي، أو يحمل رواية من قال لم يصل عليه حين رجم لم يصل عليه، ثم صلى عليه بعد ذلك، ويؤيده ما رواه عبد الرزاق من حديث أبي أمامة بن سهل بن في قصة ماعز..... فهذا الحديث لجمع الاختلاف (البخاري: ١٠٠٥/٢، كتاب المحاربين، باب فضل من ترك الفواحش، رقم الحديث:٦٨٠٦، رقم الهامش:٩، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور.

(٤١) البخاري:١٠٠٥/٢، كتاب المحاربين، رقم الهامش:٢، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور

(٤٢) البخاري:١٠٠٥/٢، كتاب المحاربين، باب فضل من ترك الفواحش، رقم الحديث:٦٨٠٦، رقم الهامش:٩، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور

(٤٣) قاسم العلوم حضرت مولانا قاسم نانوتوي، أحوال وآثار وباقيات ومتعلقات، ص:٧٧٠

(٤٤) البخاري:١٠٠٥/٢، كتاب المحاربين، باب فضل من ترك الفواحش، رقم الحديث:٦٨٠٦، رقم الهامش:٩، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور

(٤٥) البخاري:١٠٠٦/٢، كتاب المحاربين، باب اثم الزناة، رقم الحديث:٦٨١١، رقم الهامش:٥، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور.

(٤٦) البخاري:١٠٠٦/٢، كتاب المحاربين، باب رجم المحصن، رقم الحديث:٦٨١٢ ، رقم الهامش:٧، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور.

(٤٧) البخاري:١٠١١/٢ ـ ١٠١٠، كتاب المحاربين، باب من أمر غير الإمام بإقامة الحد غائبا عنه، رقم الحديث: ٦٨٣٥، رقم الهامش:١، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور.

(٤٨) البخاري:١٠١١/٢، كتاب المحاربين، باب من أمر غير الإمام بإقامة الحد غائبا عنه، رقم الحديث: ٦٨٣٩، رقم الهامش:٢، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور

(٤٩) البخاري:١٠١١/٢، كتاب المحاربين، باب لا يثرب على الأمة إذا زنت ولا تنفى، رقم الحديث:٦٨٣٩، رقم الهامش:٧، أشرفي بك ڈپو، ديوبند، سهارنفور، راجع للاستزادة: ج:٢، ص:١٠١١، ح:٤، ٧، ٩.

(٥٠) البخاري:١٠٧٥/٢، كتاب التمني، باب ما يجوز من اللو وقوله تعالى: لو أن لي بكم قوة، رقم الحديث:٧٢٣٩، رقم الهامش:٤.

منهج الحافظ القسطلاني من الاستشفاع بالصالحين والتبرك بهم وشد الرحال إلى القبور من خلال كتابه "إرشاد الساري شرح صحيح البخاري"

(الحلقة الأخيرة)

إعداد: د. مها بنت عبد الرحمن أحمد نتو *

المبحث الثاني: موقفه من الاستشفاع بالصالحين، والتبرك بهم، وشد الرحال إلى القبور، وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول: موقفه الاستشفاع بالصالحين:

دل الكتاب والسنة على أنَّ الاستشفاع بالصالحين في حياتهم ـ بمعنى استجلاب دعواتهم الصالحة ـ جائز، سواء كان ذلك في الحياة الدنيوية أو الأخروية(١).

أما الاستشفاع بهم بعد موتهم أو في حال غيابهم وعدم سماعهم فغير جائز؛ لأن في ذلك من الغلو المؤدي إلى الشرك بالله، ولأنه خلاف ما كان عليه السلف الصالح. وقد احتاط الشرع أعظم الحيطة فنفى عنه كل شائبة شرك، وحرّم كل وسيلة مفضية إلى الإخلال بقواعده؛ حتى يبقى مصون الحمى، بعيداً عن عوامل الزيغ والانحراف(٢). "وعلى هذا النهج الواضح من المحافظة على التوحيد سار السلف الصالح وأئمة الهدى من بعدهم، ولم يسمحوا لأحد أن يخرق سياج التوحيد أو يستبيح بيضته "(٣).

ولم يجيزوا لأحد أن يستشفع بميت أو يخاطب غائباً من الصالحين، ولم يكن أحد منهم يطلب من النبيﷺ بعد موته أن يشفع له، ولا سأله شيئاً، ولا ذكر ذلك لأحد من أئمة المسلمين في كتبهم(٤). وإذا علم كل ما سبق فقد وقع في كلام الحافظ القسطلاني ما يخالف هذا المنهج؛ وذلك أنه في شرح (بابُ: سُؤالِ النَّاسِ لإمامَ الاسْتِسْقَاءَ إذَاقَحَطُوا(٥)؛ حيث ذكر البخاري فيه حديث استسقاء عمر بالعباس ـ رضي الله عنهما ـ (٦)، نقل الحافظ القسطلاني عن ابن رشيد(٧) فقال: "يحتمل أن يكون أراد بالترجمة الاستدلال بطريق الأولى؛ لأنهم إذا كانوا يسألون الله به فيسقيهم، فأحرى أن يقدموه للسؤال". ثم نقل تحسين الحافظ ابن حجر له فقال: "قال في "الفتح"(٨): وهو حسن "(٩).

وهذا الكلام فيه أنهم كانوا يسألون الله بذات العباس، وأن ذلك جائز، ولذلك جاز أن يتوسلوا بدعائه من باب أولى. وليس في حديث الاستسقاء بالعباس ما يدل على أنهم توسلوا بذاته أو بجاهه، بل جاء في بعض روايات الحديث ما بين أنهم توسلوا بدعاءه، وأشار القسطلاني نفسه إلى ذلك؛ فقال:" عن أنس بن مالك(١٠) أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا قحطوا... استسقى بالعباس بن عبد المطلب ـ لرحم التي بينه وبين النبيﷺ أراد عمر أن يصليها بمراعاة حقه من أمر بصلة الأرحام؛ ليكون ذلك وسيلة إلى رحمة الله ـ عالى ـ (فقال:

* المملكة العربية السعودية وزارة التعليم جامعة أم القرى كلية الدعوة وأصول الدين قسم العقيدة.

اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا(ﷺ) في حال حياته (فتسقينا وإنا) بعده (نتوسل إليك بعم نبينا) العباس (فاسقنا قال: فيسقون).

ثم ذكر في شرح الباب نفسه ما يدل على أنه يجيز الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وبيت النبوة بعد موتهم؛ فقال: "وقد حكى عن كعب الأحبار(١١) أن بني إسرائيل كانوا إذا قحطوا استسقوا بأهل بيت نبيهم "(١٢).

وقد ذكر الزُّبَيْرُبنُبكَّارِ(١٣) في "الأنساب" أن عمر استسقى بالعباس عام الرمادة ـ أي بفتح الراء وتخفيف الميم ـ وسمي به العام؛ لما حصل من شدة الجدب فاغبرت الأرض جداً "...وكان من دعاء العباس ذلك اليوم فيما ذكره في "الأنساب "(١٤):" اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة،وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخضبت الأرض وعاش الناس "وفي هذا الحديث التحديث والعنعنة والقول" (١٥).

و فهمه لتوسل عمر ـ رضي الله عنه ـ إنما كان بجاه العباس ـ رضي الله عنه ـ، ومكانته عند الله سبحانه، وأن توسله كأنه مجرد ذكر منه للعباس في دعائه، وطلب منه لله أن يسقيهم من أجله، وقد أقره الصحابة على ذلك.

وأما سبب عدول عمر ـ رضي الله عنه- عن التوسل بالرسول ﷺوتوسله بدلاً منه بالعباس ـ رضي الله عنه ـ، فإنما كان لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل ليس غير.

ففهمه غير صحيح، وتفسيره هذا مردود من وجوه كثيرة أهمها:

١- أن من القواعد المهمة في الشريعة الإسلامية أن النصوص الشرعية يفسر بعضها بعضاً، ولا يفهم شيء منها في موضوع ما بمعزل عن بقية النصوص الواردة فيه. وبناء على ذلك فحديث توسل عمر السابق إنما يفهم على ضوء ما ثبت من الروايات والأحاديث الواردة في التوسل بعد جمعها وتحقيقها.

ولا بد من الأخذ بواحد من هذين التقديرين؛ ليفهم الكلام بوضوح وجلاء .ولنعرف أي التقديرين صواب لا بد من اللجوء إلى السنة؛ ليتبين لنا طريقة توسل الصحابة الكرام بالنبي ﷺ. ترى هل كانوا إذا أجدبوا وقحَطوا قبع كل منهم في داره، أو مكان آخر، أو اجتمعوا دون أن يكون معهم رسول الله ﷺ، ثم دعوا ربهم قائلين: (اللهم بنبيك محمد، وحرمته عندك، ومكانته لديك اسقنا الغيث). مثلاً أم كانوا يأتون النبي ﷺذاته فعلاً، ويطلبون منه أن يدعو الله ـ تعالى ـ لهم، فيحقق ﷺطلْبتهم، ويدعو ربه سبحانه، ويتضرع إليه حتى يسقوا؟

أما الأمر الأول فلا وجود له إطلاقاً في السنة النبوية الشريفة، وفي عمل الصحابة ـ رضوان الله تعالى ـ عليهم، ولا يستطيع أحد من الخلفيين أو الطُّرُقيين أن يأتي بدليل يثبت أن طريقة توسلهم كانت بأن يذكروا في أدعيتهم اسم النبي ﷺ، ويطلبوا من الله بحقه وقدره عنده ما يريدون. بل الذي نجده بكثرة، وتطفح به كتب السنة هو الأمر الثاني؛ إذ تبين أن طريقة توسل الأصحاب الكرام بالنبي ﷺإنما كانت إذا رغبوا في قضاء حاجة، أو كشف نازلة أن يذهبوا إليه ﷺ، ويطلبوا منه مباشرة أن يدعو لهم ربه، أي أنهـــــم كانوا يتوسلون إلى الله ـ تعالى ـ بدعاء الرسول الكريم ﷺ ليس غير.

ويرشد إلى ذلك قوله تبارك وتعالى﴿:وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ (١٦).

والتوسل إلى الله ـ عز وجل ـ بالرجل الصالح ليس معناه التوسل بذاته وبجاهه وبحقه، بل هو التوسل بدعائه وتضرعه واستغاثته به ـ سبحانه وتعالى ـ، وهذا هو بالتالي معنى قول عمر ـ رضي الله عنه: ـ .(اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا)،أي: كنا إذا قل المطر مثلاً نذهب إلى النبي ﷺ، ونطلب منه أن يدعو لنا الله جل شأنه.

٢- ويؤكد هذا ويوضحه تمام قول عمر ـ رضي الله عنه ـ (:وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا)، أي إننا بعد وفاة نبينا جئنا بالعباس عم النبي ﷺ، وطلبنا منه أن يدعو لنا ربنا ـ سبحانه ـ ليغيثنا.

تُرى لماذا عدل عمر ـ رضي الله عنه ـ عن التوسل بالنبي ﷺإلى التوسل بالعباس ـ رضي الله عنه ـ ،مع العلم أن العباس مهما كان شأنه ومقامه فإنه لا يذكر أمام شأن النبي ﷺومقامه؟

وهولأن التوسل بالنبيﷺ غير ممكن بعد وفاته، فأنى لهم أن يذهبوا إليه ﷺويشرحوا له حالهم، ويطلبوا منه أن يدعو لهم، ويؤمنوا على دعائه، وهو قد انتقل إلى الرفيق الأعلى، وأضحى في حال يختلف عن حال الدنيا وظروفها مما لا يعلمـــه إلا الله ـ سبحانه وتعالى ـ، فأنى لهم أن يحظوا بدعائه ﷺوشفاعته فيهم، وبينهم وبينه كما قال الله عز شأنه:

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٧)،ولذلك لجأ عمر ـ رضي الله عنه ـ وهو العربي الأصيل الذي صحب النبي ﷺولازمه في أكثر أحواله، وعرفه حق المعرفة، وفهم دينه حق الفهم، ووافقه القرآن في مواضع عدة ـ لجأ إلى توسل ممكن فاختار العباس ـ رضي الله عنه ـ؛ لقرابته من النبي ﷺمن ناحية، ولصلاحه ودينه وتقواه من ناحية أخرى، وطلب منه أن يدعو لهم بالغيث والسقيا. وما كان لعمر ولا لغير عمر أن يدع التوسل بالنبي ﷺ، ويلجأ إلى التوسل بالعباس أو غيره لو كان التوسل بالنبي ﷺممكناً، وما كان من المعقول أن يقر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ عمر على ذلك أبداً، لأن الانصراف عن التوسل بالنبي ﷺإلى التوسل بغيره ما هو إلا كالانصراف عن الاقتداء بالنبي ﷺفي الصلاة إلى الاقتداء بغيره، سواء بسواء، ذلك أن الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ كانوا يعرفون قدر نبيهم ﷺومكانته وفضله معرفة لا يدانيهم فيها أحد، وكما لم يقبل أبو بكر أن يؤم المسلمين من بعده غير عمر فمن البديهي أن لا يقبل العباس أيضاً أن يتوسل الناس به، ويدعوا التوسل بالنبي ﷺ لو كان ذلك ممكناً. وبهذا يعلم بطلان الاستدلال بهذا الحديث على جواز التوسل بالذات أو الجاه.

وجاء في "مجلة البحوث الإسلامية" التابعة للرئاسة العامة للدعوة والإفتاء بالمملكة العربية السعودية الرد على شبهة جواز الاستشفاع بالصالحين بعد موتهم(١٨) ما نصه:

"**الشبهة الأولى**: حديث استسقاء عمر بالعباس الذي مر ذكره في أدلة أهل السنة على مشروعية التوسلبدعاء الصالح الحي، وهو ما روي عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ:" كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسلإليك بعم نبينا فاسقنا، قال : فيسقون".

وجه استدلالهم : قالوا : ورد في الحديث " "اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينافاسقنا".

قالوا: المراد بعم نبينـــا، أي: بجاهه، فهم فهموا أن توسله بالعباس كأنه مجرد ذكر منه للعباس في دعائه، وطلب منه لله أن يسقيهم من أجله وقد أقره الصحابة على ذلك، فأفاد بزعمهم ما يدعون.

وعللوا: عدول عمر ـ رضي الله عنه ـ عن التوسل بالرسول ﷺ إلى التوسل بالعباس؛ لبيان جواز التوسل بالمفضول مع وجود الفاضل.

الجواب: يقال لهم: استدلالكم خاطئ فإن عمر ـ رضي الله عنه ـ والصحابة إنما توسلوا بدعاء العباس، ويدل على ذلك أمور منها:

١- أن عمر ـ رضي الله عنه ـ صرح بأنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ في حياته، وفي هذه الحادثة بالعباس.

٢- ومما لا شك فيه أن التوسلين من نوع واحد وإذا تبين للقارئ أن توسلهم به ﷺ إنما كان بدعائه، فتكون النتيجة أن توسلهم بالعباس إنما هو توسل

بدعائه، ومما يؤكد.

٣- أن توسلهم به ﷺ في حياته إنما كان بدعائه صريح رواية الإسماعيلي في مستخرجه على الصحيح لهذا الحديث: ﴿كانوا إذا قحطوا على عهد النبي ﷺ استسقوا به فيستسقي لهم فيسقون، فلما كان في إمارة عمر﴾ فذكر الحديث، فقوله: (فيستقي لهم) صريح في أنه ﷺ كان يطلب لهم السقيا من الله ـ تعالى ـ، وهذا هو التوسل بدعائه، كذلك حديث الأعرابي الذي دخل المسجد والرسول ﷺ يخطب وشكا له الجدب ونحوهما، كل ذلك يدل على أن توسلهم به ﷺ في حياته إنما كان بدعائه.

٤- ما ورد في بعض روايات هذا الحديث الصحيحة أن العباس لما استقى به عمر دعا. يقول ابن حجر في "الفتح": (وقد بين الزبير بن بكار في "الأنساب" صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له أن العباس لما استسقى به عمر قال:

"اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة، وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث".

هذه الرواية تدل على أنهم توسلوا بدعاء العباس لا بذاته؛ إذ لو كان التوسل بذاته أو جاهه لما كان هناك حاجة ليقوم العباس فيدعو بعد عمر بهذا الدعاء.

٥- لو كان توسلهم بالعباس ـ بذاته أو جاهه ـ لما عدلوا عن النبي ﷺ إلى العباس إذ ذاته ﷺ أفضل، وجاهه أعظم من جاه العباس، لكن لما كان بدعائه والرسول ﷺ لا يمكن أن يدعو لهم لوفاته عدلوا إلى حي فاضل، فاختاروا العباس لفضله ـ رضي الله عنهم ـ

قال ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: "ودعاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الاستسقاء المشهور بين المهاجرين والأنصار وقوله: "اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا "يدل على أن التوسل المشروع عنهم هو التوسل بدعائه وشفاعته لا السؤال بذاته إذ لو كان هذا مشروعا لم يعدل عمر والمهاجرون والأنصار عن السؤال بالرسول إلى السؤال بالعباس" (١٩).

كل ما ذكرنا يدل دلالة واضحة على أن توسل الصحابة بالعباس إنما كان بدعائه. ويؤيد هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" (٢٠)، حيث قال:

"فهذه الأنواع من خطاب الملائكة والأنبياء والصالحين بعد موتهم عند قبورهم وفي مغيبهم، وخطاب تماثيلهم، هو من أعظم أنواع الشرك الموجود في المشركين من غير أهل الكتاب، وفي مبتدعة أهل الكتاب والمسلمين الذين أحدثوا من الشرك والعبادات مالم يأذن به الله –تعالى–، قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾(٢١). فإن دعاء الملائكة والأنبياء بعد موتهم وفي مغيبهم، وسؤالهم، والاستغاثة بهم، والاستشفاع بهم في هذه الحال، ونصب تماثيلهم بمعنى طلب الشفاعة منهم، هو من الدين الذي لم يشرعه الله، ولا ابتعث به رسولاً، ولا أنزل به كتاباً، وليس هو واجباً، ولا مستحباً باتفاق المسلمين، ولا فعله أحد من الصحابة والتابعين، ولا أمر به إمام من أئمة المسلمين".

وجاء في تعليق سماحة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ على شرح الحافظ ابن حجر في "الفتح" ما يفيد عن عدول عمر عام الرمادة عن الاستسقاء بالعباس فقال ـ رحمه الله ـ:

"بل عدل عمر عنه لما وقع الجدب إلى الاستسقاء بالعباس، ولم ينكر ذلك عليه أحد من الصحابة، فعُلم أنَّ ذلك هو الحق "(٢٢).

المطلب الثاني: موقفه من التبرك بهم

إن التبرك أصل العبادة وأسها والعبادة مبناها على الاتباع والتوقيف عن صاحب الشريعة، ولما لم يقتصر أهل الغلو والابتداع على الاتباع في التبرك بالموتى وما يتصل بهم كان لابد من إلقاء الضوء على

هذه المسألة حتى يكون المسلم على بينة من أمره. ولنبدأ بتوضيح قواعد أساسية ذات علاقة بالموضوع لابد من الوقوف عليها:

الأولى: أن البركة كلها من الله وحده: فالرزق والنصر والعافية والأولاد والتوفيق للإيمان والتثبيت عند المسألة والشفاعة كلها من الله، فهو مالكها وواهبها. وإذا كانت من الله كان طلبها من غيره شركاً به(٢٣)، نابعاً من اعتقاد سيء بأن هناك جالباً للرزق والنصر والعافية أو دافعاً للشر غيره سبحانه.

الثانية: أن طلب البركة بسبب شيء من الأشياء أمر شرعي فالذي يدل على حصول البركة من عدمها بسبب الشيء إنما هو الدليل الشرعي؛ لأن الأمور الدينية مبناها على النقل بخلاف الأمور الأخرى التي يمكن أن تكتشف بالعقل والتجربة.

الثالثة: أن ما يتبرك به من الأعيان والأقوال والأفعال التي جاء الشرع عنها إنما هو سبب للبركة، وليس هو واهب البركة، كما أن ما يتداوى به من الأدوية والرقى الشرعية إنما هو سبب للشفاء وليس هو واهب الشفاء فالشافي هو الله ـ تعالى ـ.

الرابعة: أن طريقة التبرك بالمتبرك به الذي ثبتت له البركة شرعاً ليس سبيل معرفتها الاجتهاد وحسن الظن بل لا بد في ذلك من الاتباع، وإلا صار الإنسان متعرضاً للإنحراف في المعتقد والانخراط في سلك عبدة الأصنام والعياذ بالله.

الخامسة: أن التبرك لا يفيد غير المؤمن بالله الثابت على إيمانه لا سيما أمور الآخرة، فعن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ـ(٢٤) قال: "لما تُوُفِّيَ عَبْدُاللّهِ بنُ أُبَيِ بْن سَلُولَ جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُاللّهِ بنُ عَبْدِاللّهِ إِلَى رَسُولِ اللّهِ. فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ أَنْ يُكَفِّنَ فِيهِ أَبَاهُ. فَأَعْطَاهُ. ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ. فَقَامَ رَسُولُ اللّهِﷺ لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ. فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللّهِﷺ. فَقَالَ: يَارَسُولَ اللّهِ أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللّهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِﷺ: إِنَّمَاخَيَّرَنِي اللّهُ فَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾(٢٥)، وَسَأَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ. قَالَ: إِنَّهُ مُنَافِقٌ. فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللّهِ . وَأَنْزَلَ اللّهُ ﷻ: ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (٢٦). متفق عليه، وهذا لفظ مسلم (٢٧). فلم يفد عبد الله بن أُبي بركة قميص النبي ﷺ؛ إذ كان منافقاً.

والتبرك بذوات الأنبياء والصالحين وآثارهم الذي نحن بصدد دراسته لا يخلو من حالتين:

الأولى: التبرك بمجالستهم ودعائهم والاستفادة من علمهم ودلالتهم على الخير، فهذا مشروع وجائز، وهو الذي تدل عليه الأحاديث.

الثانية: التبرك بما سوى ذلك من ذواتهم وآثارهم كملابسهم وفضل ظهورهم وسؤرهم ومواطنهم، فهذا كله ليس بمشروع، وغير جائز.

ويفهم من هذا أن التبرك قد يكون مشروعاً ،وقد يكون ممنوعاً، وكل ذلك موقوف على بيان من الشارع، كما جاء في الكتاب والسنة وفهمه سلف الأمة، لكن كثيراً من متأخري الأمة لم يلتزموا بفهم السلف في هذا الأمر، فجرّهم ذلك إلى حظيرة البدع والخرافات، وأوقعهم في حمأة الجهل والشركيا ت.

وممن خالف منهج السلف في هذا الموضوع الحافظ القسطلاني في كتابه: (إرشاد الساري)؛ حيث أجاز التبرك بآثار الصالحين وفضلاتهم الطاهرة على الإطلاق، وذلك في مواضع عدة من كتابه بلغت فيما تتبعتعشرة مواضع، ومما ذكره في تلك المواضع ما يأتي:

- نقل في شرح حديث ـ عِتْبان بنَ مالكٍ(٢٨) في دعوته للنبي ﷺ ليصلي في بَيته فيتخذَهُ مُصلًّى (٢٩)ـ عن ابن حجر قوله: "كونه للتبرك؛ لأن اطلاعه بالوحي على الجزم بأن ذلك سيقع غير مستبعد" ولم يتعقبه (٣٠).
- وقوله ــ في شرح حديث أمِّ عطيَّةَ

الأنصاريةِ ــ رضيَ اللّهُ عنها ــ (٣١) قالت: " دَخَلَ علينا رسولُ اللّهﷺحين تُوُفِّيَت ابنتُه فقال: اغْسِلْنَها ثلاثاً أوخمساً أو أكثر مِن ذلك إن رأيتنّ ذلك بماءٍ وسِدْرٍ، واجعلنَ في الآخرةِ كافوراً أوشيئاً من كافور. فإذا فرَغتنّ فآذِنَّني. فلما فرَغنا آذَنَّاهُ، فأعطانا حِقوَهُ فقال: أشعِرْنَها إيَّاهُ، تعني: إزارَه) (٣٢) ــ في قوله : تعني: إزارَه: "إنما فعل ذلك؛ لينالها بركة ثوبه وأخره ولم يناولها إياه أولا؛ ليكون قريب العهد من جسده المكرم حتى لا يكون بين انتقاله من جسده إلى جسدها فاصل لا سيما مع قرب عهده بعرقه الكريم "(٣٣).

- وقوله في شرح حديث أنسُ بنُ مالكٍ ـ رضي اللّهُ عنهُ ـ قال: "غَدَوْت ُإلى رسولِ اللّهِ ﷺ بِعَبْدِاللّهِ بنِ أبي طلحة(٣٤) لِيُحَنِّكَهُ، فوافيتهُ في يدهِ المِيسَمُ يَسِمُ إبل الصَّدقةِ"(٣٥):

"ليحنكه" تبركاً به وبريقه ويده ودعائه، وهو أن يمضغ التمرة، ويجعل في فم الصبي ويحك بها في حنكه بسبابته حتى تتحلل في حنكه"(٣٦).

- وقوله ـ في شرح حديثقصة الحديبية (٣٧) الطويل، وفيه: "فَوَاللَّهِ مَا تَنَخَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، فَدَلَكَ بِهَا وَجْهَهُ وَجِلْدَهُ،....." ـ (٣٩) "وجهه وجلده: "تبركا بفضلاته"(٤٠).

- وقوله في شرح حديث(٤١) عائشة أم المؤمنين: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْفُثُ عَلَى نَفْسِهِ فِي المَرَضِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ، فَلَمَّا ثَقُلَ كُنْتُ أَنْفِثُ عَلَيْهِ بِهِنَّ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ نَفْسِهِ لِبَرَكَتِهَا»:

"بالمعوذات" وهذا هو الطب الروحاني وإذ كان على لسان الأبرار حصل به الشفاء قال القاضي عياض(٤٢) "فائدة النفث التبرك بتلك الرطوبة أو الهواء الذي يمسه الذكر كما يتبرك بفسالة ما يكتب من الذكر"(٤٣).

هذا بعض ما ذكره الحافظ القسطلاني في التبرك بالصالحين وآثارهم وفضلاتهم (٤٤)، ولعل القارئ لاحظ أنه أعتمد على الأحاديث التي تدل على أن الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ كانوا يتبركون بالنبي ﷺ، ففهم من ذلك جواز التبرك بغيره من الصالحين. ولا شك أن هذه الأحاديث وأحاديث أخرى تدل عليها دلالة ظاهرة على أن التبرك بالنبي ﷺوبآثاره مشروع، فإن النبي ﷺمبارك في ذاته وآثاره وأفعاله، وكان صحابته الكرام يعرفون ذلك وأقرهم النبي ﷺعليه.

ولكن هل يقاس على النبي ﷺغيره من الصالحين فيُتبرك به وبآثاره كما ذهب إليه الحافظ القسطلاني؟

الواقع أنه لا يوجد هناك أي دليل على جواز التبرك بغير النبي ﷺ، فلم يؤثر عن النبي ﷺ أنه أمر بالتبرك بغيره من الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ ﷺ أو غيرهم، سواء بذواتهم، أو بآثارهم، أو أرشد إلى شيء من ذلك. وكذا لم يُنقل حصول هذا النوع من التبرك من قبل الصحابة بغيره، لا في حياته ﷺ، ولا بعد مماته (٤٥).

ولهذا ذهب المحققون من علماء أهل السنة والجماعة إلى أن التبرك بذوات الصالحين وبآثارهم غير مشروع، بل هو من التبرك الممنوع .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي(٤٦) وهو يشرح قوله: (ومن تشبه بقوم فهو منهم)(٤٧).

"كذلك المبالغة في تعظيم الشيوخ وتنزيلهم منزلة الأنبياء هو المنهي عنهوقد كان عمر وغيره من الصحابة والتابعين ـ رضي اللّه عنهم ـ يكرهون أن يطلب منهم الدعاء، ويقولون: (أأنبياء نحن؟)، فدل على أن هذه المنزلة لا تنبغي إلا للأنبياء ـ عليهم السلام ـ، وكذلك التبرك بالآثار فإنما كان يفعله الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ مع النبي ﷺ، ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض ولا يفعله التابعون مع الصحابة مع علو قدرهم. فدل على أن هذا لا يفعل إلا مع النبي ﷺ، مثل التبرك بوضوئه وفضلاته وشعره، وشرب فضل شرابه وطعامه. وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظَّم وللمعظِّم؛ لما

يخشى عليه من الغلو المدخل في البدعة، وربما يترقى إلى نوع من الشرك. كل هذا إنما جاء من التشبه بأهل الكتاب والمشركين الذي نهيت عنه الأمة "(٤٨).

وبكل ما سبق يتبين أن ما رآه الحافظ القسطلاني من قياس الصالحين على الرسول ﷺ في جواز التبرك بذواتهم وآثارهم غير صحيح، وأن هذا النوع من التبرك ممنوع؛ لأنه يخالف إجماع السلف الصالح.

وقد علق الشيخ العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ على معظم المواضع التي ذكر فيها الحافظ ابن حجر ـ ونقل كثير من شرحه الحافظ القسطلاني في كتابه إرشاد الساري ـ جواز التبرك بذوات الصالحين وآثارهم وبين أن ذلك غلط، وأنه من وسائل الشرك، فيجب منعه سداً للذريعة، وحماية لجناب التوحيد(٤٩).

ولم يقتصر تجويز الحافظ القسطلاني التبرك بالصالحين على ذواتهم وآثارهم فحسب، بل تعدى ذلك إلى قبورهم، وهذا أخطر؛ لأن الفتنة بالقبور، ووقوع الشرك بها كثير في الناس، وذلك جاءت النصوص كثيرة صريحة في الشريعة الإسلامية تحذر من تعظيم القبور واتخاذها مساجد(٥٠)، ومن تلك النصوص حديث عائشة: أن أم حبيبة(٥١) وأم سلمة ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»(٥٢).

وهذا الحديث شرحه القسطلاني في (أرشاد الساري) ونقل في شرحه عن البيضاوي قال: "لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء؛ تعظيماً لشأنهم ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها. واتخذوها أوثاناً لعنهم ومنع المسلمين عن مثل ذلك. فأما من اتخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرك بالقرب منه لا التعظيم له ولا التوجه نحوه فلا يدخل في ذلك الوعيد "(٥٣).

وهذا الكلام نقله القسطلاني مقراً له، وتضمن تجويز اتخاذ المسجد بجوار قبر الرجل الصالح للتبرك، ولا شك أن هذا ذريعة إلى تعظيم القبور واتخاذها مساجد، الأمر الذي نهت عنه الشريعة، وقد علق سماحة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ على هذا الموضع فقال(٥٤): "هذا غلط واضح، والصواب تحريم ذلك، ودخوله تحت الأحاديث الناهية عن اتخاذ القبور مساجد، فانتبه واحذر، والله الموفق". وفي موضع آخر من (إرشاد الساري) ذكر الحافظ القسطلاني جواز تقبيل قبور الصالحين(٥٥).

وكل هذا من أنواع الغلو في الصالحين المفضي إلى الشرك، ويتعارض مع نصوص الشريعة، وما كان عليه السلف الصالح من صفاء العقيدة، وكمال التوحيد، والبراءة من وسائل الشرك، والله المستعان.

المطلب الثالث: موقفه من شدّ الرحال إلى القبور

اتفق العلماء على أن زيارة القبور دون شد الرحال إليها جائز(٥٦)، إذا كانت على الصفة الشرعية (٥٧)، واختلفوا في شدّالرحال إليها، وأصل هذاالخلاف هو مفهوم قول رَسُولُ اللّهِﷺ: "لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ: المَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى "(٥٨). حيث فهم البعض من هذا الحديث منع شد الرحل لقصد العبادة والقربة إلى غير هذه المساجد، ولم يفهم البعض الآخر ذلك منه.

وتعرض الحافظ القسطلاني لهذه القضة في "إرشاد الساري" فذكر الخلاف فيها، واختار ما أدى إليه اجتهاده، وتطرق إلى ما ذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في هذه القضية، وبين موقفه منه، وفيما يلي بيان منهج الحافظ في المسألة:

بيان معنى (لاَ تُشَدُّ الرِّحَالُ)

شرح الحافظ حديث شد الرحال الذي رواه البخاري في "صحيحه" كما تقدم ذكر لفظه، فقال:

"بضم المثناة الفوقية وفتح المعجمة والرحال

ـ بالمهملة ـ: جمع رحل للبعير كالسرج للفرس وهو أصغر من القتب وشده كناية عن السفر؛ لأنه لازم له، والتعبير بشدها خرج مخرج الغالب في ركوبها للمسافر فلا فرق بين ركوب الرواحل وغيرها، والمشي في هذا المعنى ويدل لذلك قوله في بعض طرقه: (**إِنَّمَايُسَافَرُ**...) أخرجه مسلم(٥٩)، والنفي هنا بمعنى المنهي أي لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه ".

وكلامه هنا جيد في بيان المراد بقوله: (لاَتُشَدُّالرِّحَالَ).

أ-موقفه من فتوى ابن تيمية بمنع شد الرحال لزيارة قبر المصطفى ﷺ

إن القول بمنع شد الرحال إلى القبور والمشاهد هو مذهب جمهور العلماء المعتبرين، والأئمة المشهورين، وقد حكى شيخ الإسلام ابن تيمية الخلاف في المسألة وذكر القولين فيها ، وبين أن القول بالجواز هو قول طائفة من المتأخرين ، فقال:

"وما علمته منقولاً عن أحد من المتقدمين "(٦٠).

وذكر شيخ الإسلام قبل ذلك أن السفر لزيارة القبور بدعة، ولم يكن في عصر السلف، وأنه مشتمل على معاني النهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولذلك اعتبر بعض العلماء مثل هذا السفر سفر معصية، لا يجوز قصر الصلاة فيه(٦١).

وقد امتحن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ بسبب نصره للقول الراجح بعدم شرعية شد الرحال لزيارة قبور الأنبياء والصالحين بما في ذلك قبر المصطفى ﷺ؛ لعدم وجود دليل ثابت يخصصه من عموم النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، وهو لم يتفرد بهذا القول، بل قال به أئمة أعلام قبله وبعده(٦٢)، ولكنه مني بخصوم وحساد من متعصبة الفرق المبتدعة وعلماء المذاهب الفقهية الذين قد أزعجتهم دعوة الشيخ إلى السنة، ونصرته لمنهج السلف في العقيدة والسلوك.

وأشار الحافظ القسطلاني إلى هذا الأمر في شرحه لحديث النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، وبين موقفه من رأي ابن تيمية في مسألة الزيارة ،فقال:

"وقد بطل من التقدير: لا تشد الرحال إلى مسجد للصلاة فيه المعتضد بحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَرْوِيِّ فِي مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مَرْفُوعًا: «لَا يَنْبَغِي لِلْمَطِيِّ أَنْ تُشَدَّ رِحَالُهُ إِلَى مَسْجِدٍ يُبْتَغَى فِيهِ الصَّلَاةُ، غَيْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى وَمَسْجِدِي هَذَا» (٦٣). هذا قول ابن تيمية حيث منع من زيارة قبر النبيﷺ وهو من أبشع المسائل المنقولة عنه، وقد أجاب المحققون من أصحابه أنه كره اللفظ أدبا، لا أصل الزيارة فإنها من أفضل الأعمال وأجل القرب الموصلة إلى ذي الجلال، وأنّ مشروعيتها محلّ إجماع بلا نزاع "فشد الرحال للزيارة ونحوها كطلب علم ليس إلى المكان بل إلى من فيه. وقد التبس ذلك على بعضهم كما قاله المحقق تقي الدين السبكي(٦٤) فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة إلى غير الثلاثة داخل في المنع(٦٥) وهو خطأ ؛ لأن الاستثناء ـ كما مر ـ إنما يكون من جنس المستثنى منه كما إذا قلت: لا رأيت إلا زيداً كان تقديره ما رأيت رجلاً واحداً إلا زيداً إلا ما رأيت شيئا أو حيواناً إلا زيداً "(٦٦).

اشتمل كلام الحافظ القسطلاني على بيان موقفه مما ذهب إليه ابن تيمية من القول بعدم مشروعية شد الرحال لزيارة قبر الرسول ﷺ حيث وصفه بأنه من أبشع المسائل المنقولة عن ابن تيمية، وهذا بطبيعة الحال مبني على ظن الحافظ بأن شد الرحال لزيارة قبور الصالحين من الأمور المشروعة في الدين، وإذا كان كذلك فكيف بقبر سيد البشر عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ؟

إلا أنه قد تبين بطلان هذا الظن؛ لكونه لم يستند على دليل مقبول في الدين، ومسألةكهذه من المسائل الدينية لا تبنى على الظنون والأوهام، ولا تقبل إلا بدليل صحيح.

وشيخ الإسلام ابن تيمية قد بنى قوله بعدم مشروعية شد الرحال لزيارة القبر

الشريف على أصلين هامين تجب مراعاتهما في جميع أمور الدين:

الأصل الأول: أن العبادات مبنية على الحظر إلا بإذن من الشارع، ودليل ذلك قوله تعالى:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ﴾(٦٧)، وقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٦٨).

والأصل الثاني: أن الأمور الدينية تؤخذ بفهم السلف الصالح ومنهجهم فيالعمل، فما لم يكن ديناً في الأول لا يكون اليوم ديناً، ووصف الرسول ﷺ الفرقة الناجية من أمته فقال: (من كان على مثل ما أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي) (٦٩).

وقال الإمام الأوزاعي ـ رحمه الله ـ: "اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم "(٧٠).

وهكذا فإن شيخ الإسلام قال بما قال في هذه المسألة؛ لأنه لم يرد دليل من الشارع على جواز شد الرحال إلى زيارة قبره ﷺ، ومن باب أولى قبر غيره من الصالحين؛ ولأن هذا لم يكن معروفاً في عهد السلف، ولم ينقل عنهم القول بجواز ذلك. وأما ما يروى من الأحاديث في زيارة قبره ﷺ فكلها أحاديث واهية ومكذوبة، كما بين ذلك أهل العلم الحديث(٧١)، ولذلك لم يعرفها السلف ولم يعملوابها.

وثمة ملاحظتان أخرتان على ما ذكره الحافظ القسطلاني:

الأولى: قوله: "وقد أجاب عنه المحققون من أصحابه بأنه كره اللفظ أدباً لا أصل الزيارة "، وهذاالقول خلاف الصواب، بل الصواب ما أجب به القاضي عياض ـ رحمه الله ـ وهو من أكبر محققي المالكية، ونقل القول المذكور سابقاً عن الإمام مالك ــ رحمه الله ــ، وذكر من أجاب عنه من المالكية بمثل ما ذكر الحافظ القسطلاني، ثم رد ذلك الجواب وقال: "والأولى عندي أن منع وكراهة مالك له؛ لإضافته إلى قبرالنبي ﷺ، لقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ. اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» (٧٢)، فحمى إضافة الفظ إلى القبر والتشبه بفعل أولئك قطعاً للذريعة، وحسماً للباب، والله أعلم "(٧٣).

وهذا الجواب هو الذي يتفق مع منهج السلف في باب التوحيد والتحذير من الشرك .

وأخيراً أنقل ما علق به سماحة الشيخ ابن باز ـ رحمه الله ـ على كلام الحافظ ابن حجر والذي نقله القسطلاني في "إرشاد الساري"، فقال ابن باز ـ رحمه الله ـ: "والأحاديث المروية في فضل زيارة قبر النبي ﷺ كلها ضعيفة، بل موضوعة، كما حقق ذلك أبو العباس في منسكه وغيره، ولو صحت لم يكن فيها حجة على جواز شد الرحال إلى زيارة قبره عليه الصلاة والسلام من دون قصد المسجد، بل تكون عامة مطلقة، وأحاديث النهي عن شد الرحال إلى غير المساجد الثلاثة، يخصها ويقيدها، والشيخ لم ينكر زيارة قبر النبي ﷺ، من دون شد الرحال، وإنما أنكر شد الرحل من أجلها مجرداً عن قصد المسجد، فتنبه وافهم، والله أعلم ".

وبذلك يتضح أن الحافظ القسطلاني كان مجانباً لصواب في هذه المسألة، خارجاً عن منهج التحقيق فيما ذكره ونسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية، غفر الله للجميع ورحمهم.

والثانية: تقدير المستثنى في الحديث وهو نقطة الخلاف في مسألة شد الرحال إلى القبور أو المشاهد، وذلك لأن الاستثناء الوارد في الحديث استثناء مفرغ لم يذكر فيه المستثنى منه ،ومن هنا اختلفت الأفهام في تقدير المستثنى منه؛ حيث قدرها البعض عاماً فيالبقاع التي تقصد للتقرب والعبادة، ويكون التقدير: لا تشد الرحال إلى بقعة لقصد القربة إلا إلى ثلاثة مساجد، فيكون المستثنى منه عاماً في المساجد وغيرها، كالمشاهد والقبور. وقدر البعض خاصاً بالمساجد ويكون

التقدير : لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد لقصد العبادة فيه إلا إلى ثلاثة مساجد، وعليه فلا يشمل المنع من شد الرحل إلى غير المساجد كالقبور والمشاهد.

واختار الحافظ القسطلاني هذا التقدير الثاني فقال: "فشد الرحال للزيارة ونحوها كطلب علم ليس إلى المكان بل إلى من فيه. وقد التبس ذلك على بعضهم كما قاله المحقق تقي الدين السبكي فزعم أن شد الرحال إلى الزيارة إلى غير الثلاثة داخل في المنع وهو خطأ؛ لأن الاستثناء ـ كما مر ـ إنما يكون من جنس المستثنى منه كما إذا قلت: لا رأيت إلا زيداً كان تقديره ما رأيت رجلاً واحداً إلا زيداً إلا ما رأيت شيئا أو حيواناً إلا زيداً ".

وهكذا يذهب الحافظ القسطلاني إلى جعلالنهي في الحديث خاصاً في السفر إلى المسجد، ويجيز ـ بناء على ذلك ـ السفر إلى قبور الصالحين.

وما ذهب إليه في هذه المسألة وإن كان وافق فيه بعض العلماء المتأخرين، فقد خالف فيه مذهب السلف وجمهور الأئمة من أصحاب المذاهب الأربعة(٧٤).

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتزكو الأعمال الباقيات. والصلاة والسلام على خير الأنام محمد، وعلى الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد: فهنا أبين أهم النتائج التي توصلت إليها وأجملها فيما يأتي:

١- لم يجز السلف الصالح لأحد أن يستشفع بميت أو يخاطب غائباً من الصالحين، ولم يكن أحد منهم يطلب من النبيﷺ بعد موته أن يشفع له، ولا سأله شيئاً، ولا ذكر ذلك لأحد من أئمة المسلمين في كتبهم.

٢- أجاز الحافظ القسطلاني الاستشفاع بأهل الخير والصلاح وبيت النبوة بعد موتهم.

٣- ذهب المحققون من علماء أهل السنة والجماعة إلى أن التبرك بذوات الصالحين وبآثارهم غير مشروع، بل هو من التبرك الممنوع.

٤- أجاز الحافظ القسطلاني التبرك بآثار الصالحين وفضلاتهم الطاهرة على الإطلاق.

٥- تجويزه اتخاذ المسجد بجوار قبر الرجل الصالح للتبرك، ولا شك أن هذا ذريعة إلى تعظيم القبور واتخاذها مساجد، الأمر الذي نهت عنه الشريعة.

٦- كان كلامه جيد في بيان المراد بقوله: ((لاَتُشَدُّالرِّحَالَ)).

٧- أن الحافظ القسطلاني كان مجانباً للصواب، خارجاً عن منهج التحقيق فيما ذكره ونسبه لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٨- ذهب الحافظ القسطلاني إلى جعل النهي في حديث شد الرحال خاصاً في السفر إلى المسجد، ويجيز ـ بناء على ذلك ـ السفر إلى قبور الصالحين.

هذه الأمور التي توصلت إليها من خلال بحثي هذا وإني إذ أكتب أعترف بتقصيري عن إعطاء هذا الموضوع حقه، لكني أرجو أن أكون قد وقفت لإظهار عقيدة أهل السنة والجماعة فيه، ولو ببعض الاختصار وما لا يدرك جله لا يترك كله.

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه، ومن اتبع هديه إلى يوم الدين.

الهوامش

(١) مما يدل على جواز الاستشفاع في الحياة الدنيوية حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ في استشفاع الأعرابي بالنبي ﷺ عندما أصاب الناس قحط على عهده ﷺ، فدعا الله ـ تعالى ـ فسقوا، والحديث رواه البخاري في "صحيحه" ـ مع الفتح ـ (٢/٥٠٩)، ب: إذا استشفعوا إلى الإمام ليستقي لهم .ويدل على جواز الاستشفاع في الآخرة حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ الذي رواه لبخاري في "صحيحه" (٤/ ١٤٧٨) ح (٤٦٠٠)، ولفظه: (إنَّ الناسَ يَصيرونَ يومَ القيامةِ جُثًا، كل أمةٍ تَتبَعُ نبيّها. يقولون : يا فلانُ اشفَعْ، حتى تنتهي الشفاعة إلى النبيِّ ﷺ، فذلكَ يومَ يَبعثُهُ اللَّهُ المقامَ المحمود).

(٢) ينظر/ دعوة التوحيد للهراس (ص٦٠).

(٣) المرجع السابق (ص٦٣).

(٤) ينظر/كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في هذا كتابه "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" بتحقيق فضيلة الشيخ ربيع المدخلي (ص٢٥).

(٥) أي أصابهم القحط .ينظر/الصحاح للجوهري(١/٩٠)، والمخصص(١٤/ ٢٥ ٥).

(٦) الحديث من رواية أنس ـ رضي الله عنه ـ ولفظه: "أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال لهم: كان إذا قحَطوا استسقى

بالعبّاسِ بنِ عبدِ المطّلبِ فقال: اللّهمَّ إنا كنّا== نتوسّلُ إليكَ بنبيِّنا فتَسقِينا، وَإنا نتوسَّلُ إليكَ بعَمِّ نبيِّنا فاسقِنا. قال: فيُسقونَ" رواه البخاري في "صحيحه" (٣٤٢/١) ح (٩٩٧)، ك: الاستسقاء.

(٧) هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن إدريس الفهري، أبو عبد الله، محب الدين، السبتي، المالكي، المعروف بابن رشيد، الحافظ العلامة، من كتبه: "ترجمان التراجم في إبداء مناسبات تراجم صحيح البخاري"، وغير ذلك توفي سنة ٧٢١هـ.ينظر / الدرر الكامنة (٢٢٩/٤ - ٢٣١) .

(٨) (٤٩٥/٢).

(٩) إرشاد الساري (٩٥/٧).

(١٠) هو: أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد الأنصاري الخزرجي الصحابي الجليل، خادم النبي ﷺ، وأحد المكثرين رواية للحديث، ولد بالمدينة النبوية، ومات بالبصرة سنة ٩٣هـ، وقيل غير ذلك.

الاستيعاب لابن عبد البر (١٠٩/١- ١١١) ، والإصابة لابن حجر (١٢٦/١- ١٢٩).

(١١) هو: كعب بن ماتع الحميريّ، أبو إسحاق، المعروف بكعب الأحبار، من أوعية العلم، وكبار علماء أهل الكتاب، أسلم في زمن أبي بكر الصديق، وقدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأخذ عن الصحابة وغيرهم، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة، ثم سكن الشام ، وتوفي في خلافة عثمان وقد زاد عن المائة.ينظر/تذكرة الحفاظ للذهبي (٥٢/١)، وتقريب التهذيب لابن حجر (١٣٥/٢).

(١٢) هذا من الإسرائليات، وذكره العيني في "عمدة القاري" (٢٩/٧)، والغزالي في "الإحياء" (٩٦/٣) بنحوه.

(١٣) هو: الزُّبَيْرُ بنُ بَكّارِ بنِ عَبْدِ اللّهِ بنِ مُصْعَب بنِ ثابتِ بنِ عَبْدِ اللّهِ بنِ الزُّبَيْرِ بنِ العَوّام القُرَشي الأسَدي الزُّبَيْري، أبُو عَبْدِ اللّهِ بنِ أبي بَكْرٍ المَدَني، قَاضي مَكّة. مَوْلِدُهُ في سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَمِائَةٍ.ثقة ثبْتا عالِما بالنّسَب عارِفا بأخْبار المُتَقدّمين وماثِر الماضين، وله الكتابُ المُصَنّف في نَسَب قُرَيْشٍ وأخْبارِها، وولي القضاءَ بمكة، ووَرَد بغداد وحَدّث بها. ينظر/ تهذيب الكمال للمزي (٢٦٩/٦)، والسير (٢٢٤/١٠).

(١٤) ذكره الحافظ ابن حجر في "الفتح" (٤٩٥/١)، وسكت عنه، وابن قتيبة في "عيون الأخبار" (٣٠٢/٢)، والشوكاني في "سبل السلام" (٢/ ٦٩٨). والسند ضعيف بل في غاية فيالضعف، فقد روى ابن عساكر في "تاريخ دمشق" (٢٨/ ١٨٨) هذه الرواية فقال: "أخبرنا أبو الحسن محمد بن محمد وأبو غالب أحمد وأبوعبد الله يحيى ابنا الحسن، قالوا: أنا محمد بن أحمد بن محمد بن عمر، أنا محمد بن عبد الرحمن بن العباس، نا أحمد بن سليمان hابن داود، نا الزبيرابن عبد الله، حدثني يحيى بن محمد، عن نعيم بن أيوب، عن الكلبي، عن أبي صالح أن الأرض أجدبت على عهد عمر بن الخطاب حتى التقتالرعاء وألقت العصا وعطلت النعم وكسر العظم، فقال كعب الأحبار: يا أمير المؤمنين إن بني إسرائيل كانوا إذا أصابهم أشباه هذا استَسْقُوا بعصبة الأنبياء، فقال عمر: هذا عم النبي ﷺ صِنْوُ أبيه، وسيّد بني هاشم، فشكا إليه عمر ما فيه الناس، فصعد عمر المنبروصعد معه العباس، فقال عمر: "اللهم إنا توجهنا إليك بعمّ نبيّك وصِنْوِ أبيه، فاسقنا الغيث ولا تجعلنا من القانطين"، ثم قال عمر: قل يا أباالفضل، فقال العباس: "اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب ونواصينا بالتوبة فاسقنا الغيث"، فأرخت السماءشآبيب مثل الجبال بديمة حتى أسقوا الحفر بالآكلام، وأخصبت الأرض، وعاش الناس، فقال عمر: هذا الوسيلة إلى الله والمكان منه ".

والزبير هو الزبير بن بكار ولعله نسبه هنا إلى جده، إذ الراوي عنه تلميذه أحمد بن سليمان الطوسي، وقد أهداه الزبير كتاب النسب له.

والسند كما يظهر لا يُفرح به؛ إذ وجود الكلبي فيه يكفي لطرحه، ومع ذلك ففيه مجاهيل أيضاً. ينظر/ التقريب (٥٦٥/٢).

أما كتاب الأنساب الذي أشار إليه الحافظ ابن حجر فغالب الظن أنه نسب قريش، وقد طبع جزءٌ منه، والحديث ليس في هذا الجزء، واللهأعلم.

(١٥) المصدر نفسه (٢٣٨/٢).

(١٦) النساء ، الآية : ٦٤.

(١٧) المؤمنون، الآية : ٥٤.

(١٨) (١٦٢/٧٤- ١٦٦).

(١٩) مجموع الفتاوى (٢٢٣/١).

(٢٠) (ص٢٥).

(٢١) الشورى، جزء من الآية: ٢١.

(٢٢) الفتح (٤٩٥/٢) .

(٢٣) جاء في حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: "كنّا نعدُّ الآيات بركةً، وأنتم تعُدُّونها تخويفاً، كنّا معَ رسولِ الله ﷺ في سفر فقلَّ الماء، فقال: اطلُبوا فضلةً من ماءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدخلَ يدَهُ في الإناءِ ثم قال: حيَّ على الطَّهورِ المبارَك، والبركة منَ الله، فلقد رأيتُ الماءَ يَنْبُعُ من بينِ أصابع رسولِ اللّهِ ﷺ، ولقد كنّا نسمعُ تَسبيحَ الطعامِ وهوَ يُؤكل". رواه البخاري في "صحيحه" (١٣١١/٣) ح (٣٥٠٣)، ك: المناقب، ب: علاماتِ النُّبُوَّةِ في الإسلام.

(٢٤) هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي، أبو عبد الرحمن، ولد بعد المبعث بيسير، وأسلم وهاجر مع أبيه، واستصغر يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة ، ثم أجيز بالخندق. وهو أحد المكثرين من الصحابة عن النبي ﷺ، وأحد العبادلة، وكان من أشد الناس اتباعاً للأثر، توفي سنة ٧٣هـ رضي الله عنه. ينظر/الإصابة (١٨١/٤- ١٨٨).

(٢٥) التوبة، جزء من الآية: ٨٠.

(٢٦) التوبة، الآية: ٨٤.

(٢٧) رواه البخاري في "صحيحه" (١٠٢/٤) ح (١٨٦٩، ك: الجنائز، ب: (٢٢)، ومسلم في "صحيحه" (١٤٠/١٥) ح (٦١٦٠)، ك: فضائل الصحابة، ب: من فضائل عمر.

(٢٨) هو: عِتْبَان بنُ مَالِك بن عَمْرو بن العَجْلان عوف بن الخزرج الأنصاري الخزرجي السالمي، صحابي مشهور، مات في خلافة معاوية، يعد في أهل المدينة. الاستيعاب (٣٠٤/٣)، والإصابة (٣٥٨/٤).

(٢٩) رواه البخاري في "صحيحه" (١٦٣/١) ح(٤٢١)، ك: الصلاة، ب: المساجد في البيوت.

(٣٠) إرشاد الساري (٤٢٧/١).

(٣١) هي: أم عطية الأنصارية،اسمها نسيبة ـ بنون وسين مهملة وباء موحدة مصغر، وقيل: بفتح النون وكسر السين ـ معروفة باسمها وكنيتها وهي بنت الحارث، وقيل: بنت كعب. تعد في أهل البصرة كانت من كبار نساء الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، وكانت تغزو كثيراً مع رسول الله ﷺتمرض المرضى وتداوي الجرحى، وشهدت غسل ابنة رسول الله ﷺ وحكت ذلك فأتقنت، عن النبيﷺ أحاديث. ينظر/ الاستيعاب (٥٠١/٤)،والإصابة (٤٣٧/٤).

(٣٣) رواه البخاري في "صحيحه" (٤٢٢/١)ح (١٢٣٣)، ك: الجنائز، ب: غُسلِ الميِّتِ ووضُوئِهِ بالماءِ والسِّدْر.

(٣٣) إرشاد الساري (٣٨٤/٢).

(٣٤) عَبْدُ الله بنُ أبي طَلْحَة زَيدِ بنِ سَهْل بن الأسْوَد بن حَرَام. أنصاري من الخزرج، ثم من بني مالك بن النجار، يكنى أبا يحيى. وهو أخو أنسِ بن مالك لأُمه، أمهما أم سُلَيم بنت مِلْحَان، وشهد عبد الله بن أبي طلحة مع علي صفين .

ينظر/الاستيعاب (٦١/٣)، وأسد الغابة لابن الأثير (٦٢٦/٢).

(٣٥) رواه البخاري في "صحيحه" (٥٤٦/٢)ح (١٤٨٤)، ك: الزكاة، ب: وسْمِ الإمامِ إبلَ الصَّدقةِ بيَدِهِ.

(٣٦) إرشاد الساري (٨٤/٣).

(٣٧) الحديبية: بين موقعة الحديبية ومكة المكرمة مرحلة (٢٢كم) وهي غرب مكة المكرمة على طريق جدة(موقع الشميسي اليوم، ويعرف بالحديبية أيضاً) .فيها بئر، ومسجد الشجرة، وعندها كانت بيعة الرضوان (ذي القعدة ٦هـ). ينظر/معجم البلدان(٢٣٣/٢)، وأطلس الحديث النبوي للدكتور شوقي خليل (ص١٤١).

(٣٨) تَنَخَّمَ: نَخِمَ الرجلُ نَخَماً و نَخْماً و تَنَخَّمَ: دفع بشيء من صَدْرِه أَو أَنفِه، واسم ذلك الشيء النُّخامةُ.

ينظر/السان (٩٦/٢).

(٣٩) رواه البخاري في "صحيحه" (٩٤٧/٢)، ك: الشروط ،ب: الشروطِ في الجهادِ، والمصالحةِ معَ أهلِ الحربِ، وكتابةِ الشروط.

(٤٠) إرشاد الساري (٤٤٧/٤).

(٤١) رواه البخاري في "صحيحه" (٣٢٣/٤) ح، ك: الطب، ب: الرُّقى بالقرآن والمعَوِّذات.

(٤٢) هو: الإِمَامُ الْعَلامَةُ الْحَافِظُ الأَوْحَدُ، شَيْخُ الإِسْلامِ الْقَاضِي أَبُو الْفَضْلِ عِيَاضُ بنُ مُوسَى بْنِ عِيَاضٍ الْيَحْصُبِيُّ الأَنْدَلُسِيُّ، ثُمَّ السَّبْتِيُّ الْمَالِكِيُّ .وُلِدَ فِي سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ .رحَلَ إِلَى الأَنْدَلُسِ سَنَةَ بِضْعٍ وَخَمْسِمِائَةٍ، وَاسْتَبْحَرَ مِنَ الْعُلُومِ، وَجَمَعَ وَأَلَّفَ، وَسَارَتْ بِتَصَانِيفِهِ الرُّكْبَانُ، وَاشْتَهَرَ اسْمُهُ فِي الآفَاقِ.محدث فقيه أصولي، مؤرخ، مفسر، شاعر، توفي سنة (٥٤٤هـ) من تصانيفه: "الشفاء بتعريف حقوق المصطفى–ط"،و"الإلماع في أصول الرواية والسماع". ينظر/الديباج لابن فرحون (ص١٦٨)، والسير (١٥/ ٣٧).

(٤٣) إرشاد الساري (٣٨٨/٨).

(٤٤) ينظر بقية المواضع التي ذكر الحافظ فيها التبرك بالصالحين/ارشادالساري(٨٠/٢)، و (٣/ ٥٥٦)، و(٤٨/٨)،و(٣٣/٩)،و (١٠/ ٢٦).

(٤٥) ينظر/التبرك أنواعه وأحكامه د. ناصر بن عبد الرحمن الجديع (ص ٢٦١).

(٤٦) هو: أبو الفرج زين الدين عبد الرحمن بن الشيخ شهاب الدين أحمد ،الشهير بابن رجب، الإمام الحافظ المحدث، ولد ببغداد سنة ٧٣٦هـ، وتوفي بدمشق سنة ٧٩٥هـينظر/ الشذرات (٣٣٩/٦).

(٤٧) رواه أبو داود في "سننه"(٣١٤/٤) ح (٤٠٣١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى"(٣٣١/٢٥):"هو حديث جيد"، وهو في "صحيح الجامع"للألباني ح(٦١٤٩).

(٤٨) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب الحنبلي (ص٥٤ ـ ٥٥).

(٤٩) ينظر تعليقات الشيخ في هوامش ما يأتي من فتح الباري" (٣٢٧/١، ٥٢٢، ٥٢٣و١١٥/٣، ١٤٤).

(٥٠) وللشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني كتاب تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد اعتنى فيه ـ رحمه الله ـ بما ورد في هذا الأمر من الأحاديث، وهو مطبوع.

(٥١) هي رملة بنت أبي سفيان بن حرب الأموية، أم المؤمنين، أم حبيبة، مشهورة بكنيتها، ماتت سنة. ٥٠هـ، وقيل قبل ذلك رضي الله عنها .الإصابة (٥٩٨/٢).

(٥٢) رواه البخاري في "صحيح" (١٦٧/١) ح (٤٣٠).

(٥٣) ارشاد الساري (٤٣٨/٢) .

(٥٤) فتح الباري بتعليق ابن باز (٥٢٥/١).

(٥٥) ينظر/ إرشاد الساري (٤٥٢/٢ ـ ٤٥٣)

(٥٦) لحديث: (كُنتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ ألا فَزُورُهَا...)، رواه مسلم في"صحيحه" بنحوه ـ مع شرح النووي ـ (٤٦/٧)، ك: الجنائز، والحاكم في "مستدركه" (١١٣/١٣) ح (١٤١٨)، واللفظ له.

(٥٧) الزيارة الشرعية: ما كانت للعبرة وتذكر الآخرة، وللإحسان إلى الميت بالدعاء له إذا كان موحداً، أما إذا كان للتبرك والتمسح بالقبر فهي زيارة بدعية، وإذا كانت لسؤال المقبور، أو التقرب إليه بذبح ونحوه، فهي زيارة شركية. ينظر/ إغاثة اللهفان لابن القيم (ص٢١٧ ـ ٢١٩)، ومجموع الفتاوى (١١٢/٢٧).

(٥٨) رواه البخاري في "صحيحه"(٩/ ٨٧)ح (٣٢١٥)، ك: الصلاة، ب: فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة.

(٥٩) في "صحيحه" (١٤١/٩) ح (٣٣٤٠)، ك: الحج، ب: لا تشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، وبقيته: (إِلَى ثَلاَثَةِ مَسَاجِدَ : مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ، وَمَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ إِيلِيَاءَ).

(٦٠) ينظر/اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (ص٦٦٦).

(٦١) ينظر/المصدر السابق (ص٦٦٥).

(٦٢) ينظر/ لمعرفة بعض العلماء الأعلام الذين قالوا بمنع شد الرحال إلى القبور: "الدين الخالص" للشيخ محمد صديق حسن (٥٩٠/٣).

(٦٣) رواه الإمام أحمد في "مسنده" (٦٤/٣)وفيه شهر بن حوشب حكم عليه الحافظ ابن حجر في "التقريب" (٣٥٥/١) بقوله: "صدوق كثير الإرسال والأوهام". وقال عنه في"الفتح" (٣٨٣/٣) ـ بعد إيراده الحديث ـ: "وشهر حسن الحديث وإن كان فيه بعض الضعف".

(٦٤) هو أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي، الشافعي، الفقيه، ولي قضاء دمشق دهراً، وكان ذا عبادة وتقشف، له مصنفات كثيرة، ينظر/البداية والنهاية (٢٥٢/١٤)، والشذرات(١٨٠/٦ ـ ١٨١) .

(٦٥) وكان ذلك في رد سماه: "شن الغارة على من أنكر سفر الزيارة" ثم أختار أن يسميه "شفاء السّقام في زيارة خير الأنام" ولم يأت فيه مؤلفه تقي الدين السبكي بشيء يصلح للاعتماد، بل شحنه بالأحاديث الضعيفة والموضوعة، والآثار الواهية المكذوبة، وتحريف النصوص الصحيحة وصرفها عن ظاهرها بالتأويلات المردودة.

(٦٦) إرشاد الساري (٣٤٤/٢).

(٦٧) الشورى، جزء من الآية: ٢١.

(٦٨) رواه مسلم في "صحيحه" (١٤/١٢) ح (٤٤٤٧)، ك: الأقضية، ب: نقض الأحكام الباطلة، وردّ محدثات الأمور.

(٦٩) رواه الترمذي في "سننه" (٣٧٨/٧) ح (٢٧١١)، ك: الإيمان عن رسول الله ﷺ، ب: ما جاءَ في افْتِرَاقِ هذِهِ الأمَّة، وقال أبو عيسى الترمذي: "هذا حديثٌ حسنٌ مُفَسَّرٌ غريبٌ، لاَ نَعْرِفُهُ مِثْلَ هَذَا إِلاَّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ" .والحاكم في "مستدركه"(٢١٨/١- ٢١٩) ح (٤٤٤)، وهو جزء منحديث افترا الأمة، وهو بمجموع طرقه تقوم به الحجة.

(٧٠)ذكره الإمام اللالكائي بإسناده في "شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة" (١٥٤/١) ح(٣١٥)،وأبو نعيم في "حلية الأولياء (١٤٦/٦)، وابن القيم في "أعلام الموقعين (٤٢٨/٢)، وفي "تلبيس إبليس" لابن الجوزي(ص٤٨).

(٧١) منهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابيه : "قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة" (ص١٣٣- ١٤١)،وفي "إقتضاء الصراط المستقيم"(٧٦٣/٢- ٧٦٤)،ومنهم الحافظ عبد الهادي في كتابه: "الصارم المنكي في الرد على السبكي" ، والعلامة ناصر الدين الألباني في "سلسة الأحاديث الضعيفة والموضوعة" (١١٩/١- ١٢٤).

(٧٢) رواه مالك في "الموطأ" (٣٥١٩/١) ح (٤١٤)، ك: قصر الصلاة في السفر، وأحمد في "مسنده" (٤٧٨/٢)ح (٧٣٣١)، وابـن أبي شيبة في "مصنفه" (٢٩٦/٢) ح (٧٥٢٦)، وسكت عنه الحافظ في "الفتح" (٢٤٥/٣)، وصححه الألباني في "تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد" (ص٢٥).

(٧٣) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، وبهامشه مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء (٨٤/٢- ٨٥).

(٧٤) ينظر/التمهيد(١٦٨/١)،والمدونة(٩٠/١)، والأم (٧٩/١)، والمغني لابن قدامة (٥٨/٢)، والمحلى لابن حزم (٣٧/٤)

التفسيرات الأحمدية للملا جيون

دراسة في المنهج والاتجاه والأسلوب

إعداد: محمد نوشاد النوري القاسمي*

الكلمة المفتاحية

في بداية المطاف أحمد الله تعالى وأشكره على أنه وفقني لأعيش برهة من الزمن، في ظلال القرآن الكريم، أتدبر معانيه، وأتشرف بدراسة موجزة للمنهج التفسيري والاتجاه الفكري لدى الشيخ الملا جيون الجونفوري ـ رحمه الله ـ في كتابه الشهير "التفسيرات الأحمدية" وذلك في عرض سائغ وبيان مقبول بإذن الله.

إن هذا البحث الموجز يعطى صورة إجمالية عن الكتاب وصاحبه ومهجه في التفسير والبيان، ويوضح الاتجاه التفسيري لدى الشيخ الملاجيون رحمه الله، وبالمناسبة وقفت وقفة قصيرة من الاتجاهات الفكرية لدى المفسرين، ثم تناولت صلب الموضوع ببيان وجيز، يكشف القناع عن الكتاب وما فيه من المعاني والمدلولات.

لمحة أولى

إن علم التفسير من أشرف العلوم عزاء، وأرفعها قدرا، وأسناها مكانا، وأغلاها هدفا، وألذها طعما، وأكثرها نفعا، فهو علم لا يذهب بك مذاهب الشطط، وطرائق الزلل، ولا يسير بك في أوهام الناس ولا يقحمك في أودية الخيال؛ وإنما هو علم يريك الصراط المستقيم، ويذكرك بمصائر الماضين، ويجول بك في الأنفس والآفاق، ويشرح لك سنة الله تعالى في الخلق والكون، ويبين لك ما يريد منك ربك من المعتقد والعمل والخلق، ويقص عليك قصصا، هي أحسن ما سمعته أذنا الإنسان وأجمل ما قرت به عيناه وأصدق ما علمه، ويربطك بكلام، هو معجز في بلاغته، معجز في معانيه، معجز في أخباره، معجز في أحكامه، معجز في جليله ودقيقه، يربطك بربك، وكفى!

نظرة في الاتجاهات الفكرية لدى المفسرين

إن النوع البشري ليس على مستوى واحد من الفكر والعلم والخيال، وهذا شيئ مقرر، ففيه عالم وجاهل، مثقف وأمى، ومن العلماء متهافتون على اللفظ، ومنهم غارقون في المعاني، ومنهم باحثون في العلة، ومنهم مجتهدون في النصوص، ومنهم مولعون بالجديد، ومنهم جامدون على القديم، ومنهم جامعون بين هذا وذاك.

فظل اختلاف الاتجاه والآراء واختلاف المنهج والأصول سمةً بارزة من سمات العلماء في كل علم وفن، برز هذا الاختلاف في الاتجاه والمنهج في علم التفسير أيضاً، حتى نشأت مذاهب فكرية ومنهجية في علم التفسير، هذا يمثل مذهب التفسير بالمأثورة، وذاك ينطق بلسان مذهب التفسير بالمعقول، وذالك ترجمان الاتجاه اللغوي، وآخر له صلة بالاتجاه العلمي، وآخر له منهج أكثر ارتباطا بالاتجاه الإصلاحي، وهكذا وُجدت اتجاهات كثيرة في علم التفسير، بما فيها اتجاه التفسير بالأثر

* مساعد تحرير مجلة"وحدة الأمة"العربية المحكمة الدولية.
Email:naushadnoori1985@gmail.com

واتجاه التفسير بالرأي، واتجاه التفسير اللغوي، واتجاه التفسير العلمي، واتجاه التفسير الإصلاحي، واتجاه التفسير الموضوعي، واتجاه التفسير الفقهي، واتجاه التفسير الإشاري وغيرها.

نشأ مذهبان في التفسير في وقت مبكر، عُرف أحدهما بمذهب التفسير بالمأثور، وعُرف الثاني بمذهب التفسير بالرأي، وكان بين هذهين حوارٌ هادئ حينا، وجدالٌ عنيف أحيانا، وقد وَجَدَ كل من المذهبين رجالا وأنصارا وأعوانا، فأُلِّفَتْ عشرات الكتب ما بين صغير كبير ووسيط، ليؤيد كل من المفسرين المؤلفين ما يميل إليه من مذهب، وما يتبناه من اتجاه، وكان الاتجاه اللغوي والفقهي هو ثالث ورابع الاتجاهات الفكرية لدى المفسرين، مما ظهر ظهورا كبيرا، ووضعت فيه كتب كثيرة. التفسير بالمأثور هو أقدم الاتجاهات وأيسر ها، وهو يعني تفسير القرآن بالقرآن وتفسير القرآن بالحديث وتفسير القرآن بالمأثور الصحيح من اقوال التابعين وتبع التابعين، وقد اختلف العلماء في عد أقوال الصحابة والتابعين في التفسير بالمأثور، والصحيح أن ما جاء من أقوال الصحابة والتابعين وليس هو من قبيل الاجتهاد والقياس فهو محمول على السماع عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ملزم قبوله إن صح سنده. التفسير بالرأي اتجاه في علم التفسير، وهو جانب كثر فيه النزاع والجدل، وانقسم العلماء إلى قسمين: منهم من يمنع التفسير بالرأي على الإطلاق، ومنهم من يؤيده، واستقر الرأي على أنه جائز بشروط، ومن الشروط ما يتعلق بأهلية المفسر، ومنها ما يتعلق بنوعية التفسير.

وكتب التفسير بالرأي كثيرة، من أهما تفسير البيضاوي وتفسير الرازي وتفسير النسفي وتفسير الخازن.

إن الاتجاه اللغوي لتفسير القرآن الكريم ليس اتجاها ناشئا، فرضته ضرورة العصر وظروف الزمان؛ بل هو اتجاه له أصالة وقدم فيما بين الاتجاهات التفسيرية، والمراد بالاتجاه اللغوي هو الاتجاه الذي يعمد إلى غامض القرآن فيحله، ومشكل القرآن، فيفسره، وغريب القرآن فيبينه، وإلى الأسلوب القرآني، فيوضح مدى بلاغته ويكشف عن وجوه الإعجاز فيه، فيمكن تقسيم الاتجاه اللغوي إلى ثلاثة أقسام، وإن كانت في نفسها متداخلة كالآتي:

١- القسم الأول: ما يتعلق بمفردات اللغة، وقد ترك العلماء لنا طائفة من المؤلفات، عُرفت يكتب غريب القرآن.

٢- القسم الثاني: ما يتعلق بالنحو والقضايا الإعرابية.

٣- القسم الثالث: ما يتعلق بالبلاغة والأساليب البيانية.

ومن الكتب التفسيرية التي تمثل هذا الاتجاه غريب القرآن لا بن قتيبة، وغريب القرآن للسجستاني، والمفردات في غريب القرآن للأصفهاني، ومن كتب القسم الثاني معاني القرآن للفراء، والبحر المحيط لأبي حيان، ومن كتب القسم الثالث الكشاف للزمخشري، و"في ظلال القرآن" للسيد قطب، وهناك كتب أخرى كثيرة في هذا الفن ولا مانع من الوقوف القصير مع بعض الكتب التفسيرية المهمة في هذا الاتجاه.

الاتجاه الفقهي

أشار القرآن الكريم في أكثر من آية إلى الأحكام التكليفية للإنسان، وهي آيات كثيرة عدها بعض العلماء فقال: إنها خمس مائة، وقال الآخرون أقوالا أخرى، وأخذ بيان هذه الآيات الشرعية وتفسيرها قسطا وافرا من عناية المفسرين، حتى تكوّن اتجاه يلتزم ببيان الآيات التي فيها أحكام شرعية عملية، وقد ترك الفقهاء المفسرون كثيرا من المؤلفات، وأودعوا فيها اجتهاداتهم واستنباطاتهم، فكانت ثروة عظيمة.

ومما يجدر تسجليه هنا أن الاتجاه الفقهي نشأ بشكل مستقل بعد استقرار المذاهب

الفقهية المتبوعة، فغلبت على المفسرون النزعة الترجيحية لما كانوا يتبعونه من مذاهب، فهناك كتب تفسيرية تمثل المذهب الحنفي، والأخرى تمثل المذهب المالكي، والأخرى تمثل المذهب الشافعي، والأخرى تمثل المذهب الحنبلي، وبعضها ظاهري وبعضها شيعي وما إليها من الاتجاهات الفقهية.

وكت هذا الاتجاه كثيرة كثرة تزيد على الحصر.

الاتجاه الفكري لدى الشيخ الملاجيون الجونفوي رحمه الله في تفسير القرآن الكريم

كان الشيخ أحمد المعروف بـ الملاجيونن الجونفوي أحد رجالات علوم التفسير والفقه والأصول، فكان عالما ضليعا يُشار إليه بالبنان ومنظورا إليه في عصره فيما يتعلق بمعضلات العلوم وعويصات الفنون، كان الشيخ من العلماء القلائل الذين جمعوا بين عمق العلم والقدرة على البيان، حيث كتب الشيخ عددا من الكتب القيمة التي عكفت عليها الأوساط العلمية واعتبرتها مرجعا هاما في الموضوع، كان الشيخ عالما متمكنا في الفقه الحنفي، عارفا بأصوله وفروعه، ومؤلفا قديرا في المواضيع الإسلامية. يُعَدُّ الشيخ واحدًا من العلماء الأفذاذ الذين سارت كتبهم مسير الركبان، وعمت فيوضهم في العلم والأدب، فكتابه نور الأنوار على المنار استطارت شهرته في الآفاق؛ حيث هو حتى الآن جزء من المقرر الدراسي في المدارس الإسلامية في شبه القارة الهندية، وكُتبتْ له شروح وشروح مما يدل على مدى قبول الكتاب ونفعه.

والتفسيرات الأحمدية من أعظم كتب الشيخ وأنفعها؛ فهو كتاب لا يوجد له نظير، كتاب يجمع غُرر المسائل الفقهية المستنبطة من الكتاب عباراته وإشاراته ودلالاته ومقتضياته، وقد كُتِب في أحكام القرآن كتب كثيرة؛ ولكن كتاب التفسيرات الأحمدية يمتاز بسهولة البيان وجمال العرض وعمق الثقافة وكثرة الأحكام الفقهية وحسن التأويل، وما إليها.

منهج الشيخ الملاجيون في التفسير

إن كتاب "التفسيرات الأحمدية" خير مثال لمنهج الشيخ في التفسير، وهو كتاب يمثل الاتجاه الفقهى في تفسير كتاب الله تعالى، فلا يعتنى إلا بتفسير آيات تتعلق – من قريب أو بعيد –بالأحكام التكليفية، و منهج الشيخ في الكتاب هو منهج تلقائى، فلا يبدو مقلدًا لأحد في البيان ولا متبعًا لمنهج فلان وفلان في التفسير، وبما أنه كان عالمًا حنفيًا متصلبًا، يوضح موقف الحنفية من الآيات القرآنية وتأويلهم ومنهجهم في الاستخراج والاستنباط والبيان.

وقد سبق أن الاتجاه الفقهى في تفسير القرأن الكريم لم يكن اتجاهًا جديدًا ؛ وإنما هو اتجاه قديم استقر منذ نشوء المذاهب الفقهية وانتشارها، فكان هناك كثير من العلماء الذين ألفوا كتبا تفسيرية، ترمى إلى بيان آيات الأحكام الشرعية وحسب؛ وكان لكل مفسر اتجاه وأسلوب؛ ولكن الشيخ الملاجيون الجونفورى افترع طريقة عذراء لم يُسبق إليها، فهو منهج تلقائى سائد في ذلك العصر.

المنهج العام للكتاب

المنهج العام للكتاب أن المؤلف الفاضل لا يفسّر كل آية من القرآن، وإنما ينتقي آيات الأحكام، فسورة الفاتحة لما كانت خالية عن آيات الاحكام طوى المؤلف كشحه عن تفسيرها. ومن أجل ذلك بدأ تفسير سورة البقرة بقوله تعالى هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء الخ [البقرة: ٣]". وذاك أنه يُعني بتفسير آي الأحكام بالدرجة الأولى دون غيرها، وهو خلاف منهج القرطبي - مثلاً - الذي التزم تفسير الكل.

وإن الملامح التى ارتسمت في خاطري بالنظر في الكتاب تتضح فيما يلى:

بيان الراجح من أقوال المذهب الحنفي

كان الشيخ الملاجيون الجونفورى عالما موسوعيًا للمذهب الحنفي، فهو يذكر

الراجح من أقوال المذهب الحنفى، ولا يذكر اختلاف الآراء إلا قليلاً، ولايتمكن منه إلا عالم موسوعى خبير، وكذلك الشيخ الملاجيون؛ فهو مطلع على مصادر الفقه الحنفي ومسائله وماهو الراجح فيه، ويختار الشيخ في سرد المسائل أسلوبًا هادئًا كأنه بحر ساكن لا يعرف تلاطم الأمواج وتدافع المد والجزر، فيذكر كل المسائل المتعلقة بالآية والموضوع.

قلة الاعتناء بالدلائل ومناقشتها

الجدير بالذكر أن الشيخ لا يُعْنَى بالدلائل ومناقشتها قوةً وضعفًا، فلم يرض لنفسه أن يكون محاميا متعصبا للفقه الحنفى، لا يقرر له قرار ولا يهدأ له بال إلا أن يقوي مذهبه ويرجح دليله ولو بالتعسف والشطط، أجل! شاء أن يكون مبينا لأحكام القرآن وفق ما تقرر في الفقه الحنفى، ولا بأس فيه.

نعم! قد يذكر دلائل المذهب الحنفي إيضاحًا للمذهب وتحريًا لجانب الصواب فيه، فيقول في تفسير قوله تعالى: وربك فكبر [سورة المدثر: ٣]: "والمراد تكبيرة الافتتاح، وهو ركن عند الشافعى رحمه الله، لأنه يشترط لها ما يشترط لسائر الأركان، وعندنا هو شرط خارج عن الصلاة، حتى إن من تحرم الفرض له أن يؤدي بها التطوع، لأنه تعالى قال: وذكر اسم ربه فصلى، فقد عقب الصلاة بالذكر، وهو التكبير، وعطف عليه بالباء، وهو يقتضى المغايرة، ولهذا لايتكرر كسائر الأركان، وإنما روعى فيه شرائطها لأجل ما يتصل به من القيام على ما سيأتى" (١).

فذكر دليل المذهب الحنفى، ولم يتعرض لدلائل الشافعي، فهو يريد بيان المذهب الحنفى بالدليل ولا يُعنى بتغليبه على غيره من المذاهب.

ترجيح عقائد أهل السنة والجماعة

إن كتاب التفسيرات الأحمدية وإن كان كتاب المسائل دون العقائد إلا أن الشيخ المؤلف لايفوته التنبيه على صحيح العقائد وسليمها لاسيما في المواضع التي زلت فيها أقدام العلماء والمتكلمين فشطوا في أشواطهم وابتعدوا عن الصواب كالكرامية والمعتزلة.

ومن الأمثلة على ذلك قوله في تفسير قوله تعالى : "ثم استوى إلى السماء [البقرة:٢٩] أي قصد إليها بإرادته أو استولى عليها وهو في اللغة طلب السواء وهو لايليق في حقه تعالى فحمل على ماذكرنا من المعنيين أو جعل من المتشابهات ، فلا تمسك به للكرامية في إثبات العلو والمكان له تعالى"(٢).

أما آيات صفات الله تعالى في القرآن فلم يتعرض لها الشيخ كثيرا إلا في موضع واحد، وهو تفسير آية الكرسى فلا شتما لها على كثير من صفات البارئ سبحانه أراد الشيخ أن يذكر تفسير هذه الآية الكريمة بذكر عظمة الخالق وقوته وعلمه، يقول الشيخ في تفسير هذه الأية:

هذه الآية آية الكرسى وهى جامعة للتوحيد والصفات بأحسن وجه وأكمله، فلذلك اخترتها من بين أخواتها ، ثم يقول : الله لاإله إلا هو إثبات للألوهية ودال على التوحيد والنزاع في تقدير الوجود والإمكان، أي لا إله موجود إلا هو أو لا إله ممكن إلا هو، مشهور فيمابين العلماء مع الشبهة والجواب، وقوله تعالى الحى أي الذي يصح أن يعلم ويقدر أو الباقى الذي لا سبيل للفناء إليه على ما في الكشاف، فيه إثبات حيويته، وهو حى بحيويته الأبدية والأزلية، وقوله القيوم أي الدائم القائم بتدبير الخلق وحفظه، فيه إثبات لاستقلاله وعدم إعانة غيره لا في أمره، ولا في أمر غيره، وقوله تعالى لا تأخذه سنة ولانوم: السنة فتور يتقدم النوم، وقيل: السنة ثقل في الرأس والنعاس في العين والنوم في القلب على مافي المدارك، وهو دال على نفى الغفلة عن نفسه، ونفى ما يكون من صفات الحدوث وهو تأكيد للقيوم، لأن من جاز عليه ذلك استحال أن يكون قيوما، ولو أخذه السنة والنوم لزال السماوات والأرض عن الإمساك، وفي قوله تعالى له مافي السموات والأرض إثبات

مالكيته ونفاذ أمره وتصرفه ونفى شريكه إذ جميع ما في السماوات وما في الأرض ملكه فأنى يكون له شريك ويدخل فيه نفس السماوات والأرض أيضا بل هو أبلغ من قوله تعالى له السماوات والأرض وما فيهن، وقوله تعالى من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه بيان لعظمة شأنه وكبريائه وإثبات هيبة ربوبيته، وفيه دليل على نفي الشفاعة للكفار على ما في الزاهدي، وأقول : يلزم منه جواز الشفاعة بعد الإذن في الجملة للمؤمنين، فيكون ردا على المعتزلة في إنكار الشفاعة لأهل الكبائر، وقوله تعالى يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم أي ما قبلهم وما بعدهم أو أمور الدنيا والآخرة، أو ما يدركونه وما لا يدركونه، والضمير لما في السماوات والأرض أو لما دل عليه من ذا على ما في البيضاوي، وهو دليل على إثبات كمال علمه، وقوله تعالى ولا يحيطون بشيئ من علمه أي معلوماته، بيان لعجز الخلق وجهلهم بأصل الخلقة، وأقول في إطلاق لفظ علمه دليل على أن له علما قائما بذاته، فيكون ردا على المعتزلة، لأنهم قالوا عالم بلا علم، بخلاف قوله تعالى يعلم وعالم، فإنهم يطلقونه عليه أيضا، وقوله تعالى إلا بماشاء فيه إثبات مشيئته وإرادته تعالى، وقوله تعالى وسع كرسيه السماوات والأرض إما تصوير تعظيمه أو تمثيل مجرد، أو الكرسي مجاز عن العلم أو الملك أو القدرة فيدل على إثبات علمه وملكه وقدرته أو هو العرش أو هو جسم تحت العرش، كما ورد في الحديث، وهو فلك البروج عند الحكماء على ما قالوا، وقوله تعالى ولا يؤده حفظهما أي لا يثقله حفظ السماوات والأرض، فيه إثبات كمال قدرته وتخليق الأشياء بإرادته دون الآلات، وقوله تعالى وهو العلى أي المتعالى عن الأنداد والأشباه، العظيم أي مستحقر بالإضافة إليه كل ما سواه، فيه إثبات علوه عن صفات الحدوث، وعظمته في عزه وجلاله وملكه وسلطانه"(٣).

ففى تفسير آية الكرسى سرد الشيخ الملاجيون عقائد أهل السنة والجماعة بأسلوب سهل بدون التعريج على دلائلها، وفي غضون البحث ردَّ على المذاهب الفاسدة، وهذا دأبه في الكتاب كله.

موقفه من السلف والخلف في العقيدة

في تفسير قوله تعالى: هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات وهن أم الكتاب وأخر متشابهات [سورة آل عمران: ٧]أوضح الشيخ أن في العقيدة مذهبين: مذهب السلف ومذهب الخلف، يقول في الإجابة عن سؤال حاصله ما الفائدة في إنزال المتشابهات؟ : فالجواب أن في إنزالها ابتلاء للراسخين ونهيهم عن متمناهم ، فكما أن الجاهل يُبلى بالتعلم جبرا على خلاف هواه كذالك العلماء يبتلون بالتوقف على اعتقاد حقية المراد على خلاف متمناهم الذي هو الحرص على زيادة علم كل شيئ، وهذا هو عند المتقدمين، وأما المتأخرون فلما عاينوا فساد الزمان حيث يحمل بعض الملاحدة أيات الصفات على ظاهر معانيها التى يلزم منها الجهة والمكان والعورة لله تعالى وكون آدم عليه السلام عين روح الله وغيره عاينوا ضعف اعتقاد الأنام من الشرائع أفتوا بجواز تأويلاتها بمعانى تخرج الأيات عن العقائد الفاسدة، وتوافق عقائد أهل السنة التى عليها الصحابة والتابعون على ما نص به في بعض كتب الأصول"(٤).

وبذلك نرى أن الشيخ لايفوته التنبيه على الأشياء المهمة في كل موضع مناسب، مما يجعل الكتاب مرجعا هاما في الباب.

ذكر القواعد الفقهية

كان الشيخ عالما أصوليا كبيرا ، وقد شرح كتاب المنار في أصول الفقه الحنفى شرحا وافيا باسم نور الأنوار على المنار، رزقه الله تعالى ذهنا ثاقبا وذاكرة قوية، وبذلك استطاع أن يستنبط القواعد

الفقهية من خلال السباحة في بحر الآيات القرآنية الكريمة، فقلما وجد الشيخ آية، من شأنها أن تشير إلى القواعد إلا ويبادر إلى استخراجها وتوضيح مدلولها وكيفية الدلالة عليها، ومن القواعد التى أرسى الشيخ دعائمها بالنصوص القرآنية مايلى:

(أ) الأصل في الأشياء الإباحة

هذا أصل مختلف فيه، استدل الشيخ الملاجيون الجونفورى على إثباته بقوله تعالى: هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعا، فهو يقول : يمكن أن يستدل بها على أن الأصل في الأشياء الإباحة كما هو مذهب طائفة بخلاف الجمهور، فإن عندهم الأصل هو الحرمة .....وبالجملة ففى الأية دليل على كون الإباحة أصلا في الأشياء، صرح به صاحب الكشاف حيث قال : قد استدل بقوله تعالى خلق لكم على أن الأشياء التى يصلح أن ينتفع بها ولم تجر مجرى المحظورات في العقل خلقت في الأصل مباحة مطلقا لكل أحد أن يتناولها وينتفع بها"(٥).

(ب) الإجماع حجة كالكتاب والسنة ومخالفته حرام

أثبت الشيخ حجية الإجماع وحرمة مخالفته بأكثر من آية، ورد على من خالفه، وجاء بكلام مشبع في تفسير قوله تعالى: ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا، [سورة النساء: ١٠٥] حيث قال: "والحاصل أن هذه الأية هى التى تدل على أن الإجماع كالكتاب والسنة كما ذكر أهل الأصول والمفسرون جميعا، وذلك لأن الله تعالى جعل اتباع غير سبيل المؤمنين كمشاقة الرسول عليه السلام حيث جعل كلا منهما مشتركا في جزاء واحد وهو نوله ما تولى ونصله جهنم والأية تدل على حرمة مخالفة الإجماع؛ لأنه تعالى رتب الوعيد الشديد على المشاقة واتباع غير سبيل المؤمنين"(٦).

(ج)القياس حجة شرعية

ذكر الشيخ في تفسير قوله تعالى: فإن تنازعتم في شيئ فردوه إلى الله ورسوله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر (سورة النساء: الآية :٥٩) مسئلة القياس ورد على من أنكر القياس استدلالاً بالآية، فقال: وبالجملة قد استدل به منكروا القياس على أن القياس ليس بحجة، لأن الله أوجب رد المختلف إلى الكتاب والسنة دون القياس، ولنا أن ندفع شبهتهم بأن رد المختلف إلى الكتاب والسنة إنما هو بالقياس عليهما، يدل عليه لفظ الرد، ولما أمر به بعد إطاعة الله وإطاعة الرسول دل على أن الأ حكام ثلاثة، مثبت بظاهر الكتاب ومثبت بظاهر السنة ومثبت بالرد عليهما على وجه القياس، فكانت حجة لنا في ان القياس حجة"(٧).

كما أن الشيخ استدل على حجية القياس بآيات آخرى أيضا .

الاعتناء بالأحكام الفقهية

ومن أمثلته على ذلك ما قاله الشيخ في تفسير قوله تعالى :وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف[سورة البقرة: ٢٣٣] : "وفي قوله تعالى وعلى المولود له الخ إشارة إلى أن النسب إلى الآباء، وإلى أن للأب حق التملك في مال ولده، وأنه لايعاقب بسببه كالمالك بمملوكه، لأنه نسب إليه بلام الملك، وإلى انفراد الأب بتحمل نفقة الولد، لأنه أوجبها عليه بهذه النسبة ولايشاركها فيه أحد ، وإلى أن الولد إذا كان غنيا والوالد محتاجا لم يشارك الولد أحد في تحمل نفقة الوالد، وفي قوله تعالى رزقهن وكسوتهن بالمعروف إشارة إلى أن أجرة الرضاع يستغنى عن التقدير بالكيل والوزن كما قال أبوحنيفة"(٨).

الاعتناء بأسباب النزول

الجدير بالذكر أن الشيخ ينص على أسباب النزول للآيات التى يريد تفسيرها، فيذكر الأسباب من الكتب الموثوق بها في التفسير، وفي ضوء الأسباب يفسر الأيات، وبعدها يوضح ما تشتمل عليه

الأيات من معان وأحكام.
الحاصل أن التفسيرات الأحمدية كتاب جامع لأحكام القرآن الكريم، يحتوي على تفسير غرائب القرآن وأحكامه الفقهية وأُلّف في أسلوب سردي سهل، لا يفارقه الناحية الجمالية في البيان.

الشيخ الملاجيون في سطور

هو العالم الهندي الكبير، المفسر النابغ، الفقيه البارز، الأصولي البارع، المؤلف القدير، الشيخ أحمد المعروف بـ الملاجيون الأميتهى الصديقى، ولد في مديرية اميتهى إحدى مديريات ولاية يوبى – الهند، نشأ وتلقى التعليم الابتدائى في مولده أميتهى، ثم أكمل دراسة العلوم الإسلامية والأدبية لدى الشيخ لطف الله الكوروي، ولما فرغ من التحصيل بدأ في تدريس الكتب وتخريج الرجال، فاشتهر أمره ونبه ذكره، ثم انطلق إلى السلطان عالمكير فتلقاه بالتعظيم، وتلمذ عليه وكان يراعي أدبه إلى الغاية، وكذلك كان يحترمه أولاد السلطان : شاه عالم وغيره.
كان الشيخ ذا حافظة قوية وذاكرة نادرة، كان يتلو نصوص الكتب الدراسية صفحات وصفحات اعتمادا على حفظه، وكان يحفظ قصيدة طويلة بسماعه مرة واحدة.
تشرف بزيارة الحرمين الكريمين وصرف عمره العزيز في التدريس والتأليف وتخريج الرجال وإصلاح العامة.
توفي بدهلى دار الخلافة عام ألف ومائة وثلاثين، ونقل جسده إلى أميتهى ودفن هناك.
ومن مصنفاته التفسيرات الأحمدية ونور الأنوار شرح المنار في اصول الفقه وما إليها.

خاتمة

وفي آخر الأشواط يجب أن أذكر أهم النتائج والتوصيات التى توصل إليها الباحث، وهى كالتالى:
١- إن علم التفسير أشرف العلوم على الإطلاق، وذلك لوجوه مسرودة في البحث.
٢- نشأت مذاهب فكرية ومنهجية في علم التفسير، بما فيها التفسير بالمنثور والتفسير بالمعقول والتفسير الفقهى والتفسير الإصلاحى والتفسير اللغوي والتفسير الإشاري والتفسير السياسى والتفسير العلمى والتفسير الموضوعى وما إليها.
٣- منهج الشيخ الملاجيون في التفسير هو منهج تلقائى متميز.
٤- إن التفسيرات الأحمدية تمثل الاتجاه الفقهى وفق المذهب الحنفى.
٥- ومع أن التفسيرات الأحمدية كتاب المسائل دون العقائد، إلا أنه في بعض المواضع الهامة أشار إلى صحيح العقائد وما لصق بها من شكوك.
٦- إن الشيخ الملاجيون يؤيد كلا من مذهبى السلف والخلف، ويحمله على محامل صحيحة.
٧- الكتاب يأتى بذكر القواعد الفقهية واستنباطها.
٨- ومن التوصيات التى أريد أن أذكرها هو أن الكتاب في حاجة إلى الخدمة، فقد طبع في مصر والهند وباكستان طبعة قديمة خالية من التعليق والتحقيق والتصحيح حتى التبويب، ومثل هذا الكتاب لايُهمل أمره ولايُترك شأنه، ثم إن خدمة الكتاب لاتعنى خدمة واحد من كتب التراث وحسب؛ بل هى –كذلك– خدمة لكتاب الله العزيز، الذي لايشقى جليسه ولاتنقضى عجائبه.
وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

❖❖❖

الهوامش

(١) الملاجيون، أحمد، التفسيرات الأحمدية (قزان: مكتبة الشركة، د.ت، د.ط) ص٥٠٩- ٥١٠.
(٢) المصدر السابق،ص١٣.
(٣) المصدر السابق ، ص ١٥٥- ١١٦.
(٤) المصدر السابق ، ص١٣٥- ١٣٦.
(٥) المصدر السابق ، ص١٢.
(٦) المصدر السابق ، ص٢١٨.
(٧) المصدر السابق ، ص ٢٥٠ – ٢٥١.
(٨) المصدر السابق ، ص١٥٥.

مع أسرة أنصارية من أهل قباء

دراسة تحليلية حديثية لبعض دروس الشيخ عمر فلاته

إعداد: د. خالد بن مرغوب بن محمد أمين الهندي *

قال الشيخ في بداية المحاضرة بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم "أما بعد، فإن حديثي في هذه الليلة المباركة في موضوع يتعلق بأسرة أنصارية من أهل قباء"، وقبل أن يتحدث عما يتعلق بهذه الأسرة نبه على أن الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وسلم وهو مؤمن، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعينيه أو لم يره كعبد الله بن أبي مكتوم(١)، ثمتحدث عن مقام الصحابة وأنهم اجتباهم الله تعالى واصطفاهم لصحبة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ويكونوا حملة هذا الدين ينقلون لنا ما صح عن رسول الله ينقلون لنا وما أنزل الله جل وعلا على نبيه صلوات الله وسلامه عليه.

وقال: يجب علينا أن نعلم مقامهم وأن نعترف بمقدارهم وأن نتوسل إلى الله تبارك وتعالى بحبهم، وحرام وأي حرام أن ننال في عرض أصحاب رسول الله (٢).

ثم بدأ الحديث عن أسرة عبادة بن الصامت الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه.

وافتتح الحديث عنه بالتعريف بقباء، وذكر أنه في الأصل اسم بئر، فجاء الله تعالى بالإسلام وكلمة قباء تطلق على هذه الضاحية، وذكر أصل موضع المسجد(٣).

ثم شرع يتحدث عن قباء وفضله مبينا أنه لم يكن لهذه البقعة خبر قبل أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم إليها وتطأها قدماه الشريفتان صلوات الله وسلامه عليه وقال: ما قباء؟ وما يثرب؟ وما بقية البقاع؟ لولا أن الله تبارك وتعالى كرمها بهجرة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وتحدث عن الهجرة قليلا، وذكر إقامته صلى الله عليه وسلم بقباء قبل دخوله المدينة، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أول جمعة صلاها في وادي رانوناء في مسجد الجمعة المعلوم إلى يومنا هذا(٤).

أقول: قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عبدالرحمن بن عويمر بن ساعدة قال: حدثني رجال من قومي من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة وتوكفنا قدومه كنا نخرج إذا صلينا الصبح إلى ظاهر حرتنا ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما نبرح حتى تغلبنا الشمس على الظلال فإذا لم نجد ظلا دخلنا وذلك في أيام حارة، حتى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنا نجلس حتى إذا لم يبق ظل دخلنا بيوتنا وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت فكان أول من رآه رجل من اليهود و قد رأى ما كنا نصنع وأنا ننتظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة(٥) هذا جدكم قد جاء، قال: فخرجنا إلى رسول الله صلى

* الأستاذ المشارك بكلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

الله عليه وسلم وهو في ظل نخلة ومعه أبو بكر رضي الله عنه في مثل سنه وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك وركبه الناس وما يعرفونه من أبي بكر حتى زال الظل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام أبو بكر فأظله بردائه فعرفناه عند ذلك.

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ فيما يذكرون ـ على كلثوم بن هدم أخي بني عمرو بن عوف ثم أحد بني عبيد، ويقال: بل نزل على سعد بن خيثمة، ويقول من يذكر أنه نزل على كلثوم بن هدم: إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس الناس في بيت سعد بن خيثمة، وذلك أنه كان عزبا لا أهل له وكان منزل الأعزاب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين فمن هنالك يقال: نزل على سعد بن خيثمة وكان يقال لبيت سعد بن خيثمة: بيت الأعزاب، فالله أعلم أي ذلك كان، كلا قد سمعنا.

ونزل أبو بكر الصديق رضي الله عنه على خبيب بن إساف أحد بني الحارث بن الخزرج بالسنح، ويقول قائل: كان منزله على خارجة بن زيد بن أبي زهير أخي بني الحارث بن الخزرج.

وأقام علي بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل معه على كلثوم بن هدم.

وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك فالله أعلم أي ذلك كان، فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي وادي رانوناء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة.

فكان علي بن أبي طالب ـ وإنما كانت إقامته بقباء ليلة أو ليلتين ـ يقول: كانت بقباء امرأة لا زوج لها مسلمة، قال: فرأيت إنسانا يأتيها من جوف الليل فيضرب عليها بابها فتخرج إليه فيعطيها شيئا معه فتأخذه، قال: فاستربت بشأنه فقلت لها: يا أمة الله من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه فيعطيك شيئا لا أدري ما هو وأنت امرأة مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن واهب قد عرف أني امرأة لا أحد لي فإذا أمسى عدا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا فكان علي رضي الله عنه يأثر ذلك من أمر سهل بن حنيف حتى هلك عنده بالعراق.

قال ابن إسحاق: وحدثني هذا من حديث علي رضي الله عنه هند بن سعد بن سهل بن حنيف رضي الله عنه.

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء في بني عمرو بن عوف يوم الإثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس وأسس مسجده، ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة، وبنو عمرو بن عوف يزعمون أنه مكث فيهم أكثر من ذلك فالله أعلم أي ذلك كان، فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي وادي رانوناء فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة "(٦).

ثم قال الشيخ: أود أن أقول بهذه المناسبة إن هذه المساجد التي يذكر ويقال إن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى فيها لا ينبغي لنا بأي حال من الأحوال أن ننكر ذلك ولا أن نقول بأن هذه فرية تركية أو فرية ممن قبلنا.

ثم قال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل وصلى في هذا المسجد وصلى في وادي رانوناء، نعم لن نستطيع أن نجزم ونقول بأنه صلى في هذا الموضع بالذات ولكنه صلى في وادي رانوناء.

وأيد الشيخ ذلك قائلا: " إذا كانت دار أبي وإذا كانت دار جدي وإذا كانت

دار أبيك وجدك وإذا كانت دور العظماء في أي بلد من البلاد قد اعترف بها وعينت وقيل إن هذه دار تعود لآل فلان وهذه دار تعود لآل فلان، فما المانع من معرفة المعالم المتعلقة بالسيرة؟ ".

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فِيهِ صَلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ .

ثم قال الشيخ: لذا أيها الإخوة لا ينبغي لنا أن نجعل هذا موضوع قيل وقال، لا ينبغي لنا أن نجعل هذا الأمر موضع اعتراض وخلاف.

ثم ذكر فضل الصلاة في مسجد قباء قائلا: فلقد صح في الحديث عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أنه قال: من تطهر في بيته ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه كان له كأجر عمرة.

أقول : وهذا الحديث جاء عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ فَصَلَّى فِيهِ صَلاةً كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةٍ .

أَخرجه النسائي وابن ماجه في سننهما وأحمد في المسند والبخاري في التاريخ الكبير، والحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير ـ ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال ـ، واللفظ لابن ماجه ورواية الباقين بنحوه من غير ذكر التطهر في بيته(٧).

وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي وكذا صحح سنده العراقي في تخريج الإحياء(٨).

أقول : هو كذلك بحسب متابعاته وشواهده وإلا ففي سنده محمد بن سليمان الكرماني روى عنه جمع، ولم يذكر بجرح وذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن حجر في التقريب: مقبول(٩).

ومن متابعاته ما رواه البخاري في لتاريخ الكبير وابن شبه في تاريخ المدينة(١٠).

ومن شواهده : حديث أسيد بن ظهير مرفوعا بلفظ الصَّلاةُ فِي مَسْجِدِ قُبَاءٍ كَعُمْرَةٍ أخرجه الترمذي وابن ماجه في سننهما والحاكم في المستدرك، والضياء في الأحاديث المختارة، وابن أبي شيبة في المصنف والبخاري في التاريخ الكبير، وأبو يعلى في مسنده، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني، والبيهقي في سننه الكبرى، والطبراني في المعجم الكبير ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال(١١).

وقال الترمذي فيما نقل المزي في تهذيب الكمال والذهبي في ميزان الاعتدال عنه حسن صحيح(١٢)، والموجود في أصول النسخة المطبوعة بتحقيق الشيخ أحمد شاكر قوله حَسَنٌ غَرِيبٌ .

ولو ثبت هذا عنه لكان أولى فقد تفرد به أبو أسامة عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ جَعْفَرٍ عن أبي الأَبْرَدِ المدني مَوْلَى بَنِي خَطْمَةَ عنه وهو حديث حسن لغيره كما يأتي، وقال الحاكم هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه إلا أن أبا الأبرد مجهول.

وأما الذهبي فقال حديث منكر، قلت لعله يعني به أنه تفرد به من لا يحتمل تعديله التفرد فإن هذا من إطلاقات المنكر:

قال صاحب توجيه النظر:" وإذا تفرد المستور أو الموصوف بسوء الحفظ أو المضعف في بعض مشايخه خاصة أو نحوهم ممن لا يحكم لحديثهم بالقبول بغير عاضد يعضده بما لا متابع له وشاهد قيل لما تفرد به منكر وهذا هو أحد قسمي المنكر، وهو الذي وجد إطلاق المنكر عليه لكثير من المحدثين كأحمد والنسائي "(١٣).

وكذلك الأمر هنا فإن أبا الأبرد مستور أي مجهول الحال ولذا قال فيه ابن حجر في التقريب مقبول(١٤)، يعني إذا توبع كما هو الحال هنا.

ومن الشواهد أيضا حديث ابن عمر

بلفظ من صلى فيه كان كعَدل عمرة أخرجه ابن حبان في صحيحه(١٥).

وفيه عاصم بن سويد وشيخه داود بن إسماعيل لم أجد لهما توثيقا ولا جرحا، فهما في عداد المجاهيل وتوثيقهما إنما يكون على طريقة ابن حبان ومن وافقه فيقبلان في الشواهد.

والخلاصة أن الحديث صحيح كما قال الشيخ عمر، ولكن بمجموع طرقه، والله أعلم .

وبدأ الكلام عن الأسرة بعميدها، وهو عبادة بن الصامت، وذكر أنه بايع النبي صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الأولى وبيعة العقبة الثانية، ولما هاجر النبي عليه الصلاة والسلام إلى طيبة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين عبادة وبين أبي مرثد الغنوي(١٦).

أقول: ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى في ترجمته رضي الله عنه أنه "عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، ويكنى أبا الوليد، وأمه قرة العين بنت عبادة بن نضلة بن مالك بن العجلان بن زيد بن غنم بن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وكان لعبادة بن الصامت من الولد: الوليد ـ وأمه جميلة بنت أبي صعصعة وهو عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار ـ، ومحمد ـ وأمه أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن النجار ـ، وشهد عبادة العقبة مع السبعين من الأنصار في روايتهم جميعا، وهو أحد النقباء الاثني عشر.

وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وأبي مرثد الغنوي، وشهد عبادة بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عقبيا نقيبا بدريا أنصاريا ".

ثم روى ابن سعد عن الوليد بن عبادة قال كان عبادة بن الصامت رجلا طوالا جسيما جميلا، ثم ذكر أنه مات بالرملة من أرض الشام سنة أربع وثلاثين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، وله عقب(١٧).

وأما أبو مَرثد فصحابي بدري مشهور بكنيته واسمه كنّاز بن الحصين بن يربوع الغنوي، حليف حمزة بن عبد المطلب. . وكان رجلا طوالا كثير شعر الرأس وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وعبادة بن الصامت، وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا، شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، سكن الشام، ومات بالمدينة قديما في خلافة أبي بكر سنة اثنتي عشرة من الهجرة وهو يومئذ ابن ست وستين سنة(١٨).

ثم قال الشيخ: "هذه سياسة نبوية، هذا عمل مجيد كريم، فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقوي النبي صلى الله عليه وسلم الأواصر الإيمانية التي جمعهم الله جل وعلا بها. . . هذه الأخوة والله.

ولعلكم جميعا تعلمون الموقف الكريم الذي وقفه سعد بن الربيع الأنصاري الثري الذي يملك شمال البقيع إلى قرب أحد، منطقة الأسواف منطقة تبدأ من البقيع إلى قرب أحد ولو عدت إلى علم الناس اليوم لوجدتهم يقولون في السفوف، يعني هذه المنطقة تسمى بقيع الأسواف، وهي ما بعد بقيع الغرقد.

سعد بن الربيع لما آخى النبي صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الرحمن بن عوف، قال لعبد الرحمن بن عوف: هلم يا عبد الرحمن أقسم مالي بيني وبينك، نصفه لك ونصفه لي، ولي زوجتان تعال واختر أيتهما شئت لأتنازل عنها وأطلقها وتتزوجها، فقال له: بارك الله في مالك وبارك الله لك في أهلك، دلوني على سوق المدينة(١٩).

أيها الإخوة، يا أهل لا إله إلا الله، يا سكان طيبة التي سكنها رسول الله، يا سكان طيبة التي وطئها أنصار رسول الله، والله إنها دروس يجب علينا

أن نتلقاها.

يجب علينا أن نحييها يجب علينا أن نقوم بها، يجب علينا أن نعلم بأن كل من قال لا إله إلا الله أخ لنا".

ثم ذكر أن عبادة بن الصامت أحد خمسة من الأنصار جمعوا القرآن وحفظوه على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وهم عبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وأبو الدرداء وأبو أيوب الأنصاري.

أقول: روى ابن سعد ومن طريقه ابن عساكر عن محمد بن كعب القرظي قال جمع القرآن في زمان رسول الله خمسة من الأنصار معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت وأبي بن كعب وأبو أيوب وأبو الدرداء(٢٠).

وقال الفقيه العلامة جمال الدين محمد أبي بكر الأشخر(٢١):

وجمع القرآن حفظا يا أخي
عثمان مرتضى معاذ وأبي
ثم أبو الدرداء، وابن ثابت
ثم أبو أيوب وابن الصامت
سعد أبو زيد هو الأنصاري
ثم تميم، ابن أوس الداري

ثم قال الشيخ: "لم يدع عبادة مشهدا ولم يدع معركة حضرها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا شهدها عبادة.

وعاش رضي الله عنه مدة من الزمن بعد وفاة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وجاهد مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم، وذهب في آخر أيامه إلى الشام قاضيا قبل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، فأقام بحمص يعلم الناس الإسلام، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أمير من قبل عمر.

وقع بين عبادة بن الصامت وبين معاوية بعض فتور، فغضب عبادة رضي الله عنه ورجع إلى المدينة، فسأله عمر ما الذي أعادك؟ قال: أمر وقع بيني وبين معاوية، فأمره بأن يعود إلى الشام، وكتب لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه أن لا إمرة لك عليه، ولا يصلح بلد ليس فيها عبادة بن الصامت وأمثال عبادة بن الصامت رضي الله عنه وأرضاه" (٢٢).

أقول: أصل الخبر في صحيح مسلم وسنن أبي داود وسنن النسائي وجامع الترمذي، وأما بهذا السياق فرواه ابن ماجه في سننه والطبراني في مسند الشاميين بسند حسن ـ فيما يظهر ـ عَنْ قَبِيصَةَ أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ الْأَنْصَارِيَّ النَّقِيبَ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزَا مَعَ مُعَاوِيَةَ أَرْضَ الرُّومِ فَنَظَرَ إِلَى النَّاسِ وَهُمْ يَتَبَايَعُونَ كِسَرَ الذَّهَبِ بِالدَّنَانِيرِ وَكِسَرَ الْفِضَّةِ بِالدَّرَاهِمِ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَأْكُلُونَ الرِّبَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَا تَبْتَاعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ لَا زِيَادَةَ بَيْنَهُمَا وَلَا نَظِرَةً فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ يَا أَبَا الْوَلِيدِ لَا أَرَى الرِّبَا فِي هَذَا إِلَّا مَا كَانَ مِنْ نَظِرَةٍ فَقَالَ عُبَادَةُ أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ رَأْيِكَ لَئِنْ أَخْرَجَنِي اللَّهُ لَا أُسَاكِنُكَ بِأَرْضٍ لَكَ عَلَيَّ فِيهَا إِمْرَةٌ فَلَمَّا قَفَلَ لَحِقَ بِالْمَدِينَةِ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ مَا أَقْدَمَكَ يَا أَبَا الْوَلِيدِ فَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَّةَ وَمَا قَالَ مِنْ مُسَاكَنَتِهِ فَقَالَ ارْجِعْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ إِلَى أَرْضِكَ فَقَبَحَ اللَّهُ أَرْضًا لَسْتَ فِيهَا وَأَمْثَالُكَ وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ لَا إِمْرَةَ لَكَ عَلَيْهِ وَاحْمِلْ النَّاسَ عَلَى مَا قَالَ فَإِنَّهُ هُوَ الْأَمْرُ(٢٣).

ثم ذكر الشيخ أن عبادة روى عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أحاديث، وذكر أنه ينتقي منها حديثا كلنا في حاجة إلى معرفته والعمل به.

وهو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب، وفي رواية: لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب خلف الإمام.

ثم تحدث الشيخ عن زوج عبادة وهي أم حرام بنت ملحان رضي الله تعالى عنها وأرضاها، وأم حرام لا يعلم لها اسم وإنما كنيت بأم حرام لأن من أجدادها حرام فكنيت بأم حرام.

أقول: أم حرام بنت ملحان بن خالد بن زيد بن حرام بن جندب الأنصارية، خالة

أنس بن مالك قال أبو عمر: لا أقف لها على اسم صحيح(٢٤)، وذكر ابن حجر أنها يقال إنها الرميصاء أو الغميصاء، ورده وصحح أن ذلك وصف أختها أم سليم(٢٥).

ثم ذكر الشيخ أنه صلى الله عليه وسلم أتى مرة إلى قباء وقال عند أم حرام أي نام نومة النهار واستيقظ وهو يضحك، فقالت له رضي الله تعالى عنها: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي يضحكك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم إن أقواماً من أمتي يركبون ثبج هذا البحر ملوكا على الأسرّة أو كالملوك على الأسرّة، فقالت يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت منهم، شهد لها رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بأنها ستستُشهد، ثم نام مرة أخرى واستيقظ وقال مقالته الأولى، قالت يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم فأخبرها أنها مع الجماعة الأولين فلما كان عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وأرضاه جعل الأساطيل وغزا البحر الأبيض وتوجه إلى قبرص يريد أن يدعو الناس إلى لا إله إلا الله، خرج عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه ومع زوجه أم حرام بنت ملحان، فركبت البحر أو أرادت أن تخرج من البحر فانقلبت من دابتها واستشهدت، كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه(٢٦).

أقول: الحديث أخرجه البخاري ـ وهذا لفظه ـ ومسلم في صحيحيهما من طريق مالك وهو في موطأ مالك عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ وَكَانَتْ أُمُّ حَرَامٍ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَطْعَمَتْهُ وَجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ(٢٧)، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ قَالَتْ فَقُلْتُ وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ شَكَّ إِسْحَاقُ قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ فَقُلْتُ وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا قَالَ فِي الْأَوَّلِ قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ أَنْتِ مِنْ الْأَوَّلِينَ فَرَكِبَتْ الْبَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا حِينَ خَرَجَتْ مِنْ الْبَحْرِ فَهَلَكَتْ (٢٨).

وقال الحافظ ابن حجر: " والثبج بفتح المثلثة والموحدة ثم جيم ظهر الشيء. . والمراد أنهم يركبون السفن التي تجري على ظهره.

وقال: " قوله أو قال مثل الملوك على الأسرّة، وهذا الشك من إسحاق وهو ابن عبد الله بن أبي طلحة يشعر بأنه كان يحافظ على تأدية الحديث بلفظه ولا يتوسع في تأديته بالمعنى كما توسع غيره. .

قال ابن عبد البر: أراد والله أعلم أنه رأى الغزاة في البحر من أمته ملوكا على الأسرة في الجنة ورؤياه وحي.

وقال عياض: هذا محتمل ويحتمل أيضا أن يكون خبرا عن حالهم في الغزو من سعة أحوالهم وقوام أمرهم وكثرة عددهم وجودة عددهم فكأنهم الملوك على الأسرة..

وفي هذا الاحتمال بُعدٌ، والأول أظهر، لكن الإتيان بالتمثيل في معظم طرقه يدل على أنه رأى ما يؤول إليه أمرهم لا أنهم نالوا ذلك في تلك الحالة أو موقع التشبيه أنهم فيما هم من النعيم الذي أثيبوا به على جهادهم مثل ملوك الدنيا على أسرتهم والتشبيه بالمحسوسات أبلغ في نفس السامع "(٢٩).

ثم تحدث شيخنا عن حالة المرأة في الإسلام وأنها وإن كان الإسلام دعاها إلى أن تصون نفسها وإلى أن تحفظ

عرضها وإلى أن تأخذ عليها جلبابها وإلى أن لا تبدي زينتها فإنه لم يمنعها من المكارم والفضائل.

وقال: " فإن الجهاد في سبيل الله تعالى لا تُمنع منه المرأة، بل تخرج وتقاتل تداوي الجرحى تحمل الماء تسقي المرضى لا بأس بذلك، لكن عليها أن تتقي الله ولا تتبرج "(٣٠).

ثم تكلم شيخنا عن مسألة الحجاب، فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عام حجة الوداع ومعه زوجاته فتقول عائشة رضي الله تعالى عنها: فكنا إذا لقينا الركبان سدلت إحدانا جلبابها على وجهها.

أقول : الحديث رواه أبو داود وابن ماجه وأحمد وإسحاق وابن الجارود وابن خزيمة والدارقطنيوالبيقهي كلهم من طرق عن يزيد بن أبي زياد عن مجاهد عن عائشة رضي الله عنها قالت كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها فإذا جاوزونا كشفناه(٣١).

ويزيد بن أبي زياد ضعيف(٣٢)، لذا قال ابن خزيمة حين روى هذا الخبر: وفي القلب منه، وقال ابن حجر في فتح الباري: وفي إسناده ضعف(٣٣).

قلت: وقد اختلف عليه أيضا، فرواه عنه جماعة كما سبق، وخالفهم سفيان بن عيينة فرواه عنه عن مجاهد عن أم سلمة رضي الله عنها: أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والدارقطني في سننه(٣٤).

فإن الجهاد في سبيل الله تعالى لا تُمنع منه المرأة، بل تخرج وتقاتل تداوي الجرحى تحمل الماء تسقي المرضى لا باس بذلك، لكن عليها أن تتقي الله ولا تتبرج .

وروى مالك في الموطأ عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر أنها قالت كنا نخمر وجوهنا ونحن محرمات ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق(٣٥) وهذا إسناد صحيح وهو يوضح اهتمام الصحابيات بالاحتجاب حتى في الإحرام.

ثم نبه الشيخ على أن عائشة رضي الله تعالى عنها وهي أم المؤمنين هي وبقية زوجات رسول الله حرمهن الله جل وعلا على كل مسلم تأخذ جلبابها خمارها الذي فوق رأسها وترخيه على وجهها، لئلا يراها أبناؤها الذين حرمها الله تعالى عليهم وهم من الصحابة الذين هم خير القرون.

وتكلم عن أهمية الحجاب، ومما قاله في ذلك: " هكذا علمهن الإسلام هكذا كنا صالحات تقيات غير متبرجات لا تخرج لا تتبرج لا تبدي زينتها ولو خرجت إلى المساجد لتصلي ولو خرجت للحج والعمرة يجب عليها أن تتقي الله يجب عليها أن تأخذ عليها زينتها".

ثم قال: "حرام على المرأة وإن كانت تعين زوجها في أي عمل من الأعمال حرام عليها أن تذهب إلى أي موضع وقد بدا نحرها أو بدا صدرها أو بدا رأسها أو بدا ساقها فإن هذا أمر حرمه الله تبارك تعالى على كل مسلمة ".

إلى أن قال: " أيجوز للمرأة في عصر الحضارة والمدنية أن تذهب إلى البنك أن تختلط بالرجال أن تبدي زينتها، ساقها حاسر، أهذه امرأة متأدبة بأدب الإسلام التي أمر الله جلّ وعلا النسوة أن يكن عليه؟ "(٣٦).

ثم بين أن أم حرام بنت ملحان وغيرها من الصحابة رضوان الله عليهم خرجوا من جزيرة العرب ليدعوا الناس إلى كتاب الله وإلى ما جاء به رسول الله.

وقال: إنهم وهبوا العالم ما لم يوهب من لدن أحد أبداً، وهبوه ما يقرب إلى الله، إنهم وهبوا العالم السعادة الأبدية(٣٧).

ثم ذكر عقبة بن عامر أو ابن نافع فاتح إفريقية.

قلت: هوعقبة بن نافع الأمير المجاهد المشهور فاتح أفريقيا الجليل هو عقبة بن نافع بن عبد القيس الفهري القرشي، كان ابن خالة عمرو بن

العاص، ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الهجرة بسنة وقيل قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بسنة، والأول هو الصحيح، ذكره البخاري في تاريخه الكبير وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل وذكرا أنه سمع ابن عمر رضي الله عنهما، وذكره ابن حبان في الثقات وقال كان مستجاب الدعوة له آثار في العبادة ومقامات في الزهادة(٣٨).

ثم قال: وهكذا وصل صحابة النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً إلى قبرص وتكريت وفرنسا وبلاد الروم والفرس، والعالم مدين لهؤلاء القوم الذي حملوا القرآن ونشروه ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ويدعوهم لعبادة الله وحده.

ثم انتقل في الحديث إلى حرام بن ملحان رضي الله عنه أخ لأم حرام، وقال: وحرام أخوها شاب من شباب المدينة من أهل القرآن، وممن كانوا يصومون النهار ويحتطبون ويبيعون حطبهم، فإذا كان الليل قاموا يتدارسون القرآن في مسجد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ثم ذهبوا إلى بئر غرس(٣٩) وإلى غيرها من الآبار أخذوا الماء وسقوا به الفقراء والمساكين ومن يحتاج إلى ماء(٤٠).

وذكر قصته في غزوة بئر معونة فقال: "جاء رجل من بني كلاب يسمى عامر بن أبي الطفيل الكلابي يفاوض رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في أمر الإسلام، فعرض النبي عليه الإسلام، فأبى أن يتلقى الإسلام لأول وهلة، وطلب من النبي عليه الصلاة والسلام أن يبعث إليه وإلى قومه من يعلمهم القرآن، فبعث النبي هؤلاء الشباب أربعين شاب أو سبعين شاب، فذهبوا إلى عامر الكلابي ناحية نجد وبقرب حرة بني سليم، فلما وافوا القوم قال لهم حرام بن ملحان انتظروا أمهلوني أذهب إلى القوم فإن وجدت مأمناً عرضت عليهم أمر رسول الله وإن قتلوني ففروا وعودوا إلى رسول الله، فوافى حرام بن ملحان رضي الله عنه القوم وقال لهم أنا رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم أمنوني لأبلغكم رسالة رسول الله صلوات الله وسلامه، فقام رجل منهم وطعن حرام بن ملحان رضي الله عنه، فأخذ حرام شيئاً من دمه ووضعه على رأسه ووجهه وقال: فزت ورب الكعبة.

ولما بلغ النبي الخبر ظل صلى الله عليه وسلم يدعو شهراً على رعل وذكوان وعصية عصت الله ورسوله، يقنت في صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء، لأن القنوت مشروع في النوازل(٤١) والمصائب، وكان النبي عليه الصلاة والسلام لا يقنت إلا ذا دعا لقوم أو عليهم، هذا في الفريضة، أما في الوتر فكان عليه الصلاة والسلام يعلم الحسن بن علي رضي الله عنه في حديث حسن مقبول صحيح دعاء القنوت اللهم اهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت وتولنا فيمن توليت وبارك لنا فيما أعطيت".

أقول: حرام بن ملحان بن خالد بن زيد بن حرام النجاري الأنصاري، خال أنس بن مالك، شهد بدرا وأحدا وبئر معونة وقتل يومئذ شهيدا في صفر على رأس ستة وثلاثين شهرا من الهجرة(٤٢).

وهذه الواقعة تعرف بغزوة بئر معونة وبسَرِيَّة القُرَّاء، وقد جاء ذكرها في أحاديث عدة(٤٣)، منها حديث أنس بن مالك ﷺ قال دعا رسول الله ﷺ على الذين قتلوا أصحاب بئر مَعُونة ثلاثين غداة على رعل وذكوان وعصية عصت الله ورسوله الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ واللفظ له ـ، ومسلم في صحيحه، وأحمد، وأبو عوانة كلهم من طريق مالك عن إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عنه به(٤٤).

وبيانها أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر القيسي العامري الكلابي لمعروف بمُلاعب الأسِنَّة(٤٥) قدم المدينة على رسول الله ﷺ في صفر سنة أربع، على رأس أربعة أشهر من غزوة أحد، فعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام ودعاه إليه، فلم يُسلم ولم يبعد

من الإسلام، وقال: يا محمد، لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إني أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك، فبعث رسول الله ﷺ سبعين رجلا(٤٦) من أصحابه من خيار المسلمين، وفي رواية صحيح مسلم أنهم كانوا سبعين رجلا من الأنصار يقال لهم القراء، يقرؤن القرآن ويتدارسون بالليليتعلمون وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء.

فساروا حتى نزلوا ببئر معونة ـ وهي بين أرض بني عامر وحرة بني سُليم، وهي إلى حرة بني سليم أقرب ـ وبعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل ـ وهو ابن أخي أبي براء عامر بن مالك ـ فلما أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا عليه فقتله، ثم استصرخ عليهم بني عامر، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه وقالوا: لن نخفر أبا براء وقد عقد لهم عقدا وجوارا، فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُليم من عُصية ورِعْل وذكوان فأجابوه إلى ذلك فخرجوا حتى غشوا القوم فأحاطوا بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ثم قاتلوهم حتى قتلوا من عند آخرهم ـ يرحمهم الله ـ غير كعب بن زيد أخا بني دينار بن النجار فإنهم تركوه وبه رمق الموت، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيدا رحمه الله، وغير عمرو بن أمية ورجل من الأنصار من بنى عمرو بن عوف لم يكونا مع القوم، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم على العسكر فقالا: إن لهذا الطير لشأنا فأقبلا لينظرا فإذا القوم في دمائهم وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة فقال الأنصاري لعمرو بن أمية ماذا ترى؟، قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره، فقال الأنصاري: لكني ما كنت لأرغب عن موطنٍ قُتل فيه هؤلاء، ثم تقدم فقاتل حتى قُتل، ورجع عمرو بن أمية حتى قدم على رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر(٤٧).

وكلمة حرام بن ملحان رضي الله عنه فزت ورب الكعبة من أجلّ صور الثبات عند الممات، ومن أجلى دلائل كمال محبة الصحابة لله تعالى ورسوخ معرفتهم بحقيقة الفوز وقوة إيمانهم بالآخرة وزهدهم في الدنيا (٤٨).

وحديث الحسن بن علي رضي الله عنهما في القنوت رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والدارمي في سننهم وأحمد وأبو يعلى والبزار في مسانيدهم وابن خزيمة في صحيحه والحاكم في المستدرك وابن أبي شيبة في المصنف والطبراني في المعجم الكبير وأبو نعيم في الحلية كلهم من طرق عن بريد عن أبي الحوراء ربيعة بن شيبان السعدي عن الحسن بن علي عنه به نحوه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن، لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث أبي الحوراء(٤٩)، قلت: والحديث بمجموع طرقه صحيح، والله أعلم.

ثم قال الشيخ: "وحرام اسم يطلق في الإسلام على جملة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يقطنون في المدينة، وهم: حرام بن ملحان، وحرام بن عوف البلوي(٥٠)، وحرام بن أبي بن كعب، وبمناسبة أننا في مسجد قباء فإن حرام بن أبي بن كعب هو الذي دخل مسجد قباء ليصلي خلف معاذ بن جبل رضي الله عنه، وتعلمون أن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان يصلي مع النبي العشاء ثم يأتي إلى مسجد قباء ويصلي بأهل قباء، وإذا بمعاذ بن جبل رضي الله عنه

"وحرام اسم يطلق في الإسلام على جملة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يقطنون في المدينة، وهم: حرام بن ملحان، وحرام بن عوف البلوي، وحرام بن أبي بن كعب.

يطيل صلاته، فما كان من حرام بن أبي بن كعب إلا أن قطع صلاته وصلى وحده، ثم ذهب وانطلق لأنه كان قد عقل بعيره عند باب مسجد قباء، فلما انتهى معاذ، وحُدِّثَ بما جرى من هذا الرجل قال إنه منافق، فلم يرض حرام بن أبي بن كعب أن يوصف بأنه منافق، فأتى إلى النبي عليه الصلاة والسلام يشكو معاذاً، فدعا النبي معاذاً وقال له: أتريد أن تكون فتاناً أتريد أن تكون فتاناً أتريد أن تكون فتاناً من أم قوماً فليخفف فإن فيهم الصغير والضعيف وذا الحاجة، أو كما قال صلى الله عليه وسلم، فحرام بن أبي بن كعب هو الذي جرت له هذه القصة في هذا المسجد المبارك ـ مسجد قباء ـ.

وفي القصة دلالة على جواز صلاة المفترض خلف المتنفل، معاذ صلى مع النبي العشاء وأتى ليصلي بالقوم، القوم يصلون الفريضة ومعاذ رضي الله عنه يصلي نافلة، النية قد اختلفت، ومع ذلك أقرهم النبي عليه الصلاة والسلام.

ويدل على جواز اختلاف النيات ما نبه عليه العلماء والفقهاء من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى في إحدى صور صلاة الخوف في قوم ركعتين وسلم، ثم قام وصلى في قوم آخرين ركعتين، فلو كان إعادة الصلاة أو اختلاف النيات أمرا غير جائز لما كان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد فعله "(٥١).

أقول: استطرد شيخنا هنا من ذكر حرام بن ملحان إلى ذكر بعض من يسمى بهذا الاسم من الصحابة وتحدث عن أحدهم بمناسبة أن المحاضرة في قباء وهو الذي انفرد عن الجماعة وذكر ما يستفاد من الحديث الذي وردت فيه قصة ذلك الرجل.

وقد اختلف في اسم الصحابي الذي انفرد عن معاذ في صلاته على عدة أقوال محتملة وأقربها أن يكون صاحب القصة حزم بن أبي كعب السلمي الذي تصحف على بعض العلماء إلى حرام فظنه بعضهم حرام بن ملحان ووقع في بعض المواضع من الفتح:"حرام بن أبي بن كعب"، وليس كذلك ، والله أعلم(٥٢).

وأماكون هذه الواقعة في مسجد قباء، مع أن معاذا رضي الله عنه كان يؤم قومه كما سبق في الحديث وهم بنو سلِمة كما هو صريح بعض روايات الحديث مثل رواية الشافعي قال أخبرنا سفيان بن عيينة أنه سمع عمرو بن دينار يقول سمعت جابر بن عبد الله يقول: كان معاذ بن جبل يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم العشاء أو العتمة ثم يرجع فيصليها بقومه في بني سلمة ...، ورواه البيهقي في سننه الكبرى من طريق الشافعي والحميدي عن سفيان به نحوه(٥٣).

والقولبإنها حصلت في قباء بسبب حديث آخر جمعا بينه وبين هذا الحديث واعتبارهما خبرا عن قصة واحدة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أَبي مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلَانٍ مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَوْعِظَةٍ أَشَدَّ غَضَبًا مِنْهُ يَوْمَئِذٍ ثُمَّ قَالَ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ(٥٤).

وأما الحافظ ابن حجر ففرق بينها فقال في شرحه لهذا الحديث : " وأما قصة معاذ فمغايرة لحديث الباب لأن قصة معاذ كانت في العشاء وكان الإمام فيها معاذا وكانت في مسجد بني سلمة وهذه كانت في الصبح وكانت في مسجد قباء "(٥٥)، وبالله التوفيق.

"وأخيرا ختم الشيخ المحاضرة بالتنفير من كراهة أصحاب النبي صلوات الله وسلامه عليه بأنه دليل على ما في القلب من النفاق، ودليل على مدى بعد القلب عن الله تبارك وتعالى."

ووضح خطورة ذلك لأننا إذا كنا نشتم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم أو نذمهم أو نكفرهم أو نبدعهم فإن معنى ذلك أن قرآننا وديننا إنما جاء عن طريق أقوام ليسوا بثقات ومرضين لله تبارك وتعالى، وبالتالي يهدم الدين.

ودعا الله فقال " أتوسل إلى الله جل وعلا بحب أصحاب رسول الله، وبحب أنصار رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، أن يحشرنا في زمرتهم"(٥٦).

إذا كنا نشتم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم أو نذمهم أو نكفرهم أو نبدعهم فإن معنى ذلك أن قرآننا وديننا إنما جاء عن طريق أقوام ليسوا بثقات ومرضين لله تبارك وتعالى، وبالتالي يهدم الدين.

جزى الله شيخنا على هذه المحاضرة التي كانت محاضرة ملآى بالفوائد الفقهية العملية وبالطرائف التاريخية الشيقة وهي مترعة بحب الصحابة رضي الله عنهم، ونرجو أن تكون مقبولة عند الله تعالى وأن يثيبه عليها إنه جواد كريم، وبالله التوفيق.

الهوامش

(١) انظر مقدمة ابن الصلاح /٢٢٥، فتح المغيث ١٠٠/٣، الشذا الفياح ٩٣/٣- ١٠٩

(٢) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٤٤

(٣) انظر تاريخ المدينة لابن شبة ٤٠/١، معجم البلدان ٤ / ٣٠٢، وفاء الوفاء ٥١٨/٣

(٤) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٤٥

(٥) كان لحارثة بن ثعلبة ولدان أحدهما أوس و الآخر خزرج و أمهما قيلة بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة، تاريخ ابن خلدون٣٤٢/٢

(٦) سيرة ابن هشام ١٩/٣- ٢٢، عيون الأثر١ /٣١١، البداية والنهاية ٣ / ١٩٨

(٧) سنن النسائي (٦٩٩) ، سنن ابن ماجه (١٤١٢)، المسند٤٨٧/٣، التاريخ الكبير ٩٦/١ ، المستدرك ١٣/٣ ، المعجم الكبير ٧٤/٦ ، ٧٥ ، تهذيب الكمال ٣٠٥/٢٥.

(٨) تخريج الإحياء ٢٦٠/١.

(٩) الثقات ٣٧٢/٧، وانظر الجرح والتعديل ٢٦٧/٧، تهذيب التهذيب ١٧٧/٩، التقريب /٥٦١.

(١٠) التاريخ الكبير ٣٧٨/٨ وابن شبه في تاريخ المدينة ٤١/١.

(١١) جامع الترمذي (٣٢٤) ، سنن ابن ماجه (١٤١١)، المستدرك ٦٦٢/١، الأحاديث المختارة ٢٨١/٤، المصنف ١٤٩/٢، التاريخ الكبير ٤٧/٢ ، مسند أبي يعلى ١٣/ ١١٧، الآحاد والمثاني ٤/ ٤٣، سنن البيهقي الكبرى٢٤٨/٥، المعجم الكبير ٢١٠/١، تهذيب الكمال ٥٢٨/٩.

(١٢) تهذيب الكمال ٥٢٨/٩، ميزان الاعتدال ١٤٣/٣.

(١٣) توجيه النظر ٥١٦/١.

(١٤) التقريب /٢٢١.

(١٥) صحيح ابن حبان ٥٠٧/٤ برقم ١٦٢٧.

(١٦) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٤٥

(١٧) الطبقات الكبرى ٣ / ٥٤٦، تاريخ دمشق ١٧٥/٢٦

(١٨) الطبقات الكبرى ٤٧/٣، الإصابة في تمييز الصحابة ٣٦٩/٧، تقريب التهذيب /٤٦٢

(١٩) سبق ذكر هذا الحديث قريبا

(٢٠) الطبقات الكبرى ٢ / ٣٥٦، تاريخ دمشق ١٩٤/٢٦

(٢١) قرأ على جماعة من الأكابر الجلة وحصل له من الجميع الإجازة منهم: شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي توفي سنة إحدى وتسعين بعد التسعمائة، انظر ترجمته والأبيات المذكورة في النور السافر/ ١٩٤

(٢٢) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٤٧

(٢٣) صحيح مسلم ١٥٨٧، سنن أبي داود ٣٣٤٩، سنن النسائي ٤٥٦٠، جامع الترمذي ١٢٤٠، سنن ابن ماجه ١٨، مسند الشاميين ٢١٨/١

(٢٤) الاستيعاب ٦٢٦/١

(٢٥) الإصابة في تمييز الصحابة ١٨٩/٨، ٢٢٧

(٢٦) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٥٣

(٢٧) ذهب بعض العلماء ومنهم النووي إلى أنها كانت محرما له صلى الله عليه وسلم وهو قول ابن عبد البر، وقد نقل عن ابن وهب قوله أم حرام إحدى خالات النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، قيل إنما كانت خالة لأبيه أو جده عبد المطلب، وقيل كانت أم سليم أخت آمنة بنت وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاعة، وذهب بعض العلماء إلى هذا من خصائصه صلى الله عليه وسلم فقالوا كان النبي صلى الله عليه وسلم معصوما يملك إربه عن زوجته فكيف عن غيرها مما هو المنزه عنه وهو المبرأ عن كل فعل قبيح وقول رفث فيكون ذلك من خصائصه، وهذا قول ابن الملقن والسيوطي، واستحسنه الحافظ ابن حجر، انظر فتح الباري ٢٠٣/٩، ١١ /٧٨ - ٧٩، سبل الهدى والرشاد للصالحي٤٤٤/١٠- ٤٤٦، الخصائص الكبرى للسيوطي ٤٣١/٢

(٢٨) صحيح البخاري ٢٧٨٩، صحيح مسلم ١٩١٢، موطأ مالك ٤٦٤/٢

(٢٩) فتح الباري ١١/ ٧٤

(٣٠) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٥١

(٣١) انظر سنن أبي داود (المناسك – في المحرمة تغطي وجهها – ١٨٣٣) ، سنن ابن ماجه (المناسك – المحرمة تسدل الثوب على وجهها – ٢٩٣٥) ، مسند أحمد ٣٠/٦ ، مسند إسحاق بن راهويه ٦١٥/٣ ، المنتقى من السنن المسندة / ١١١ ، صحيح ابن خزيمة ٤/ ٢٠٣ ، سنن الدارقطني ٢٩٤/٢ ، ٢٩٥ ، سنن البيهقي الكبرى ٤٨/٥

(٣٢) انظر تاريخ ابن معين رواية الدارمي/٩٣ ، المعرفة والتاريخ ٨١/٣ ، الجرح والتعديل ٢٦٥/٩ ، ضعفاء العقيلي ٣٧٩/٤ ، المجروحين ٩٩/٣ ، الكامل ٢٧٥/٧ ، تاريخ أسماء الثقات لابن شاهين /٢٥٦ ، الطبقات الكبرى ٣٤٠/٦ ، تهذيب التهذيب ٣٨٨/١١ ، تقريب التهذيب /٦٠١

(٣٣) فتح الباري ٣/ ٤٠٦

(٣٤) لمعجم الكبير ٢٨٠/٢٣ ، ٣٩١ ، سنن الدارقطني ٢/ ٢٩٥

(٣٥) الموطأ ٣٢٨/١

(٣٦) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٥٣

(٣٧) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٥٤

(٣٨) التاريخ الكبير ٤٣٤/٦ ، الجرح والتعديل ٣١٧/٦ ، الثقات ٢٢٧/٥ ، وانظر سير أعلام النبلاء ٥٣٢/٣ ، بغية الرواد ٧٦/١ ، الخلاصة النقية /٥ ، الأعلام للزركلي ٣٤١/٤

(٣٩) بئر غرس بفتح الغين وقيل بضمها بئر معروفة بقباء قريبا من مَنازِل بَنِي النَّضير، وكانت لسعد بن خيثمة الأنصاري، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشرب منها يستطيب ماءها ويبارك فيه وروي في بعض الأحاديث أنه أثنى عليها، وبمائها غُسِّلَ بعد وفاته، انظر معجم البلدان ١٩٣/٤، النهاية في غريب الأثر ٦٦٣/٣، معجم ما استعجم ٣ /٩٩٤، تاج العروس /٤٠٤١، سنن ابن ماجه ١٤٦٨، تخريج أحاديث الإحياء ١ / ٢١٢، الطبقات الكبرى ١/ ٥٠٣ - ٥٠٥، تهذيب الكمال ٦ /٣٧٦، الثقات لابن حبان ٥ / ٥٠، الكامل في الضعفاء ٢ / ٣٥١، مختصر تاريخ دمشق ٢٩٩/١- ٣٠٠، البداية والنهاية ٢٦٢/٥- ٢٦٢، فيض القدير ٦ /٢٨٦

(٤٠) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٥٥

(٤١) النازلة: الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس: القاموس المحيط /٢٧٣

(٤٢) الطبقات الكبرى ٣ /٥١٤، الإصابة في تمييز الصحابة ٢ / ٤٧

(٤٣) انظر معرفة علوم الحديث للحاكم /٩٢

(٤٤) صحيح البخاري (المغازي – غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة – ٤٠٩٥)، صحيح مسلم (المساجد ومواضع الصلاة استحباب القنوت في جميع الصلاة ـ ٦٧٧) مسند أحمد ٢١٥/٣، مسند أبي عوانة ٢/ ٢٨٦

(٤٥) سمي بذلك لقول أوس بن حجر فيه شعرا:
فلاعب أطرافَ الأسنة عامرٌ
فراح له حظ الكتيبة أجمع
انظر الأغاني ٣٥٠/١٥

(٤٦) كما في الصحيح، وأما ابن إسحاق فذكر أنهم كانوا أربعين

(٤٧) انظر مصنف عبد الرزاق ٤٤٦/٢، الطبقات الكبرى ٥٣/٢- ٥٤، السيرة النبوية لابن هشام ١٣٧/٤- ١٣٨، الثقات لابن حبان ٢٣٧/١- ٢٣٩، الاستيعاب ١٤٥٠/٤، معجم البلدان ١٥٩/٥، الاكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله والخلفاء ١٠٨/٢، مجمع الزوائد ١٨٢/٦، فتح الباري ٥٤٤/٦، ٣٧٩/٧- ٣٨٠، ٣٩١- ٣٩٢، الخصائص الكبرى ٢٩٤/٢، السيرة الحلبية ١٧٠/٣

(٤٨) انظر المدهش لابن الجوزي /٣٢٣، الثبات عند الممات له / ١٣٠

(٤٩) انظر سنن أبي داود (الصلاة – القنوت في الوتر- ١٤٢٥)، جامع الترمذي (الصلاة – ما جاء في القنوت في الوتر - ٤٦٤)، سنن النسائي (قيام الليل وتطوع النهار – الدعاء في الوتر – ١٧٤٥)، سنن ابن ماجه (إقامة الصلاة والسنة فيها – ما جاء في القنوت في الوتر - ١١٧٨)، مسند أحمد ١٩٩/١، ٢٠٠، صحيح ابن خزيمة ١٥١/٢، المستدرك ١٨٨/٣، مصنف ابن أبي شيبة ٩٥/٢، سنن الدارمي ٤٥٢/١، مسند أبي يعلى ١٥٦/١٢، مسند البزار ١٧٦/٤، المعجم الكبير ٧٤/٣، ٧٥، حلية الأولياء ٢٦٤/٨، ٣٢١/٩ مصححا ما ببعض المصادر المذكورة من أخطاء مطبعية

(٥٠) رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم شهد فتح مصر قاله ابن ماكولا عن ابن يونس وقال: ما علمت له رواية، انظر أسد الغابة ١/ ٢٥٠

(٥١) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٥٧

(٥٢) فتح الباري ١٩٣/٢

(٥٣) مسند الشافعي ١/ ٥٦، سنن البيهقي الكبرى ٣ / ٨٥ ، ١١٢

(٥٤) صحيح البخاري ٧٠٢ ، صحيح مسلم ٤٦٦

(٥٥) فتح الباري ١٩٨/٢

(٥٦) انظر لمحات عن المدينة النبوية ص ١٥٧

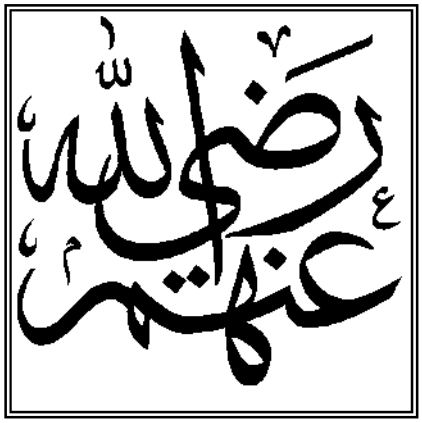

زجاجة المصابيح ـ دراسة موضوعية

بقلم: محبوب فروغ أحمد القاسمي *

زجاجة المصابيح من أهم الكتب الحديثية التي ألفت في شبه القارة الهندية بصفة خاصة، فهي من المآثر الهندية التي لا يستهان بها، حذا مؤلفها حذو الخطيب التبريزي في مشكاة "المصابيح" فما أدى إلى الاقتباس من الآية الكريمة: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾ (النور: ٣٥)

لما كان في كتاب مشكاة المصابيح سلك التبريزي والبغوي معاً مسلك السادات الشافعية، وانحازا إليه بالتالي طبعيًا إلى حد كبير، فاته كثير من الأحاديث التي تمسك بها الآخرون من أهل الفقه والفكر، ولم يستطع أن يستوعب ما استدل به الأحناف بصفة خاصة، وهذا ليس بمستنكر هو الآخر؛ فإن كل من يعتنق فكرًا لم يزل ينحاز إليه في غالب الأحايين، ولكنه فتح ذلك خللا لا يكاد أن ينسد من دون كد وجهد بالغين، فوُسمت الفكرة الفقهية الحنفية المنسجمة مع الوجهة القرآنية والحديثية معًا تمامًا بوصمات يعود وبالها على من قالها، فمن المفتريات التي أثيرت ضد الأحناف قلة الحديث في باب الاستنباط، وضعف التمسك بالنصوص، وعض الرأي بالنواجذ إزاء الحديث المقبول، فأنشأ ذلك كله أن فقد اعتماد طائفة تجهل الحق والحقيقة على ما سلكه الأحناف ووثوقها عليه، وهذا أمر خطير قد شعر بتفاقمها جهابذةُ العلم منذ الزمن القديم كما أحسوا بالحاجة الشديدة إلى جمع الأحاديث على منوال الأحناف بصفة مخصوصة، وإلى تأليف كتاب يتوفر فيه ما يوافقه، لا يجترئ أحد أن يقول: لم تُبذل الجهود بشأن ذلك قط، ولم يتَصدّ لهذا أحد؛ لأن عددًا كبيرًا من فحول العلماء قاموا بالمساعي السامية تجاه الأحاديث النبوية الشريفة تاليفاً وتدريسًا، جرحًا وتعديلاً، بل قلّ علم من علوم الحديث إلا وقد كتب فيه عباقرة أوانه وصيارفة زمانه، ونجحوا في ذلك إلى حد كبير، وكسبوا القبول والإقبال لا يستهان بهما، فمنها: كتاب الآثار، والموطا للإمام محمد، وشرح معاني الآثار للطحاوي، وآثار السنن للنيموي، ومشكاة الآثار للديوبندي، وإعلاء السنن للتهانوي إلى غيرها من الكتب القيمة، هذا كله يعكس مدى اعتناء الحنفية بالحديث والتضلع في الفقه عكسًا صحيحًا، كما يعيد إليه الاعتبار والاعتماد، ويظهر أن السادات الأحناف هم الآخرون يستندون في فقههم ومذهبهم إلى الأحاديث، وأنهم يقدمون الحديث ولو كان ضعيفاً، ولكن الحقيقة التي لا تنكر أن كل ذلك كالصخرة في جنب الجبل الطويل بالنسبة إلى مشكاة المصابيح وحدها، فاضطر ذلك مؤلف الزجاجة إلى استدراك كتاب التبريزي، فاختار في كتابه لمنهجه ما اختار صاحب المشكاة من الوضع والترتيب، والتبويب والتفصيل، وزاد في بداية الباب وأثناء سرد الأحاديث مارآه أن يستدرك كما زاد إلى إحالة الحديث كتبًا، تم تأليفها بأيدي الأحناف بصفة أخص.

الباعث على التأليف ومحدثه الجليل

إن الأمر السارّ المشير للانتباه أن تأليف الكتاب تم بأيدي عالم كبير متقن للموادّ الدراسية وهو هندي مولدًا وموطنًا، ومدفنًا

* أستاذ الحديث والفقه/الجامعة الحسنية/ كايم كلم/كيرلا/الهند.

أعني به فخر المحدثين أبا الحسنات السيد عبد الله شان المنتمي إلى الطائفة النقشبندية في التصوف والسلوك، والمنتسب إلى الأسرة المجددية، محدث دكن، ابن السيد الشيخ مظفر حسين الحيدرآبادي، وهو في نفس الوقت مدرس ناجح، وخطيب بارع، ومفسر خبير، قد انتشر صيته في التفسير طول الولاية وعرضها، وكتابه "تفسير سورة يوسف" قد نال في الأوساط العلمية القبول والاعتماد، وكسب ود الناس وحبهم كما يزيده شأنا انتماؤه إلى الطريقة النقشبندية المجددية عملاً وسلوكاً، فأصبح مصداقا حقا لحديث ذكره على المتقي في كنز العمال عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما: "خير جلسائكم من يذكركم الله رؤيته وزاد في علمكم منطقه وفكركم الآخرة عمله". (كنز العمال" (٢٣٧٦٤)

ولكن سرعان ما ألحق "محدثا" باسمه هوكتابه "زجاجة المصابيح" على طراز مشكاة المصابيح، والباعث علي تأليف هو شغفه بالحديث الذي لا يعرف مداه وسره إلا من ذاق حلاوته وطعمه، والثاني: الشعور بالحاجة الشديدة لمثل هذا الكتاب كخدمة للأحناف، ولم تتحقق أمنية هذه حتى رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما يرى النائم وقال: سلامًا، فضمه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى صدره وعانقه، فأنار كل ما كان يختلج في صدره منذ مدة طويلة، وأصبحت هذه الرويا الصالحة باعثة قوية على تحقيق المأمول وتيسير العسير، وشرح الصدر على العمل الجليل، فلم يلبث إلى أن صمم العزم بالتأليف، وشد الميزر عن الساق، وبالغ في التنقير والتنقيح ما لا نظير له وواصل ليل نهار، فاستطاع أن كشف الغطاء عن من يقدح في قول أبي حنيفة النعمان، وعن من يطعن في مسلكه النجيح المختار، يقول المؤلف في مقدمة كتابه:

"ما وضعت فيه حديثًا إلا صليت على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالحمد لله على ذلك".

فكأنه ذكّر صنيع الإمام البخاري في تأليف صحيحه.

بالمناسبة نتأكد أن هذا يرجع فضله كله إلى الفكرة التي اكتسب فيضها وهي الفكرة التي تتصل إلى مسند الهند الشاه ولي الله المحدث الدهلوي، فكم من غليل وعليل استقى من هذا المنهل الصافي، وروي، وكم من وارد وصادر أخذ من هذا المورد وشبع، قد عم نفع هذا الفكر وقاد هو في الآخر الأمة الهندية بصفة خاصة في كل مكان وزبان، ومَن أخذ بالعروة الوثقى هذه فاز في الختام، وليس ذا إلا أنه ينسجم تمام الانسجام مع ما سلكه الصحابة والتابعون الخيار، فالمؤلف تخرج على يدي الشيخ عبد الرحمان الأنصاري وهو ابن الشيخ أحمد علي الأنصاري السهارنفوري الذي له عناية فائقة بنشر الكتب الحديثية، وتلمذ لديه الفحول والجهابذة من العلماء، منهم الإمام النانوتوي مؤسس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند كما تلمذ لديه ابنه الشيخ عبد الرحمان الأنصاري، فالمحدث السهارنفوري هو مدار الإسناد الذي يوصل السلسلة إلى مسند الهند الشاه ولي الله الدهلوي ثم إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

منهج المؤلف في الكتاب وثناء العلماء عليه

الزجاجة في خمس مجلدات تم تاليفها سنة ١٣٨٦هـ، فالأول من كتاب الإيمان إلى باب الاعتكاف، ويبلغ عدد صفحاته ٥٣٩.

والثاني من فضائل القرآن إلى باب النذور، ويبلغ عدد صفحاته ٦٠٩، والثالث من كتاب القصاص إلى كتاب الرؤيا، ويبلغ عدد صفحاته ٤٧١، والرابع من كتاب الأدب (باب السلام) إلى بدء الخلق وذكر الأنبياء ويبلغ عدد صفحاته ٤٢٥، والخامس من فضائل سيد المرسلين إلى ثواب هذه الأمة، ويبلغ عدد صفحاته ٤١٩.

فهذه الصفحات الضخمة أصبحت موسوعة حديثية للدلائل الحنفية الغرّاء، حقًا قد أثبت المؤلف ما بدا له من حكم الحديث صحة وضعفًا، ومن حكم الرواة تجريحاً وتعديلاً، وعزا أكثره إلى أساطين الحديث ورجاله، وأضاف إلى ذلك ما يتم به الاستدلال واقتفى في ذلك الشيخ النيموي في

كتابه "آثار السنن" وأشبع الكلام في الحاشية فقها للحكم وشرطا للحديث رجوعًا إلى الكتب المعتبرة في الفن، كما كشف الغطاء عن أقوال السلف تجاه ذاك، ولم يال جهدًا في الإجابة عما يرد على الأحناف ويقدح في مسلكهم، وذلك كله بكل عدل وإتقان دون انحياز وانحراف، فكأنه إعلاء السنن للشيخ ظفر أحمد التهانوني، وضم الأحاديث إلى أحاديث المشكاة بجودة الوضع وحسن الترتيب حتى لم يبق بينهما امتياز وفرق فكأنهما كتاب واحد، واعتنى بصفة خاصة بالأحاديث التي أخرجها الإمام محمد والإمام الطحاوي، والإمام الأعظم أبوحنيفة في مصنفاتهم: الموطاء والآثار، وشرح معاني الآثار، ومسند الإمام الأعظم مع إتقان وبلاغة تصور تصويرًا صادقًا للمشكاة.

كفى به أهمية وخطورة، وابتهاجًا وسرورًا أن أثنى على الكتاب جهابذة العلم ورجال الحديث ثناء بالغا، وزينوا بالسطور القيمة كالتقاريظ للزجاجة نخص بالذكر المحدث الجليل والفقيه عديم النظر في أوانه، والعالم الخبير الشيخ عبد الفتاح أبو غدة صاحب التصانيف الأنيقة والتعليقات القيمة على كتب علم الحديث بصفة خاصة، وذلك في ١٤/محرم سنة ١٣٧٤ من الهجرة، بالإضافة إلى ذلك ما حرّره من انطباعاته الصادقة الفاضل العلام، والأديب البارع الشيخ عبد الماجد الدريابادي مدير جريدة "الصدق الجديد"، وأحد من انتسب إلى الفكرة التهانوية عملاً وفكرًا، وقد نُشر ذا في "الصدق" اليوم التاسع والعشرين من المحرم سنة ١٣٧٣ من الهجرة.

وكذا ما كتب في شأن الكتاب ومؤلفه فضيلة الشيخ المقرئ محمد طيب القاسمي الرئيس الأسبق للجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند/الهند، الخلف الرشيد للأسرة النانوتوية نسبًا وشرفًا وعلمًا وفضلاً، وذلك اليوم الثامن والعشرين من ربع الآخر سنة ١٣٧٦ من الهجرة.

هذا كله يعكس عكسًا جميلاً مدى تقديره لدى العلماء وغاية خطورته وأهميته العلمية الحديثية لدى الفضلاء، فالكتاب أحق أن يُضم إلى المقررات الدراسية أو يستفاد منه أثناء درس المشكاة على الأقل.

من ميزات الزجاجة السامية

(١) قد التزم المؤلف أن يذكر لكل باب ما يتعلق به من الآيات الكريمة، وسار في ذلك مسير البخاري في صحيحه.

(٢) سلك في جمع الأحاديث وإسنادها إلى الرواة من الصحابة والتابعين وإحالتها إلى من خرجها من المحدثين المشتهرين المعتمدين، وتبويب الكتب والأبواب ما سلكه صاحب المشكاة التبريزي.

(٣) قد راعى وجهة الفقه الحنفي في المسائل المختلف فيها تحقيقًا إياه وتاكيدًا له.

(٤) جمع لكل مسئلة ما ينوط به من الأحاديث والآثار في موضع واحد، ولم يوزعها على الفصول الثلاثة ففيه خالف دأب التبريزي والبغوي كي لا يشق على القراء التفحص عنها والوقوف عليها فلكل وجهة نظر.

(٥) رتب ما يتعلق بالفقه والأحكام ترتيبًا لائقًا فذكر أولا ما كان موافقًا لما أفتي به في المذهب، ثم ذكر ما يؤيده وتتابعه، وقد ذيل أكثر الأحاديث بالنقد على الرواة لينفضح غمام الريب عما هو الحق.

(٦) كتب الحواشي في أكثر المواضيع وكشف القناع عن المقاصد الحنفية عزوًا إلى كتبها التي تحتل اعتبارًا واعتمادًا قويًا، ووثوقًا زائدًا، وهذا كله من دون انحياز إلى إفراط وتفريط.

وله مزايا أخرى وخصائص شتى سيطلع عليها من يطالعها وهو شهيد ممن له صلة بالحديث واطلاع على الفقه، وإلمام بعلم الجرح والتعديل، ويضطر بالتالي أن يعترف بفضله وأهميته، فبالجملة ناب الكتاب مشكاة المصابيح في ثوب جديد ولباس قشيب، وأحق أن يقال: إنه مستدرك عليه ومستخرج له، ولو كانت آحاديثه ممتازة عن أحاديث المشكاة في فصل رابع أو بنوع آخر لكان له مكان مرموق زائد مما يحتل الآن. والله أعلم.

قراءة أدبية في كتاب "الطريق إلى المدينة"

للشيخ أبي الحسن الندوي ـ رحمه الله ـ

بقلم: محمد أعظم الندوي ❖

تمهيد

يهب الله بعض الناس قدرات متميزة، كالحس المرهف، والبيان العالي، والشخصية النافذة، وغير ذلك من المواهب، يصبحون بها أصحاب عطاءات لا تتأتى لغيرهم، والشيخ أبو الحسن الندوي واحد من هولاء اجتمعت فيه قدرات كثيرة متنوعة، فكرية وأدبية ودعوية، وقدم أعمالًا رائعة في الدراسات الأدبية والنقدية، ومن روائع أعماله الإبداعية كتابه "الطريق إلى المدينة".

إن هذا الكتاب كتاب وفاء وحنان، وعاطفة ووجدان، يثير كامن الحب، يجد القارئ في هذا الكتاب صحائف رائعة تشعل جمرة الحب في قلب المسلم تجاه نبيه صلى الله عليه وسلم، وتؤجج العواطف الكريمة تجاه هذه الشخصية الحبيبة التي أرسلها الله رحمة للعالمين.

إنه كتاب صغير، ولكنه عظيم في الروعة والجمال، وإثارة الحب والعاطفة، والشعور والوجدان،وثري في المواد والعطاء والنوال، الذي يكشف عن موهبة المؤلف الأدبية الغنية، ويبرز دوره المشرق في التأصيل الإبداعي للأدب الإسلامي الذي كان من أول الدعاة إلى أهميته وتوطيد دعائمه، ويشير إلى ذلك قوله: "حاجتنا وحاجة هذا العهد، وحاجة العالم العربي بصفة خاصة، هي الأدب الهادف السليم، الدافق بالحيوية، المتدفق بالقوة، الذي يحمل رسالة سماوية إسلامية عالمية".

تعريف وجيز بالكتاب وسبب تأليفه

يقع الكتاب في ١٣٠صفحة في الطبعة الخامسة التي صدرت من المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، والتي أنا بين يديها، وصدر منه عشرات من الطبع حتى الآن من مختلف المطابع العربية والهندية، طبع لأول مرة من المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ثم طبع من المجمع الإسلامي العلمي- الهند، ودار القلم- دمشق، والمختار الإسلامي- القاهرة، ودار ابن كثير- دمشق وبيروت، وغيرها من دور النشر، وترجم إلى الإنجليزية والتركية والأردية، يتحلى جيد الكتاب بتقديم رائع من أديب العربية الشيخ علي الطنطاوي، وأما محتوى الكتاب فعلى النحو التالي:

١- الكتاب الذي لا أنسى فضله
٢- محمد إقبال في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم
٣- وفود الأمة بين يدي نبيها صلى الله عليه وسلم
٤- من غار حراء
٥- ميلاد عالم جديد
٦- في مهد الإسلام
٧- البعثة المحمدية
٨- صلة مسلمي العجم بالنبي العربي صلى الله عليه وسلم
٩- شعراء العجم في مدح سيد العرب والعجم

تلقى هذا الكتاب قبولًا غير عادي بعد ما ظهر أول مرة، وأبدى كبار أهل القلم ورجال الفكر والأدب إعجابهم بهذا الكتاب، وتأثرهم العميق، وأثنوا عليه بالتعليق في الجرائد والمجلات، وحسب

❖ باحث دكتوراه،القسم العربي،جامعة مولانا آزاد الوطنية الأردية،حيدرآباد،الهند.

القارئ ماقاله أديب العربية الكبير العلامة علي الطنطاوي في تقديمه لهذا الكتاب : " لقد كدت أفقد ثقتي بنفسي، ولكني لماقرأت كتابك يا أخي أبا الحسن "الطريق إلى المدينة" أحسست بالشوق يعود فيعتلج بنفسي، فعلمت أن قلبي ما خلا من جوهر الحب، ...فيا أبا الحسن لك الشكر على أن رددت إلي ثقتي بنفسي، وثقتي بأدب لغتي، أما المقدمة التي طلبتها فأعفني منها، لأنك لست في حاجة إليها، ولا يحتاج إليها هذا الكتاب". تلقاه الناس بالقبول، وأذيع عدة مرات من محطة الإذاعة السعودية ومن محطة الإذاعة الهندية بمدينة لكناؤ بشكل تمثيلي رائع، وفاز بالجائزة، جدير بأن تتحلى به كل مكتبة، ويقرأه كل مسلم، وكل إنسان، والشباب منهم خاصة.

أما سبب تأليفه فنقرأ في أولى صفحاته مقدمة يبين فيه المؤلف غايته من الكتاب، فيقول: "وهال المؤلف وأفزعه ضعف العاطفة في هذه البلاد، وضعف الصلة الروحية والعاطفية بالنبي صلى الله عليه وسلم" فهو بذلك يجند نفسه لمواجهة ثورة يقدها العقل الفلسفي بدت في بلاد كانت مصدر الإيمان والحنان والعاطفة، وهوما يعد خطراً كبيراً، يمهد لكل ضعف، ولكل اضطراب، ولكل أنواع الفوضى، فجمع في سبيل هذا الأمر كل ما ألقى من محاضرات وأحاديث، وماكتب من مقالات في شخصية النبي الكريم، وعرض أشواق شعراء الإسلام وأشعارهم والمحبين في ديار العجم، وكان من حسن أدب المؤلف أنه اعتذر إلى صديقه محمد أسد صاحب كتاب "الطريق إلى مكة" الذي أخذ منه فكرة تسمية كتابه "الطريق إلى المدينة".

قيمته الأدبية

مما لا شك فيه أن هذا الكتاب أكبر قيمته ومكانته أنه يتحدث عن سيد العرب والعجم خاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، وكفى له فخرًا ومكانة، ولكنه يزيده بهاء ورواء هو كونه في لغة الممدوح صلى الله عليه وسلم وفي لغته الفصحى الذي هو منتهى فصاحتها ومبلغ جمالها، كما أثر عنه قوله: "أنا أفصح العرب"، ومعلوم أن الأدب هو ملكة أو براعة راسخة في النفس، يتجلى فيها العقل الإنساني بالإنشاء والفن الكتابي، وهو تعبير راق عن المشاعر والأفكار، والآراء والخبرة الإنسانية.

وإن لغة مؤلف هذا الكتاب تتسم بأنها لغة عربية فصحى، أدبية بلاغية، ولغة دقيقة المعاني، ورقيقة المشاعر، ولغة الوعي العميق، والذاكرة القوية، ولغة تجمع بين القديم في سجعه والجديد في سلاسته، ولغة الصدق والصفا، والأصالة والتأصيل.

والنص الأدبي لا يصطبغ بصبغته الفنية إلا إذا توافرت فيه عناصره من حسن امتزاج بين الألفاظ والمعاني، والخيال، والعاطفة، والموسيقى الشعرية، وما إلى ذلك، ونقرأ الكتاب قراءة أدبية فنجد أنه يحمل ألواناً من الخصائص الأدبية من نواح عديدة، أبرزها ما يلي:

الألفاظ

والألفاظ هي بنية النص الأولية التي تحمل في داخلها دلالات نفسية ووجدانية ناطقة، تصور إحساس المبدع الذي يلتقطها، ونرى المؤلف أنه استخدم الألفاظفي هذا الكتاب بمهارة فائقة، فنظمها نصاً فريداً كالفنان الذي يلتقط دُررًا منثورة لينظمها عقدًا جميلًا في استخدام حساس ومبتكر للغة، فلم يستخدم لفظًا سوقيًا ولا حوشيًا، وظهر ببيانه القوي بما فيه من عناصر الطبع والصناعة ذوقه الرفيع وبلاغته الآسرة، والشاهد على ذلك قوله: "هذا هو "الحب" الذي كان أعظم الطبقات إفلاسًا فيه الطبقة العصرية المتعلمة في هذه الأمة، فكانت أجوفها روحًا، وأضعفها مقاومة، وأخفها وزنًا، وأكدرها حياة، وأضلها عملًا".

الأفكار

الأفكار عنصر هام وأساسى من عناصر النص الأدبي، تنبع من نظرة المبدع إلى

الحياة والكون، وتفسيره لمظاهرالطبيعة والحياة والإنسان، وتبين أفكار النص اتجاه تفكير المبدع ومدى عمقه، والحقيقة أن الأدب الرفيع لم يخل قط من عنصر التفكير، فمن هذه الناحية كلك نجد هذا الكتاب أنه يمتاز بطلاقة الأفكار وأصالتها، وجمالها وصياغتها، وتحمل في طياتها قيماً تعيش في أذهان وقلوب القراء، ويظهر ذلك بوضوح في حديثه الذى أذاعته محطة دلهى، ضمه هذا الكتاب، وهو "ميلاد عالم جديد"، فإنه تساءل نفسه عدة أسئلة في البداية، ثم أجاب بنفسه في بثقة ويقين، فقال: "كان الجواب من غير نزاع ومن غير تردد، هو اليوم الذي ولد فيه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وآله وأصحابه وسلم"، ولا يكفى بها القدر بل يبل كلماته بأفكاره العميقة الواضحة، فيقول: "إنه هو اليوم الذي وجدت فيه الإنسانية الإيمان الذي فقدته وأفلست فيه من مدة طويلة، الإيمان بفاطر هذا الكون ووجدانيته، الإيمان بمصيرها.." تسلسل في تقديم فكرته النيرة بكل تماسك وترابط، حتى أوصلها إلى القمة.

المعاني

والمعاني قوام كل ألوان الأدب، وعماد النص الأدبى،حتى تكاد تكون أهم عناصره، ولا شك أن الكتاب يحمل المعنىالرقيق العاطفى على ظهره في جميع محتوياته، وهنا ظهرت ثقافة المؤلف، وقراءاته التى وظفها في نصه،تميز بها المؤلف الجليل، فأبدع في المعانى الجميلة الرقيقة، فإنه يلجأ إلى التصريح - إذا اقتضى الأمر ذلك- ، ويُكنى ويُلمح ويُضمن للإيحاء ببعض المعاني مراعياً مقتضى الحال في بلاغته وإبداعه، وحسبنا شهادة مقتطف من هذا الكتاب: "لقد شهد التاريخ أنه لم يملك المفتاح الذي استطاع أن يفتح به الكعبة فحسب، بل ملك المفتاح الذي فتح به أقفال البشرية المعقدة التى أعيت عقلاء العالم كلهم، ذلك المفتاح هو القرآن الذي نزل عليه، والرسالة التى أكرمه الله بها، والذي لا يزال يقدم مساعدته لفض مشكلات جديدة، وفتح أقفال جديدة".

الخيال

يحتل الخيال مكانة متميزة بين عناصر النص الأدبى، فهو ضرورة من ضروراته لإعادة صياغة وبناء الواقع في عالم الأدب،وهو القوة التى برزتفيها خبرات مؤلف هذا الكتاب المثالى، وقراءاته وثقافته وموهبته الفطرية،و خصوبة خيالهروت كلماته كتروية الماء الأزهار، فعن طريقه وقف المؤلف على أرض الواقع، واستلهم منها متحررًا من سلطان الواقع،وأعاد تنظيم صلة المسلمين العاطفية بالنبى صلى الله عليه وسلم بإدراك عميق، تشكلت فيه لغته في أثوابٍ جديدة وتصوراتٍ مبتكرة، فانطلق بخياله حراً إلى آفاق واسعة، ويسري ذلك في الكتاب كله سريان الروح من الجسد، ويتجلى بوضوح في إحدى مقالات هذا الكتاب خاصة، وهو "وفود الأمة بين يدي نبيها صلى الله عليه وسلم"، فقد أرى المؤلف القارئ بأفكاره المتسلسلة والمترابطة ما رآه في خياله البديع، يقول: "كنت أمس في الروضة في المسجد النبوي..ولكن سحابة غشيتنى من الذكريات القديمة لم أستطع لها دفعاً، ولم أملك لها قهراً" ثم يبين لقاءه الخيالى في نتاسق عجيب مع عظماء هذه الأمة، وعباقرة الإنسانية، ونوابغ الوجود، والملوك والأمراء، والشعراء والأدباء، وكلهم يقول مجلجلًا ومتواضعًا: "لولا يارسول الله لما ارتفعت لنا راية، ولا رويت لنا رواية".

العاطفة

ولا بد للعاطفة أن تكون صادقة وواقعية تنبع من سويداء نفس الكاتب، فلا مرية أن هذا النص الأدبى الذي نحن بصدده مرآة صادقة عكست ما كان يجيش بصدر مبدعه من مشاعر وأحاسيس، وما يعتمل في ذهنه من انفعالات وأفكار، وما يحسه من عاطفة تسيطر عليه، ويفوح أريجها في كل تعبير أو صورة أو معنى أو لفظة تلمسها

عاطفته، واجتهد المؤلف للوصول إلى غايةتلونت ألفاظه وعباراته وصوره بلون عاطفته وتشكلت بشكل دوافع نفسه التى أحسها وعبر عنها بصدق، فالعاطفة هى روح هذا الكتاب، وهى التى قصد المؤلف إثارتها، فاستخدم كلمة "العاطفة" في مقدمته فقط فضلًا عن غيرها ست مرات، والشاهد قوله: "وإن الإنسان ليحمل في رأسه طموحًا لا يشبع، وهمة في قلبه لا تقف، وروحًا في جسمه لا تنى، وقلبًا في جنبه لا يطمئن، فلا يروي غلته ولا يشبع جوعته هذا العالم الضيق، المتثاقل.وليس هذا العالم إلا شبحًا إذا قوبل بالعالم الآتى، ذلك هو الإيمان بالبعث والحياة الآخرة الذي هو تمام الإيمان، وثالث الأركان في الأديان".

الأسلوب

إن الأسلوب هو الكلمات التى تكوّن الجمل والعبارات بصورتها اللفظية، فيمتاز الكتاب من هذه الناحية كذلك، فإنه يتسم أسلوبه الأدبى بوضوح تمثل في حسن اختيار الكلمات والجمل والأفكار الواضحة والمعبرة عن المعنى بلا تكلف ولا غموض، وراعى المؤلف التلاؤم والتناسب في مطابقة الأسلوب لمستوى إدراك القارئ، وبقوة تمثلت في فصاحة الكلمات، وجزالة التراكيب، وتماسك الجمل،وترابط العبارات، وصحة القواعد النحوية والصرفية والبلاغية، وجمال الذي تمثل في تآلف وانسجام كل عناصر هذا النص الأدبى في نسيج واحد متلاحم ومتماسك، نلمس فيه رقة الألفاظ، تسلسل الأفكار، نحس بعذوبة التصوير، ووحدة الموضوع والجو النفسى.

الإيقاع الموسيقي

تصنع الموسيقى المنبعثة من هذا الكتاب أثراً جمالياً يتمثل في توازى الحركات الصوتية والدلالية، وحركات المعنى في إيقاع موسيقى جذاب ينبه القارئ، ويسترعى انتباهه ويمتعه بهذا الجمال، يظهر ذلك في ترجمته لأبيات للدكتور محمد إقبال: "نفسى فداؤك أيها الفارس الكريم! بالله اقبض العنان، وقف بى لحظة، أبث إليك بالأشجان والأحزان، وقد تلجلج لسانى وخاننى البيان، إننى في صراع بين سلطان الشوق وسلطان الأدب"، عرفت في هذا المقتبس حرارة الأسلوب الذي ينقلني إلى جو الشعر.

الاقتباس

ويفضل المؤلف الأسلوب القرآني في رونقه وجلائه، وكثيراً ما يستعين بما يسمى بالاقتباس في البديع، وهو أن يُضمن المتكلّم كلامه من شعر أو نثر كلامًا لغيره بلفظه أو بمعناه، وهذا الاقتباس يكون من القرآن المجيد، أو من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، أو من الأمثال السائرة، أو من الْحِكَم المشهورة، أو من أقوال كبار البلغاء والشعراء المتداولة، دون أن يعزو المقتبس القول إلى قائله، ومن أشهر الأمثلة على هذا قول ابن سَنَاء الْمُلْك:

رحلوا فلست مُسائلًا عن دارهم ... أنا "بَاخِعٌ نَفْسِي عَلَى آثَارِهِمْ"

ومن خير أمثلة على ذلك قول المؤلف في هذا الكتاب: "ولولا دينه ورسالته، ولولا نبوته وبعثته، لما أخذت الأرض زخرفها، ولما أكملت السماوات زينتها".

الاستشهاد بالأبيات

يستدل المؤلف بالأبياتالعربية وترجمة الأبيات الفارسية والأردية لتشويق القارئ إلى الاستمرار في القراءة، وهذا يدل علىحسه المرهف وذوقه الرائع، يقول: " إن ذلك اليوم هو اليوم الذي يحق أن تنشد فيه الإنسانية في اعتزاز واهتزاز وبلاغة وإيجاز:

ولد الهدى فالكائنات ضياء

وفم الزمان تبسم وثناء"

وهذه ملامح لهذا الكتاب تتجلى من خلال قراءة عابرة لكتاب أدبي عاطفي حاولت أن أقوم بإبراز بعض جوانبه الأدبية، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن قصور علمي وقلة بضاعتي الأدبية، ولله الحمد أولًا وآخرًا.

دور الحديث النبوي الشريف في توسعة نطاق النثر العربي

بقلم: محمد سعيد الله بن شيخ نور عين *

نال النثر العربي في محيط الجزيرة العربية رواجاً عاماً وانتشاراً مدهشاً في كل جانب من جوانب الحياة الفردية والاجتماعية وبلغ قمّة التطور والازدهار إذ أن أعظم وأهم العوامل الباعثة على هذه النهضة الأدبية والنثرية الحاسمة في المجتمع العربي المليئ بإنشاد الشعر وقريض الشعراء كان بزوغ شمس الإسلام الساطعة الوهاجة حاملة رسالة الهداية والسعادة للبشرية جمعاء ونداء رسول الإسلام عليه الصلاة و السلام من قرن جبل فاران بمكة المكرمة يا صباحاه وقولته المدوية المجلجلة "يا أيها الناس! قولوا لا إله إلا الله تفلحوا"، ونزل القرآن الكريم في ثوب نثري محكم متين من البيان المعجز الرائع.

وكان هذا الانقلاب الجوهري والحركة الإسلامية الضاربة بكل منكر وباطل في أمس حاجة إلى بث أفكارها ونشر مبادئها وتقديم مناهجها في المجتمع البشري مع تقويض المبادئ الجاهلية واجتثاث أسسها وفحص زيفها وتشخيص فسادها ودحض أوزارها ومكافحة أتباعها ومجادلة معتنقيها بالدلائل القاطعة والحجج الساطعة وتزييف مزاعمهم الباطلة إلى النثر السلسال والكلام المرسل السهل الممتع وفي الواقع كان النثر بهذا المقام أقدر وسيلة وأهمّ أداة للقيام بهذه الوظائف الربانية والمسئوليات الدعوية المزدوجة، ومن هنا أصبحت الخطابة والبيان بأسلوب سهل جذاب وسيلة مهمة وأداة فعالة لنشر الدعوة الإسلامية العالمية والصدع بما جاء القرآن الكريم من أوامر الله سبحانه وتعالى وكان رسولنا العربي محمد صلى الله عليه وسلم قد مكث ثلاثة عشر عاماً بمكة المكرمة يدعو الناس إلى دين الإسلام وينافح عن حظيرة الإسلام وحوزته ولا يكاد ينسح له فرصة أو مناسبة ملائمة – إلا ويقوم في الناس من بين أبناء عشيرته أو غيرهم ويتحدث بالخطب البليغة والكلمات الساحرة تفسيراً للقرآن الكريم وتأويلاً لوحيه وكان ذلك بالنثر العربي البليغ والكلام المرسل الفصيح يفهمه كلّ من الداني والقاصي وبالتالي وجد النثر العربي مجالاً واسعاً للانتشار والذيوع ولا سيّما عندما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ويتحدث بكل أمير الركب:

وكان رسولنا العربي محمد صلى الله عليه وسلم قد مكث ثلاثة عشر عاماً بمكة المكرمة يدعو الناس إلى دين الإسلام وينافح عن حظيرة الإسلام وحوزته ولا يكاد ينسح له فرصة أو مناسبة ملائمة – إلا ويقوم في الناس من بين أبناء عشيرته أو غيرهم ويتحدث بالخطب البليغة والكلمات الساحرة تفسيراً للقرآن الكريم وتأويلاً لوحيه وكان ذلك بالنثر العربي البليغ والكلام المرسل الفصيح يفهمه كلّ من الداني والقاصي وبالتالي وجد النثر العربي مجالاً واسعاً للانتشار والذيوع ولا سيّما عندما بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل ويتحدث بكل أمير الركب:

* الباحث في الدكتوراه بالجامعة الملية الإسلامية، نيو دلهي

"ويقول صلى الله عليه وسلم لا أكره أحداً منكم على شئ بل أريد أن تمنعوا من يؤذيني حتى أبلّغ رسالة ربي فلا يقبله أحد بل يقولون: قوم الرجل أعلم به"(١).

ونقل الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) في فتح الباري شرح صحيح البخاري ما رواه أحمد وأصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث جابر:

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على الناس بالموسم فيقول هل من رجل يحملني إلى قومه؟ فإن قريشاً منعوني أن أبلّغ كلام ربي، فأتاه رجل من همدان فأجابه ثم خشي أن لا يتبعه قومه فجاء إليه فقال آتي قومي فأخبرهم ثم آتيك من العام المقبل، قال نعم فانطق الرجل وجاء وفد الأنصار في رجب"(٢).

وتعاظمت أهمية هذه الخطب الرائعة والبيان الساحر بعد الهجرة النبوية التاريخية التي غيرت مضمار الحياة وأحدثت ثورة عارمة في كل شعبة من شعب الحياة الفردية والجماعية وغيرت مجرى التاريخ لو اجتمعت أقلام أدباء البشرية بأجمعهم وأقبل جلّ كتّاب هذه الكوكبة الأرضية من كل ملة ونحلة ولغة ولسان على الوصف والبيان لما استطاعت وصفها وبيان روعتها وجمالها وجلالها فتعددت دواعي الخطابة والكتابة وكثرت أغراضها وازدوجت حاجياتها مسئولياتها، فكانت خطب الرسول عليه ألف ألف تحية وسلام تتحدث في بيان مبادئ الإسلام وسلوكياته وتعبر عن رسالته العالمية وفضلها ومنتها على البشرية جمعاء كما كانت هذه الخطب والأقوال المصطفوية تسلط الضوء على بيان أنظمة الدولة الإسلامية القائمة في مهجر الرسول صلى الله عليه وسلم.

كانت هذه الوحدة اللغوية التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم أسباب تيسير مهمة الدعوة الإسلامية وسرعة انتشار الإسلام فيها ومخاطبة الوحدات العربية المنتشرة، في لغة واحدة هي اللغة العربية الفصحى وبكتاب واحد هو القرآن العربي المبين.

وقدم في المدينة المنورة وهي مهجر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم العدد الهائل لا يأتي عليه الحصر من الوفود والسرايا ولم يعد موكباً وإنما صار طوفاناً من البشر ولجّاً طامياً من الناس، الأمر الذي أدى إلى تهذيب اللغة العربية ورواج النثر العربي وكان هذا النثر الفياض الزاخر بكلمات متدفقة باليقين الراسخ والإيمان المحكم ومتلاطمة بالحب والحنان والرحمة والنصح للناس جميعاً يؤدي وظيفتها في توجيه الناس وتوعية الوفود البشرية وحث المجاهدين المناضلين من أجل نشر رسالة الإسلام وإعلاء كلمة الله في الأرض حين هبت ريح الإيمان والإسلام في بقاع الجزيرة العربية وكان النثر العربي المرسل من خلال ذلك المناخ الواسع يتقدم ويزدهر ويسود الجو العربي ويتخلى عن السجع والقافية.

يقول سماحة الشيخ سيد أبو الحسن علي الحسني الندوي في السيرة النبوية:

"كانت هذه الوحدة اللغوية التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم أسباب تيسير مهمة الدعوة الإسلامية وسرعة انتشار الإسلام فيها ومخاطبة الوحدات العربية المنتشرة، في لغة واحدة هي اللغة العربية الفصحى وبكتاب واحد هو القرآن العربي المبين"(٣).

ويقول الأستاذ إبراهيم عبد الخالق:

"كان الغالب على العرب قبل الإسلام الأمية وعند ظهور الإسلام فشت الكتابة وكثر الكتاب للحاجة إلى تدوين الوحي والرسائل التي كان يبعث بها النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء وإن انصرفت نفوس القوم يومئذ عن تدوين علومهم في الكتب وعوّلوا على تسطيرها في صحائف ذاكرتهم، وقد كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من

الصحابة وقد أمر بعد غزوة بدر من لم يكن له فداء من الأسرى أن يعلم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة(٤).

ثم انصرف العرب عن ذلك – أي عن الشعر – أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي، وبما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً.

عندما ننظر إلى أوائل المؤمنين بالإسلام نجد كثيراً منهم كتّاباً مثل الخلفاء الراشدين الأربعة وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعيد بن أبي وقاص وعامر بن فهيرة ومعيقيب بن أبي فاطمة وحذيفة بن اليمان وغيرهم وهكذا تيسر للرسول صلى الله عليه وسلم أن يجد حوله جماعة من الكتاب يدونون له ما يمليه عليهم من آيات القرآن الكريم واشتهر جماعة من الصحابة بكتابة الوحي على رأسهم عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب فإن غابا كتب أبي بن كعب وزيد بن ثابت(٥)، كما اشتهر بها أيضاً معاوية بن أبي سفيان(٦).

ويستطرد الأستاذ متحدثاً عن النثر العربي عند مجئ الإسلام فقال:

إن سنة النمو تشمل اللغات كما شملت المخلوقات، فالنثر قد بلغ في ابتداء الإسلام مبلغاً من الكمال والاتساع في وجوه الاستعمال وحسن العبارة لفظاً وأسلوباً بما اكتسبه القوم من بلاغة القرآن والجري على محكم أسلوبه وبما حركوا إليه هممهم من الفتوحات واختلاطهم بالأمم المتمدنة فرقت بذلك عواطفهم ولانت طباعهم وذهبت عنهم الوحشة والتعمق في التراكيب والمعاني وتغيرت أساليبهم التي كانوا يتوخونها أيام جاهليتهم(٧).

ويقول الدكتور محمد بن حسن الزير وهو يتحدث عن تطور اللغة العربية وازدهار الكلام المرسل وخروج العرب الأولين في ظل الإسلام عن الصنعة والتكلف والسجع إلى السهولة واللين فيقول:

"وقد زخرت الحياة الأدبية في ظل الإسلام بفيض مديد من العطاء الأدبي الخالد، وكان أثر الإسلام في ذلك الأدب واضحاً، حيث نجد الصورة الجديدة للأدب مختلفة عما كانت عليه قبل الإسلام، فقد غير الإسلام طباع العرب من الخشونة إلى السهولة واللين مما جعل أدبهم يتدفق عذوبة وسلاسة في أساليب جزلة رائعة، كما أكسبهم عمقاً في التفكير وسعة في الأفق والمعرفة جعلهم يعبرون بدقة وبصور قوية بارعة تعتمد على البراهين(٨).

وكما ذكرنا أن النثر العربي الطبيعي المرسل قد أصبح يفيض وينطلق في ظل الإسلام الظليل عن عاطفة قوية وحماسة روحانية يؤججها ويدفعها إيمان قوي عميق ورسالة خالدة باقية نامية؛ مما جعل هذا الأدب المتين كأداة قوية ومؤثرة نافذة للتعبير والبيان والكلام الساحر الذي يضرب على الوتر الحساس لنبع حياة البشر وهذا الأدب المحكم المتين يضاد زعم كثيرين من دارسي اللغة العربية لما ساد عنهم في الأوساط الأدبية والعلمية فكرة حدوث الضعف والركاكة والفتور في ميدان الأدب العربي ولاسيما قريض الشعر الرائع البليغ خلال فترة النبوة والخلافة الراشدة، ويذهبون في تعليل ذلك مذاهب مختلفة، كما يهملون جانب النثر العربي وقتذاك، ولا يكاد أحدهم أن يلتفت إلى الأمر الواقع فنسمع جعجعة ولا نرى طحنا! وهنا نسرد أقوال أولئك الكتّاب والمؤرخين الذين يقرّرون الضعف والركاكة في الشعر والأدب العربي فمنهم المؤرخ البارع ابن خلدون وها هو يقول:

"ثم انصرف العرب عن ذلك – أي عن الشعر – أول الإسلام بما شغلهم من أمور الدين والنبوة والوحي، وبما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زماناً"(٩).

ويقرر ذلك الأستاذ جرجي زيدان قائلاً:

"أن الشعر في عصر الراشدين توقف لاشتغال المسلمين عنه بالفتوح"(١٠).

ولكن الواقع الملموس الذي تؤكده الدراسة الجادة المبنية على دراسة الفترة النبوية والثورة العارمة التي حدثت بمجئ الإسلام في بقاع الجزيرة العربية وهزتها هزاً عنيفاً دراسة متأنية شاملة، هو أن الشعر في الإسلام لم يضعف ولم يتفلك ولم يهن، وأن الفتوح الواسعة لم تشغل المسلمين عن التقريض وإنشاد الإبيات البليغة والإتيان بالشعر العربي المحكم المتين، بل أنها كانت كما يقول الدكتور النعمان القاضي في شعر الفتوح الإسلامية:

"فترة حية لم تستطع الظروف القاسية التي رافقتها من حركة الفتح والهجرات والصراع أن تذهب فيها بالمواهب الفنية للنفس العربية التي ألفت الشعر ومرنت عليه"(١١).

يقول الدكتور شوقي ضيف وهو يسلط الضوء على صورة الأدب العربي في صدر الإسلام ويرد على تلك المزاعم الباطلة والآراء الخاطئة:

"ودفعتني النصوص الكثيرة في عصر صدر الإسلام إلى نقض الفكرة التي شاعت في أوساط كثيرة من عرب ومستشرقين، إذ ذهبوا يزعمون أن الإسلام انحسر عن أثر ضئيل نحيل في أشعار المخضرمين، وهو زعم غير صائب، بل هو زعم يسرف في تجاوز الحق، فقد أتم الله على الشعراء نعمة الإسلام، وانتظم كثيرون منهم في صفوف المجاهدين في سبيل الله داخل الجزيرة العربية وفي الفتوح، وهم في ذلك كله يستلهمون الإسلام، ويعيشون له، ويعيشون به، يريدون أن ينشروا نوره في أطباق الأرض، وقد مضوا يصدون عنه في أشعارهم صدور الشذى عن الأزهار الأرجة، وبالمثل صدروا عنه في نثرهم، فإذا هم يستحدثون فنوناً من النثر ينشئونها إنشاء، إذ أنشؤوا على هدى من القرآن آيات بديعة من المواعظ الدينية، كما أنشؤوا ضروباً من المعاهدات والرسائل السياسية والتشريعية"(١٢).

وإلى جانب الخطابة كانت الأمثال والوصايا والحكم التي ظلت امتداداً للفنون الجاهلية، ووجدت في العهد الجديد مجالاً حيوياً للاستمرار والنماء، وفي هذا العهد الإسلامي برز لون نثري جديد هو فن الكتابة والرسائل.

وأضاف الأستاذ يحيى الجبوري قائلاً وهو يتحدث عن ذلك العهد الانقلابي والنهضة المدهشة في كل قطاع من قطاعات الحياة وجميع شؤون الدولة الإسلامية ونواحي حياة المعتنقين بالإسلام والذين يتابعون الفتوحات الإسلامية ويرد رداً عنيفاً على أولئك الكتاب الذين ينالون من الشعر ويقللون قيمته الأدبية والفنية في عسر الإسلام الذهبي! فيقول:

"إن الشعر كان زاهياً قوياً كثير الفنون واسع الأغراض دفعه الإسلام في دعوته، ووجهه في أغراضه، وأدخله في أتون المعركة الإسلامية بين مكة والمدينة وشارك في شؤون الحياة الإسلامية كافة فصورها ووصفها على قدر ما أتيح له... لقد كان موقف الإسلام من الشعر إيجابياً... لقد اتخذ الدين الشعر سلاحاً ماضياً من أسلحة الدعوة وكان لابد أن يدفع بالشعر في هذه المعركة.."(١٣).

ونجد أن الدراسة الجادة الموضوعية تكشف لنا كثيراً من نواحي الإبداع الأدبي في تلك الفترة النبوية الحاسمة التي ظهرت بعد البعثة المحمدية ونزول القرآن الكريم بلسان عربي مبين.

يقول الدكتور عبد الحليم بلبع:

وإلى جانب الخطابة كانت الأمثال والوصايا والحكم التي ظلت امتداداً للفنون الجاهلية، ووجدت في العهد الجديد مجالاً حيوياً للاستمرار والنماء، وفي هذا العهد الإسلامي برز لون نثري جديد هو فن الكتابة والرسائل(١٤).

إن الإسلام قد احتفل بالكتابة واهتم بشأنها واعتمد عليها في حركته ودولته، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة التاريخية إلى المدينة المنورة قام بإبلاغ الدعوة الإسلامية العالمية وبعث رسلاً وسفراء من الصحابة الأجلاء مع رسائله وكتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى دين الإسلام، ولذلك كانت أداة الكتابة وهي "القلم" محل عناية القرآن منذ الآيات الأولى "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ"(١٥)، والرسول صلى الله عليه وسلم في أول معركة يجعل فداء بعض أسراها ممن يعرف الكتابة، أن يعلم عشرة من صبيان المسلمين(١٦). وشاعت الكتابة واتسع نطاقها، فكتب القرآن، كما كتب الحديث بعض الصحابة بعد كتابة القرآن بزمن، واستعملها المسلمون في عقودهم ومعاملاتهم، ومواثيقهم السياسية وغيرها، في عهودهم المختلفة(١٧)، وفي رسائلهم الإخوانية والديوانية والسلطانية التي تعتبر فناً نثرياً جديداً ظهر في العهد الإسلامي بفضل شيوع الكتابة وانتشارها على نطاق واسع(١٨).

كما ظهر في هذه الفترة لون جديد أيضاً من النثر الديني عماده الوعظ والترغيب والترهيب، والتذكير باليوم الآخر ومافيه، وربما أطلق عليه "العظات الأخلاقية" وهو لا يبعد في الواقع من أن يكون نوعاً من الفن الخطابي الذي تميز بطابع من الوعظ الديني...

كان هذا البعث الهائل والانقلاب الجيسم انطلاقاً بالإنسان نحو آفاق سامية وقمم سامقة بالتكريم الرباني الذي جعل منه خليفة في الأرض، وكان فتحاً كبيراً للإنسان وهو ينتقل من حياة إلى حياة ومن الظلمات القاتمة إلى النور الوضاء، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن القيود والأغلال إلى العتق والحرية والاستقلال في أسمى وأشمل معانيها ومفاهيمها.

يقول الأستاذ محمد بن حسن الزير وهو يتحدث عن الكلام الساذج البسيط والبيان الرائع السلسال ورقيّه وازدهاره في ذلك العصر الإسلامي:

وكان تجاوب ضمائر الرعيل الأول من المسلمين مع هذا الدين فريداً لم يسبق له مثيل في التاريخ، فاهتزت كياناتهم معه بعنف، وأخذتهم روعته في وضوحه وصراحته، وفي أنه حق وعدل، ثم في سموه وبساطته... ثم في هذا الثوب الذي جاء فيه من البيان العربي الرائع، الذي كان نسيج وحده في بلوغه قمة التعبير الجميل، أخذوا بكل ذلك وانصاعوا له، وتمثلت فيهم المعاني والمبادئ الإسلامية، وهيمنت عليهم قيم الإسلام وتصوراته(١٩).

وأضاف الأستاذ محمد بن حسن الزير وهو يستعرض الأمر الواقع للأدب العربي في ظل الإسلام الظليل وشجرته الفيحاء قائلاً:

نجد أن بزوغ شمس الدعوة الإسلامية، وما صاحبها من تصورات، وما طرأ من تغير نظرة الناس إلى الحياة كان ثورة على كل المفاهيم والقيم والأوضاع الجاهلية، ثورة في النفس وقرارة الضمير، وثورة في واقع الحياة، تمثل في الصراع الذي قام بين قوى العهد البائد بالباطل وأهل الإسلام السائد بالحق، وبذلك وجد عامل قوي دفع إلى أن تبرز "الكلمة" أكثر من ذي قبل حية متحركة على الساحة الواقعية تبني وتهدم في هذا الصراع الجديد بين الحق والباطل، وتعبر بصدق وحرارة عن مكنونات الضمائر، وحقيقة المشاعر التي تمور كما يمور هذا الحدث الهائل المزلزل... فكان لابد للمعركة من سلاح البيان إلى جانب سلاح السنان(٢٠).

إن الذين يدرسون الأحاديث النبوية والعلوم التي تفرعت منها ليجدون حقاً وصدقاً أن السنن المأثورة عنه صلى الله

عليه وسلم قد جاءت بين حكمة مرسلة وخطبة مرتجلة، ومثل مضروب وقصة رمزية، ونموذج إنساني ومشهد حي وموقف عاطفي وحوار تعليمي ودعوة وإرشاد وترغيب وترهيب.

يقول الدكتور عدنان علي رضا النحوي "والإسلام ينزل الأدب منزلة عظيمة لا نجدها في أي عقيدة أخرى ولا نجدها في أي أمة أخرى غير الأمة الإسلامية وإذا كانت صياغة الأدب لدى الناس تبتدئ من الكلمة واللفظة فإن بدايته في طبيعة الإنسان بدأت مع العلم الذي أعطاه الله سبحانه وتعالى لآدم عليه السلام فمن هذا العلم بدأت جذوة الأدب وشعلته في حياة الإنسان(٢١) قال الله تعالى "وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ"(٢٢).

وحين تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ الذكر فقد تعهد في ذلك بحفظ اللغة العربية ذاتها، فهي لغة القرآن والحديث والعبادة والطاعة "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ"(٢٣).

إن الكلمات التي حيرت أئمة اللغة والتي حلمها الحديث النبوي الشريف إلى الميدان اللغوي هي كثيرة كاثرة لا تعد ولا تحصى ومن بين هذه اللآلي والدرر كلمة مهرمة جاءت في الحديث النبوي "ترك العشاء مهرمة" هذه الكلمة جارية على ألسنة الناس وليس أحد يستطيع أن يقول! أرسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأها أم كانت تقال قبله؟ وبالجملة فكانت الألفاظ النبوية والتعبيرات المصطفوية كنزاً ثميناً استمد المتأدّبون والمباحثون من هذا البحر الفياض المتلاطم في رسائلهم وأشعارهم وخطبهم وكلامهم.

وأخيراً أقدم بعض النماذج القيمة لأفصح وأبلغ كلام عربي صدر من أفصح العرب وأبلغهم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنها:

الطريقة الإلقائية: من سلك طريقاً يطلب فيه علماً.

الطريقة الاستنتاجية: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر.

أسلوب الترغيب: عليكم بالصدق.

أسلوب الترهيب: إياكم والكذب.

أداة لإثارة الانتباه والتشويق: ألا!

تغيير المشهد: وكان متكئاً فجلس.

إبراز المعنيات في صورة المحسوسات: ذاق طعم الإيمان ...."

براعة الاستهلال أعني بداية الكلام: إنما الأعمال بالنيات...."

وما إلى ذلك من بدائع التعبيرات ولطائف الحكم والجمل القصار من غرر كلام النبي الكريم عليه الصلاة والسلام:

وحين تعهد الله سبحانه وتعالى بحفظ الذكر فقد تعهد في ذلك بحفظ اللغة العربية ذاتها، فهي لغة القرآن والحديث والعبادة والطاعة "إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ.

وقد ذكر ابن دريد تعبيرات عديدة بليغة في كتابه المجتبى وعقد باباً باسم. (باب ما سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسمع من غيره قبله) شرح فيه مجموعة نفيسة من الأحاديث المنوه بها، ومنها.

يا خيل الله اركبي، الحرب خدعة، الناس كأشنان المشط، الآن حمي الوطيس وغيرها(٢٤)، إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى(٢٥)، اطلبوا الخير من حسان الوجوه(٢٦).

ومن هنا نرى أن كلام النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قد اشتمل واحتوى على أصناف أدبية عديدة من تمثيلات بارعة وحكم عالية وأمثال رائعة ووصايا نافعة واشتمل على معاني التوجيه والإرشاد والتشريع والتربية فكان مادة غزيرة للغة وأمثلة رفيعة للأدب وثروة قيمة للأخلاق وكانت مصوغة بصبغة أدبية فصيحة مع أسهل التراكيب وأعذب التعبير وآنق الديباجة، أبرع الدلالة وأفخم العبارة وأسلس البيان وأعذب الاستماع وبالتالي وجد النثر العربي من بينها مناخاً كبيراً

ومجالاً واسعاً للازدهار والنمو والتطور حتى بلغ قمة التطور والانتشار وساد العالم كله، بأسلوب جذاب خلاب وميزة بلاغية نادرة وسمات أدبية بارزة، واحتل مكانة مرموقة لدى الباحثين والعلماء والكتاب وساد في الأوساط العلمية والأدبية والفنية، وحظي بالقسط الأوفر والقدح المعلى في استرعاء انتباه العلماء والمثقفين إلى تلقى الأساليب الحكيمة والتتلمذ على مأدبة الأدب الإسلامي ولاسيما على مائدة الحديث النبوي الشريف كنموذج أدبي رائع أخاذ ومؤثر بليغ جذاب، وأصبحت لغة الحكومات الكبيرة والمجتمعات البشرية المثقفة في العالم وأخير نذكر أهم العوامل والأسباب لشيوع اللغة العربية بقاع العالم في فترة قصيرة وهي كما يلي:

وكانت أهم العوامل التي بعثت تلك الحركة الأدبية والثقافية هي:

١. حاجة المسلمين في تفسير الآيات القرآنية وإلى معرفة مناسباتها وسبب نزولها والموضع الذي نزلت فيه والحادثة التي تشير إليها وما إلى ذلك.

كما نرى أن القرآن الكريم قد أكثر من الإشارات إلى شتى الأمم ومختلف القبائل وكثير من الأنبياء في قصصه عن الغابرين، فرغب علماء المسلمين وأدباؤهم في فهم هذه الآيات وإشاراتها وتوضيحها في جانب وفي جانب آخر نرى أن الإسلام قد أظل كثيراً من اليهود والنصارى فلجأ إليهم المسلمون ليعرفوهم بتلك الإشارات فأخذ هؤلاء يحدثونهم بقصص التوراة والإنجيل وشروحها فربطها المسلمون بالتفسير والتاريخ واشتهرت هذه الأخبار فيما بعد باسم (الإسرائيليات) كما نجدها في كعب الأحبار المتوفى عام ٣٤هـ ووهب بن منية (المتوفى عام ١١٠هـ) ولا تزال آثارهما في كتب التاريخ والتفسير التي وصلت إلينا.

٢. كان الحديث النبوي الشريف من أهمّ عوامل ظهور الكتابة العربية التاريخية والنثر المرسل السلسال إذ عني المسلمون بجمع الأحاديث ليفسروا بها القرآن ويستنبطوا منها أحكام الدين، وكانت من هذه الأحاديث جملة وافرة تتعلق بحياة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام.

٣. أحسّ بعض الخلفاء بأنهم محتاجون إلى نبراس يهتدون بهديه في سلوكهم إذ لم يكن لهم ملجأ يأوون إليه كما أنهم رأوا ممالك أجنبة بهرتهم حضارتها فأحبوا أن يعرفوا كيفية سياستها ونظامها فقد كثرت المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية حتى هدمت نظام الخلافة الراشدة وأقامت نظام الملك وواجه العقل العربي الذي كان ساذجاً في جاهليته مشكلات حقيقية منها ما يمس الدين والحضارة ومنها ما يمس الحياة المادية والاجتماعية فرأى أنه لابد من الاستعانة بأخبار من سبقه من العقول ليستنير بها كما روى المسعودي عن معاوية.

"أنه كان بعد أن يفرغ من عمله يستمر إلى ثلث الليل في أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها وغير ذلك من أخبار الأمم السابقة ثم يدخل فينام ثم يقوم فيقعد فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحورب والمكايد فيقرأ ذلك غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسة(٢٧).

٤. كان الأجانب الذين أظلهم الإسلام يفخرون على العرب بتاريخهم وحضارتهم ويروون لهم أفعالهم المجيدة في ماضيهم فاضطر العرب إلى ابتكار تاريخ لهم يستطيعون به الوقوف بإزاء هذا الفخر الأجنبي ويظهر لأبنائهم الأخرى مجداً ومكانة وكان هذا من دواعي ظهور الكتابة

التاريخية في الأمة.

٥. كان نظام الحكومة الإسلامية وخاصة النظام المالي من العوامل التي أدت إلى قيام الحركة التاريخية للكتابة العربية وانتشارها لأن الضرائب على البلدان المختلفة تتباين حسب فتحها صلحاً أو عنوة أو بعهد وكانت المعاملة السياسية والاجتماعية نفسها تختلف في بعض البلدان تبعاً لما حدث في أثناء فتحها فدعا كل ذلك والنظام المالي خاصة إلى بحث تاريخ الفتوح والاستضاءة من الحديث النبوي الشريف والاستنارة من أحكام القرآن الكريم(٢٨).

فبهذه الدواعي الرئيسية والعوامل الجذرية تقدمت اللغة العربية تقدماً مدهشاً في بقاع العالم ولعب الحديث النبوي الشريف دوراً بارزاً في تطويرها.

الهوامش

(١) الشنطيقي محمد الأمين بن محمد، أستاذ مساعد بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة: السيرة النبوية في فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني ص٦٣٩/١، طبع بدولة الكويت.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل: المسند ٣٩٠/٣، ٣٢٢/٣- ٣٢٣، وانظر فتح الباري ٢٢٠/٧ للحافظ ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ).

(٣) الشيخ الندوي سيد أبو الحسن علي الحسني: السيرة النبوية ص٦٧، الطبعة العاشرة، دار الشروق، جدة للنشر والتوزيع ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، المملكة العربية السعودية.

(٤) إبراهيم عبد الخالق: خلاصة آداب اللغة ص٢٩- ٣٠، مطبعة أنوار أحمدي بإله آباد الهند اهتم بطبعه محمد إسماعيل اللكنوي بالهند.

(٥) يقول ابن عبد البر "كان زيد بن ثابت ألزم الصحابة بكتابة الوحي ابن عبد البر: الاستيعاب ٢٦/١، المكتبة العلمية بالمدينة المنورة.

(٦) الزرقاني محمد بن عبد الباقي بن يوسف أبو عبد الله المصري المالكي (ت١١٢٢هـ): شرح الزرقاني على المواهب ٣٢٣/٣، طبع لبنان، بيروت بدون التاريخ.

(٧) نفس المصدر ص٣٠.

(٨) الزير محمد بن حسن: القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية ص٥٨، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م بالمملكة العربية السعودية.

(٩) ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد (٨٠٨هـ): مقدمة ابن خلدون ص٥٨١ طبعة مصر.

(١٠) زيدان جرجي: تاريخ آداب اللغة العربية ١: ١٩٥، نشر دار مكتبة الحياة في بيروت لبنان ١٩٦٧م.

(١١) القاضي النعمان: شعر الفتوح الإسلامية ص١٢، طبع في بيروت، لبنان.

(١٢) ضيف شوقي: تاريخ الأدب العربي "العصر الإسلامي" ص٥، طبعة دار المعارف بمصر.

(١٣) يحيى الجبوري: الإسلام والشعر طبع في دمشق، الشام.

(١٤) بلبع عبد الحكيم الدكتور: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ص٧٢، لجنة البيان العربي، القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

(١٥) القرآن، العلق٩٦: ١- ٥.

(١٦) ابن سعد عبد الله بن سعد بن منيع الزهري (٢٣٠هـ):الطبقات الكبرى ١٤/٢، وانظر المسند للإمام أحمد بن حنبل ٤٧/٤ بتحقيق الأستاذ شاكر.

(١٧) حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر بيروت، لبنان.

(١٨) بلبع عبد الحكيم الدكتور: النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ص٧٣، لجنة البيان العربي القاهرة الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

(١٩) الزير محمد بن حسن: القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية ص٥٦، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م بالمملكة العربية السعودية.

(٢٠) نفس المصدر ص٥٧.

(٢١) النحوي عدنان علي رضا: الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار النحوي، الرياض بالمملكة العربية السعودية.

(٢٢) القرآن، البقرة٢: ٣١.

(٢٣) القرآن، الحجر١٥: ٩.

(٢٤) ابن دريد: المجتبى ص١٦، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد الدكن ١٣٦٢هـ.

(٢٥) الميداني أبو الفضل أحمد بن محمد: مجمع الأمثال، بيروت، لبنان الطبعة الثانية ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

(٢٦) الضبي أبو عكرمة: كتاب الأمثال، مطبعة دار الكتب، دمشق ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

(٢٧) نصّار حسين الدكتور: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ص١٨٠- ١٨١، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، نقلاً عن مروج الذهب ٥١/٢ للمسعودي، (تحقيق محي الدين عبد الحميد، طبع دار الأندلس، بيروت، لبنان ١٩٨١م).

(٢٨) نصار حسين الدكتور: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي ص١٨٠- ١٨١، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، مصر ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م (ملخصاً).

النهي عن الاكتناز والشح والإسراف والأمر بالحجر على السفيه

بقلم: الأستاذ أشرف شعبان أبو أحمد *

إن حبس المال عن التداول والكف عن الإنفاق في جميع أوجه الحياة الإنتاجية والاستهلاكية من شأنه أن يفسد التوازن المالي والتجاري والاقتصادي ويفسد معه التوازن الاجتماعي وبالفعل يعتبر الاكتناز عقبة أمام التنمية الاقتصادية في الدول النامية، فقد أبرزت دراسات بعض الخبراء في الأمم المتحدة: أن نسبة الاكتناز في بعض الدول النامية تصل إلى حوالي (١٠٪) من الدخل القومي، وبصفة خاصة في دول جنوب شرق آسيا، ودول الشرق الأوسط. إذ أن اقتطاع هذا الجزء واكتنازها إما في صورة نقود أو مصونات أو أي من السلع أو الصور الأخرى للاكتناز يحرم التنمية من دفعة مالية تنشطها، وقد توعد المولى ــ عزوجل ــ المكتنزين في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ. يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(التوبة: ٣٤- ٣٥) ولذا يجب ألا تصبح مسئلة الكنز شخصية أو فردية يترك حسابها إلى الله في الآخرة، يوم تكوى الجباه والجنوب والظهور؛ بل يجب أن تصبح مسئلة تشريعية تطالب الدولة المسلمة بمنعها عن طريق التشريع وعن طريق التنفيذ، وقد احتج بعض من رجال الدين ذات يوم بالقول "ما أديت زكاته ليس بكنز" للتدليل على أن حق المال هو الزكاة وحدها، وأن لا حرج في الكنز بعد ذلك، ولكن هناك حديثا صريحا يبين حدود الكنز، ويبين فيما يحتفظ بالباقي بعد الزكاة، حتى لا يكون كنزا، ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: (من جمع دينارا، أو درهما، أو تبرا، أو فضة، ولا يعده لغريم، ولا ينفقه في سبيل الله، فهو كنز يكوى به يوم القيامة).

وذهب البعض، ومنهم سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (ما كثر من المال فهو كنز وإن أديت زكاته) وبناء على هذا الرأي فإن المال يجب أن ينفق في سبيل الله أو يوضع في المشاريع الاقتصادية ليخرج عن كونه كنزا.

وعن أبي سعيد الخدري، عن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال: (من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له ....) يقول أبو سعيد فذكر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصناف من المال غير الظهر والزاد حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل، وإن الظهر والزاد لم تذكر على سبيل الحصر وإنما ذكرت على سبيل المثال كما هو معلوم، ويحرم الادخار أيام الشدائد والأزمات التي تتعرض لها الأمة،

* شارع محمد مسعود متفرع من شارع أحمد إسماعيل وابور المياه – باب شرق – الإسكندرية ، جمهورية مصر العربية.

وقد وصل الأمر ببعض الصحابة إلى القول بتحريم الادخار دائما وتحديد الكنز: بأنه ما زاد عن حاجة يومك في كل الأوقات.

ومن الآثار السلبية للاكتناز انتشار الربا وما يحدثه من أزمات اقتصادية، وقد ظهرت في فترات تاريخية متباعدة محاولات متفرقة للقضاء على ظاهرة الاكتناز، والاقتراض الربوى، وقد أتت بنتائج جيدة ولكن سرعان ما اجهضت هذه المحاولات، ومن الطبيعي أن يحارب مثل هذا النظام الذي يقضي على الفائدة الربوية وعلى طبقة المرابين التي تعمل على تجميع المال، واكتنازها بهدف الحصول على أغلى فائدة النهي عن الشح: قال تعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(الحشر:٩) وقال تعالى ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران:١٨٠) وقال عليه الصلاة والسلام (ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع واعجاب المرء بنفسه) وقال (اللهم إنى أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر) .

وقال كعب: ما من صباح إلا وقد وكل بعد ملكان يناديان اللهم عجل لممسك تلفا وعجل لمنفق خلفا، وقال عليه الصلاة والسلام: (إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم) وقوله: (فإنه أهلك من كان من قبلكم) يحتمل أنه يريد الهلاك الدنوي والمسبب له وهو شحهم على حفظ المال، وجمعه وازدياده، وصيانته عن ذهابه فى النفقات فضموا إليه مال الغير صيانة له، ولا يدرك مال الغير إلا بالحرب والعصبية المفضية إلى القتل، واستحلال المحارم أو غيرها من الطرق غير شرعية التي تملي القلوب بالبغضاء والكراهية، ويحتمل أن يراد به الهلاك الأخروي، فإنه ينتج عما اقترفوه من ارتكاب هذه المظالم، والظاهر حمله على الأمرين.

والمال إن كان غير متوفر فينبغي أن يكون حال العبد القناعة، وإن كان متوفرا فينبغي أن يكون حاله الإيثار والسخاء واصطناع المعروف والتباعد عن الشح والبخل، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء ـــ عليهم الصلاة والسلام ـــ وهو أصل من أصول النجاة، قال عبد الله بن عمرو قال رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ (خلقان يحبهما الله، وخلقان يبغضهما الله، فأما اللذان يحبهما الله تعالى فحسن الخلق والسخاء وأما اللذان يبغضهما فسوء الخلق والبخل وإذا أراد الله بعبد خيرا استعمله في قضاء حوائج الناس) ويقص لنا القرآن الكريم جزا من بخل بماله عن إعطاء الفقراء والمساكين حقهم فيه، ففي سورة القلم يقص علينا قصة أصحاب الجنة الذين تواعدوا أن يقطفوا ثمارها بليل؛ ليحرموا منها المساكين الذين اعتادوا أن يصيبوا شيئا من خيرها يوم الحصاد، فحلت بهم عقوبة الله العاجلة، قال جل شانه﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ. فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ . فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ. أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ. فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ. أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ. وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ. فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ. بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ. قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ. قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ. عَسَى رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ. كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾(القلم:١٩- ٣٣) والذين يسهرون على جمع المال ولا يقضون وقتا إلا في إنمائه وزيادته لا يعرفون في الدينا مفرح أو محزن إلا في حساباتهم ومدخراتهم في البنوك، فهولا قال فيهم ـ عليه الصلاة والسلام ـــ (تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، إن أعطي

رضي، وإن لم يعط لم يرض) أخرجه البخاري، أراد بعبد الدينار والدرم من استعبدته الدنيا بطلبها وصار كالعبد لها لينالها تتصرف فيه تصرف المالك ليفالها وينغمس في شهواتها ومطالبها، وذكر الدينار والقطيفة مجرد أمثال وإلا فكل من استعبدته الدنيا في أي أمر وشغلته عما أمر الله تعالى وجعل رضائه وسخطه متعلقا بنيل ما يريد أو عدم نيل فهو عبده.

وفي الشح والتفرقة بينه وبين البخل أقوال منها: إن الشح أشد من البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص، وقيل البخل في بعض الأمور والشح عام، وقيل البخل بالمال خاصة والشح بالمال والمعروف، وقيل الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده.

والبخل داء له دواء وداء، البخل سببه أمران: الأول: حب الشهوات التي لا يتوصل إليها إلا بالمال وطول الأمل، والثاني: حب ذات المال والشغف به وببنائه لديه، وعلاج حب الشهوات القناعة باليسر وبالصبر، أما علاج طول الأمل بالاكثاد من ذكر الموت، وذكر موت الأقران، والنظر في ذكر طول تعبهم في جمع المال، ثم ضياعه بعدهم، وعدم نفعه لهم، وقد يشح بالمال شفقة على من بعده من الأولاد، وعلاج هذا أن يعلم أن الله هو الذى خلقهم فهو رزقهم وينظر في نفسه، فإنه ربما لم يخلف له أبواه فلسا ثم ينظر ما أعده الله ــ عزوجل ــ لمن ترك الشح وبذل من ماله في مرضاة الله، وينظر في الآيات القرآنية الحاثة على الجود المانعة عن البخل، ثم ينظر في عواقب البخل في الدنيا فإنه لابد لجامع المال من آفات تخرجه على رغم أنفه، فالسخاء خير كله ما لم يخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه، وقد أدب الله عباده أحسن الآداب فقال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان:٦٧) فخيار الأمور أوسطها وخلاصته على من وجد عند مفضل ما أنفقه في وجوه المعروف بالتي هي أحسن، ويكون بما عند الله أوثق منه بما هو لديه ومن لم يكن لديه مال لزم القنائة.

النهي عن الإسراف يلفت القرآن الكريم النظر إلى أن حرية التملك التي أباحها الإسلام للفرد مقيدة بعدم الطغيان وعدم الإفساد وعدم الإسراف، قال تعالى ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾(طه:٨١) وقال ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾(البقرة:٦٠) وقال ﴿كُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾(الأعراف:٣١) وقد أشارت إلى ذلك الأحاديث النبوية منها (كلوا واشربوا والبسوا في غير إسراف ولا مخيله) فليس للإنسان أن يسرف في طعامه أو شرابه أو لباسه وأمور معيشة، ولا يجوز له أيضا أن يقتر على نفسه ومن يحولهم، وعليه أن يتوسط بين الأمرين، وأن لا يجاوز حدود الاعتدال، فقد حرم الله السرف وبسط اليد في المال، كما حرم التقتير وقبض اليد عن النفس بما هي محتاجة إليه، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(الفرقان:٦٧) وقال ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾(الإسراء:٢٩) ويطبق المسلم القوامة بين الإسراف والاقتار في حدود سعته المالية وذلك إعمالا لقوله تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾(الطلاق:٧)

ولا خير في مؤمن قد جعل كل همة ومتعة ومقصدة في حياته الدنيا ملء بطنه بما يمكنه الحصول عليه من طعام، حتى لقد ينفق في سبيل ذلك كل ماله وكسبه، وما أصدق قول رسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ـ في وجوب الاعتدال في الطعام! إذ يقول: (نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع) وقال (ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه، حسب

ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لابد، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) وقالت عائشة رضي الله عنها: أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبينا الشبع، فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وحجمت شهواتهم، وأخرج البيهقي عن عائشة رضى الله عنها قالت: رآني النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أكلت في اليوم مرتين فقال: يا عائشة أما تحبين أن يكون لك شغل إلا جوفك؟ الأكل في اليوم مرتين من الإسراف، والله لا يحب المسرفين، وعند ابن الأعرابي عن عائشة رضي الله عنها قالت: جلست أبكي عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: ما يبكيك؟ إن كنت تريدين اللحوق بي فليكفك من الدنيا مثل زاد الراكب ولا تخالطين الأغنياء ولا تستخلقي ثوبا حتى ترقعيه، وأخرج الطبراني عن جعدة رضي الله عنه أن النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ رأى رجلا عظيم البطن فقال بإصبعه في بطنه: لو كان هذا في غير هذا لكان خيرا لك.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن عمر رأى في يد جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ درهما فقال: ما هذا الدرهم؟ فقال: أريد أن أشتري لأهلي به لحما فرموا إليه فقال عمر: أكل ما اشتهيتم شيئا اشتريتموه؟ أين تذهب عنكم هذه الآية ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ (الأحقاف:٢٠)، دخل عمر على ابنه عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ وإن عنده لحما، فقال ما هذا اللحم؟ قال: اشتهيته، قال: وكلما اشتهيت شيئا أكلته؟ كفى بالمرء سرفا أن يأكل كل ما اشتهاه.

وإذا كان رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ اعتبر الأكل مرتين في اليوم إسرافا وسيدنا عمر رضي الله عنه اعتبر أكل كل ما يشتهي إسرافا، فما رأيهما فيما يلي: نشرت الصحف الفرنسية في صدر صفحتها الأولى قصة عربي مسلم خسر في ليلة واحدة خمسة وثمانين مليونا من الفرنكات على مائدة القمار، وتقول الصحيفة إن هذا العربي المسلم لم يكتف بهذه الخسارة بل قدم بقشيشا مقداره خمسة ملايين أخرى إلى الفتيات اللاتي كن في خدمته طوال هذه السهرة، وقد حدث في لندن منذ سنوات أن عربيا ركب سيارته الرولز، وأخذ ينتقل بها من حي إلى آخر، وكلما مر على مجمعة من الناس ألقى عليهم من نافذة سيارته بألوف الجنيهات، وبدلا أن تمطر سماء لندن كما هي العادة بردا وثلجا فوجي ألناس بهذه السماء، وهي تمطرهم ذهبا أن عدد القصور التي اشتريت أو بيعت إلى عرب في أنحاء برطانيا هذه القصور المغلقة، والتي لا يسكنها أحد إلا الأسبوع أو يومين فقط، لقد تجاوزت قيمة هذه القصور كما تقول إحدى الصحف ميزانية أكبر دولة في أفريقيا، والعجب أن لأصحاب هذه القصور قصورا أخرى في أي مكان، تصل إليه طائرة أو يصل إليه شاطئه يخت أو باخرة، إن مزرعة خيول السباق في بريطانيا ببلايين الدولارات وأصحابها عرب، عربي مسلم دفع صهرا لأمرة مائة وخمسين مليون دولار واشترى لها سبع سيارات من ماركات مختلفة لكل يوم من أيام الأسبوع سيارة، بالإضافة إلى طائرة تنتظر كلمة منهما أو إشارة.

رجل يتزوج من ممثلة ويجهز شقتها بإثنين وعشرين مليون جنيه، ويضع تحت تصرفها ست سيارات من كل جنس ولون، عربي ذهب إلى عاصمة أوربية في طائرة خاصة (جامبوجت) كانت الطائرة كلها مشحونة بالخدم والحشم ومئات الحقائب وعشرات المرافقين، رجل ذهب إلى أحد مسارح باريس قد أراد المسرح خاليا من المتفرجين لمزاجه الخاص ودفع ثمن مئات التذاكر مضاعفا ليخلو له الجو مع الممثلات والممثلين، وفي لندن ذهب واحد من هؤلاء إلى محل مشهور

كبير بعد أن أغلق، فطلب من المدير أن يفتحه واشترى في وقت قصير ضعف ما باعه المحل في اليوم كله، ولكن بثمن مضاعف وبأجر مماثل للموظفين الذين استدعوا من بيوتهم في يوم بارد وعاصف، وغيرها من أوجه السرف كثير وكثير يخجل المسلم الحق عن روايتها وكتابتها.

عموما فإن الإسراف والاقتتار يؤدي كل منهما إلى أضرار اقتصادية واجتماعية، بالإضافة إلى الأضرار الصحية والنفسية، التي تصيب السرف أو الترف ومن حولهما، فضلا عن حرمانه حق غيره فيما رزقه الله، ومن هذه الأضرار الاقتصادية حدوث التضخم وما يتبعه من غلاء الأسعار وحدوث التفاوت في الدخول وإضرار أصحاب الدخول المنخفضة، أما في حالة الاقتتار فيؤدي إلى حدوث الكساد، وما يستتبعه من هبوط الانتاج والاستغناء عن العمالة وحدوث البطالة.

أما الأضرار الاجتماعية فإن المترفين لا يستجيبون لدعاوي الإصلاح، بل يعارضونها ويقاومونها ولذلك فهم يتأولون رسالات الأنبياء ويكذبون بها، ويؤدي الإفساد والصد عن دعاوي الإصلاح وتكذيب الأنبياء إلى هلاك البلاد في الدنيا والعذاب في الآخرة، وتوضح لنا ذلك الآية الكريمة ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (سبا:٣٤) كما نص علينا القرآن أخبار من ذهبت ريحهم قبلنا ونقل هلاكهم في الدنيا وعذابهم في الآخرة، بأنهم (كانوا قبل ذلك مترفين) وقال عنهم (واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين) والمترفون كانوا على مدار التاريخ من أسباب وعلامات انهيار وهلاك المجتمعات والشعوب، قال تعالى ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦)

هذا والترف لا يقوم إلا على حساب الشظف في فريق كبير من أبناء الأمة فعن دماء الجماهير وجهودها ومن ضرورياتها وحاجاتها يستمد هذا النفر المترف لذاته وكمالياته.

ولما كان و جود فرائض المال في أيدي المترفين دافعا لنفاقها على موائد الخمر والميسر ومضاجيع البغايا أوجب الإسلام أن تحد الدولة من إسرافهم، وتهذب من سفههم، وتقيد من طغواهم، وترد من فضول أموالهم على الفقراء والمحرومين والأيتام بدلا من مصارفها تلك الخبيثة الحرام، حيث (مبدا سد الذراع) يتدخل هنا، ويفرض على الدولة أن تنزع من أيدي المترفين سلاحهم في الفساد والإفساد.

فمبدأ سد الذراع هو مبدأ الوقابة من الاحتمالات المنتظرة وهو الذي يحرم الوسيلة إذا كانت تؤدي إلى غاية محرمة، ولو كانت هذه الوسيلة بذاتها غير محرمة، ووجود المال الفائض في أيدي هؤلاء هو الوسيلة التي يجب منعها اتقاء للعاقبة.

الحجر على السفيه: الحجر في اللغة التضييق والمنع، ومعناه في الشرع منع الإنسان من التصرف في ماله، والحجر ينقسم قسمين: الأول: الحجر لحق الغير، مثل الحجر على المفلس فإنه يمنع من التصرف في ماله محافظة على حقوق الغرماء، فقد حجر الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ على معاذ، وباع ماله في دينه، فمن له مال، ولكنه لا يفي بديونه، فإنه يجب على الحاكم أن يحجر عليه متى طلب الغرماء أو بعضهم ذلك منه حتى لا يضر بهم، وله أن يبيع ماله إذا امتنع عن بيعه ويقع بيعه صحيحا، لأنه يقوم مقامه،

الثاني: الحجر لحفظ النفس مثل الحجر على الصغير والسفيه والمجنون؛ فإن في الحجر على هؤلاء مصلحة تعود عليهم بخلاف العكس، ويحجر على السفيه

البالغ لسفهه وسوء تصرفه، قال تعالى ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ (النساء:٥)، دلت الآية على جواز الحجر على السفيه، قال ابن المنذر: أكثر علماء الأمصار يرون الحجر على كل مضيع لماله صغيرا كان أم كبيرا.

وفي نيل الأوطار، قال في البحر: والسفه المقتضي للحجر عند من أثبته هو صرف المال في الفسق أو فيما لا مصلحة فيه ولا غرض ديني ولا دنيوي كشراء ما يساوي درهما بمائة، لا صرفه في أكل طيب، ولبس نفيس، وفاخر المشموم، وكذا لو أنفقه في القرب.

وسنستعرض آراء المذاهب الأربعة في الحجر على السفيه:

الحنفية قالوا: يعرف السفيه هو الذي لا يحسن إدارة ماله فينفقه فيما لا يحل، وفي البطالة، ويعمل فيه بالتبذير والإسراف، ومن الإسراف الموجب للحجر دفع المال إلى المغنيين واللاعبين وشراء الحمام والديكة ونحوهما بثمن غال (فيه) وصرف الأموال في المغامرة وغير ذلك من الإنفاق في غير ما يقتضيه العقل والشرع وكذلك إذا أنفق ماله كله في عمل من أعمال الخير كبناء مدرسة أو مسجد أو غيرهما، فإنه يعد سفيها ويحجر عليه؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ إنما كلف الإنسان بعمل الخير إذا كانت حالته المادية تسمح بذلك بحيث لا ينفق ماله ويفلس من أجل الخير.

المالكية قالوا: السفه هو التبذير وعدم حسن التصرف في المال فمتى اتصف الشخص بذلك سواء كان ذكرا أو أنثى فإنه يكون مستحقا للحجر عليه.

الشافعية قالو: السفيه هو المبذر في ماله وهو الذي ينفقه فيما لا يعود عليه بمنفعة عاجلة أو آجلة كأن يقامر أو ينفقه في اللذات المحرمة المضارة بالبدن والعرض والدين، كالزناء وشرب الخمر، أو ينفقه في المكروهات، كأن يشرب به الدخان أو يضيعه بسوء تصرفه، كأن يبيع ويشتري بالغبن الفاحش، إذا كان لا يعلم به، أما إذا تساهل في بيعه وشرائه، وهو عالم، فإن ذلك لا يعد بسفه لأنه يكون من باب الصدقة، وكذلك إذا أنفق ماله في وجوه البر والخير، كبناء المساجد والمدارس والمصحات والتصدق على الفقراء والمساكين، فإنه لا يكون بذلك سفيها، بل لوأنفق ماله في اللذات المباحة كالملبس والمأكل والمشرب، ولو توسع في ذلك بما لا يناسب حاله، فإنه لا يعد سفيها ومثل ذلك ما إذا أنفقه في التزوج ونحوه من كل متاع حلال؛ فإنه يكون قد أنفقه في مصرفه؛ لأن المال خلق لينفق في الخير وفي الاستمتاع بما أحله الله.

الحنابلة قالو: السفيه هو الذي لا يحسن التصرف في ماله فإذا كان الشخص البالغ سفيها لا يحسن التصرف فإن الحجر عليه يكون من حق الحاكم.

والرأي الأكيد من كل ما سبق أن الإسلام شرع الحجر على التملك الفردي إذا أنفق المال المملوك في الفساد والانحلال، واستعمل في الخمر والزنا والقمار والجري وراء الشهوات والملذات على النحو الذي ذكرناه سالفا، والأصل في ذلك قوله تعالى ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ (النساء:٥)، وفي تعبير القرآن ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ﴾ إشارة إلى أن الانتفاع بهذا المال هو من مصلحة المجتمع، ففي حالة السفه يجب أن يمنع عن صاحبه ويشغل لما فيه نفع المجتمع، ولا يجوز دفعه له إلا إذا أنسنا منه رشدا أو بارقة من صالح، فلا يعقل أن تضيع أموال المسلمين بهذا العبث بينما هناك من يموتون من الجوع والمرض لا يجدون بضع قروش لسد جوعهم وعلاج أمراضهم.

❖❖❖

من ماض مجيد إلى حاضر عظيم

بقلم: الأستاذ تنوير خالد القاسمي ❖

ما ذا كنا

الإسلام هو الذي نفخ في العرب روح الأخلاق والحضارة، قبل جميع الأديا، ثم تلقى العالم هذه الدروس من العرب؛ لأن مهود الحضارة والثقافة في الهند، وروما، وفارس أصبحت مسرح الفوضى والاحتلال، وكانت تعاني التدهور الخلقي و الاجتماعي؛ فكان العالم تسيطر عليه روح الجاهلية، ويتعفن ضميره، وتاس روحه، وتختل فيه القيم والمقياييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر، والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية من الكفر والضلال والظلام.

ولكن الإسلام هو الذي قام بدور بارز في حياة البشرية في تخليص روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وانقذ المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهيار ـ وبنى العالم على أسس جددة من العفة والنظافة والإيجابية، والبناء والحرية والتجديد ـ وهدى إلى العمل الدائب لتنمية الحياة وترقيتها، وأعطى كل ذي حق حقه.

وهذا التقدم الإسلامي لم يقتصر على العلوم الأخلاقية والثقافية؛ بل استمر إلى الفنون الحديثة، والعلوم الطبيعية، والهندسة وما إلى ذلك من الحديث الأحدث، فكان في العالم الإسلامي جامعات وكليات، وكان الطلاب يرتحلون إلى هذه المناهل العلمية من كافة بلدان العالم؛ لأن المسلمين كانوا أئمة بلا نزاع في علوم الحساب، والفلسفة، والهيئة والجغرافية، كما كانوا قدوةً في صناعة السفن والأسطولات، والمدافع الضخمة، بالإضافة إلى أنهم صاروا المثل الأول الكامل في البحارة والملاحة؛ حتى لا تتم الهيئة، والكيمياء، والجغرافية، والطب، والتشريح، والفلسفة، والهندسة، والتشريح، والتاريخ؛ إلا بذكر المسلمين؛

لأن المسلمين كانوا أئمة بلا نزاع في علوم الحساب، والفلسفة، والهيئة والجغرافية، كما كانوا قدوةً في صناعة السفن والأسطولات، والمدافع الضخمة، بالإضافة إلى أنهم صاروا المثل الأول الكامل في البحارة والملاحة؛ حتى لا تتم الهيئة، والكيمياء، والجغرافية، والطب، والتشريح، والفلسفة، والهندسة، والتشريح، والتاريخ؛ إلا بذكر المسلمين؛

ولكن كما نعلم أن أوربا تتعود بأن ترفض خدمات المسلمين، وتنصب على جميع الرقي قديما وجديداً لافتة أسماء الغرب، وتؤكد أن كلا من التقدم والتطور مرهون بالغرب ـ وجعلوا من شجع صناعة المسلمين واختراعاتهم قليلا، موجدًا ـ وسلكوا مسلك تغيير أسماء العلماء المسلمين؛ حتى تظهر الأسماء المتغيرة أسماء الغرب مثلا:

جابر بن حيان (GEBER)

❖ جامع العلوم الرشيدية، سيتامرهي، بيهار. الهند. tanweerkhalid79@gmail.com

موسى الخوارزمي (ALGORISM)
أبومعشر البلخي (ALFARGANUS)
إسحاق الكندي (ALKINDUS)
حنين بن إسحاق (JOHANNITUS)
محمد الرازي (RHAZES)
جابر البتاني (ALBATENIUS)
عبد الرحمان الصوفي (AZOPHI)
أبو القاسم الزهراوي (ALBUCASIS)
أبو علي بن سينا (AVICENNA)
ابن الهيثم (ALHAZEN)
أبو حامد الغزالي (ALGAZEL)
ابن رشد (AVENROES)
ابن باجة (AVENPACE)
ابن زهر (AVENZOAR)
ابن ميمون (MAIMONIDES)
ابن النفيس (ANNAFIS)
أبو نصر الفارابي(ALFARABIUS)

فهذه المؤامرات المتواصلة أرخت ستار الكذب وإفساد التاريخ على خدمات المسلمين، وجعلت المسلمين معوزين في العلوم العصرية المختلفة؛ مما يُظن أنهم صفر الأيدي في المجالات العلمية والتكنولوجية قديمًا وجديدًا، إضافةً إلى إن كثيرًا من الناس يشهدون للمسلمين بالفضل قديمًا فحسب؛ فهم يقولون إن المسلمين قاموا بالأدوار الجليلة في الماضي؛ ولكن الآن هم مفلسون، ليس لهم خل ولا تمر في المجالات العلمية والتكنولوجية؛ فلا لهم في الطب وزن؛ ولا في الهندسة مقام؛ ولا في التكنولوجية مكانة ..... كما أنهم مجردون عن الأخلاق والثقافة، ومعوزون في التمدن والحضارة.

بأن المسلمين (الذين لا يبالون التعاليم الإسلامية، ولا يحبون بلادهم حبا كاملا، يُشغفون بأراضيهم المتوارثة، وبيئاتهم التي ربت آباءهم، وينحرفون عن سيرتهم الأولى) يتعرضون للحرص في الأموال والثروات، وللشراهة في المادية، وأصبحوا عباد البطون الشخصية، وتحسين الحياة المادية، ولا يعملون على تقدم بلادهم؛ بل هم يجندون كل طاقاتهم ومؤهلاتهم لتكثير الأموال الشخصية.

العامل الرئيس القوي

ولكن البحث فيما تلاقيه الأمة المسلمة (من الاضمحلال، والتخلف، والهبوط، والتردي...) يكشف القناع عن صدق مدهش، بأن المسلمين (الذين لا يبالون التعاليم الإسلامية، ولا يحبون بلادهم حبا كاملا، يُشغفون بأراضيهم المتوارثة، وبيئاتهم التي ربت آباءهم، وينحرفون عن سيرتهم الأولى) يتعرضون للحرص في الأموال والثروات، وللشراهة في المادية، وأصبحوا عباد البطون الشخصية، وتحسين الحياة المادية، ولا يعملون على تقدم بلادهم؛ بل هم يجندون كل طاقاتهم ومؤهلاتهم لتكثير الأموال الشخصية، ولا يحفلون بأن بلادهم هي التي أجدر بخدماتهم، وأحق بمواهبهم؛ لا الغرب التي ترمي إليهم الكسرة من الخبر البائت، والعظم اليابس؛ فيفرحون بها ويرضون عنها؛ ولكن هذا الطمع يجني عليهم البعد عن الأصدقاء، والسلب حب الأقرباء، والنزع عنهم ود الزملاء، والتفويت عليهم فرصة الإيفاء، لحق البلاد ومن فيهم. إن الغرب تمنحهم خيرًا، وتحفل حياتهم ترفةً ومتعةً؛ ولكن بلادهم تعود متخلفةً ومتردية، ولا شك في أن تحصل لهم المنازل الشامخة، وتجري بهم السيارات الفاخرة، وتطير بهم الطائرات العالية؛ ولكن ذلك يفرق حطام العيدان من عشش قومهم، ويصعب المشي على أقدامهم، ويدفع بلادهم إلى مزيد من أوحال الاستنزاف. إن الغرب تدر عليهم شيءا من الخير؛ ولكن يأخذ من بلادهم الخسران المادي والفكري كل مأخذ.

العقول الفعالة والأذهان الذكية بدات تهاجر إلى الغرب ويجري السباق بينهم للحصول على التاشيرة إلى "أمريكا" وأخواتها من الدول الأوربية، وهناك لا بأس أن يشافر إلى البلاد الأجنبية لكسب الخير؛ لأن التنعم والعيشة الراضية من العواطف الطبيعية الغريزية؛ إلا أن العواطف لا تقتصر على ذلك؛ حتى

لا تبقى علاقة ما بين المهاجرين وبين أوطانهم الأصلية يومًا فيومًا. ويتنحون عن ما وجدوا عليه آباءهم من الحضارة والثقافة، ويناون بجانبهم عن هوياتهم الاصلية، وتقاليدهم الوراثية، وتتحول أفكارهم، وتطلعاطهم؛ فهم يفكرون بعقول "أوربا" وأذهانها، فهم يتبعون أوربا، ويعتنقون وجهات النظر الأوربية في مراق الحياة جميعاً، مما أسفر عن تحول أوطانهم الأصلية بما تجمع من التقاليد،والأقدار، والاتجاهات، وتتمثل لهم بلادًا أجنبيةً، وتواجه أكبر الخسائر المادية والكفرية - حتى نرى أن عدد الأطباء الجزائريين في "باريس" أكبر من عدد كل الأطباء في الجزائر - وكذلك الأطباء الإيرانيين.....

يقول البروفيسور "باكنز" رئيس جامعة" كورتل" الأمريكية: أنه قد هاجر في الفترة من ١٩٤٩م إلى ١٩٦١، ٤٣ ألف مهندس، و١١ ألف طبيب، من البلاد الإسلامية إلى أوربا، وإحصائية أخرى ان العلماء الذين هاجروا من ديار المسلمين إلى أمريكا من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٧، ١٠٩٢٥٣، عالمًا.

وكشف التقرير عام ٢٠١٠م أن ٥٠٪ من الأطباء العرب، و٢٣٪ من المهندسين، و١٥٪ من العلماء يهاجرون إلى الولايات المتحدة و "كندا" سنويًا، ويا للاسف أن الصغار يحذون حذو الكبار؛ فنرى أن ٥٤٪ من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج، لا يعودون إلى بلادهم بعد استكمال الدراسة الجامعية. هذه التقريرات تقريرات العرب فقط؟ كيف إذا تكون على المستوى العالمي الإسلامي!؟

ما هو الحل

إن هذه الإحصائات المدهشة المؤلمة تدعو البلاد الإسلامية إلى أن تقوم بمبادرة لا قانونية دافعة؛ بل تر غيبية مبشرة تصد الباب على الهجرة التي تؤدي الأمة المسلمة إلى حالة نزيف عقلي وفكري، وخسران مالي ومادي؛ فيعطي كل ذي حق حقه، ويشجع كل من لديه موهبةٌ على موهبة ويقد، وذلك لا يدر الخير لهم فحسب؛ بل هو الذي تمضي به البلاد الإسلامية على سبيلها قدمًا متقدمةً؛ كما ينبغي لأصحاب المؤهلات أن يعدوا الأمة الإسلامية أخرى وأولى بتضحياتهم، وأن يهبوا مواهبهم من أجل الأمة المسلمة؛ انطلاقاً من عواطف المحبة، والخدمة، في سبيل تطوير البلاد الإسلامية وتقدمها، وأن لا يمدوا أعينهم إلى ما تغرى به البلاد الأجنبية من الأموال الكثيرة، وتسهيلات المطلوبة في نعس بلادهم بدون الهجرة إلى الخارج، ويكسبون لأنفسهم خيرًا كثيرًا في بيئاتهم وبلادهم المتوارثة.

أنه قد هاجر في الفترة من ١٩٤٩م إلى ١٩٦١، ٤٣ ألف مهندس، و١١ ألف طبيب، من البلاد الإسلامية إلى أوربا، وإحصائية أخرى ان العلماء الذين هاجروا من ديار المسلمين إلى أمريكا من ١٩٦٦ إلى ١٩٧٧، ١٠٩٢٥٣، عالمًا. وكشف التقرير عام ٢٠١٠م أن ٥٠٪ من الأطباء العرب، و٢٣٪ من المهندسين، و١٥٪ من العلماء يهاجرون إلى الولايات المتحدة و "كندا" سنويًا، ويا للاسف أن الصغار يحذون حذو الكبار؛ فنرى أن ٥٤٪ من الطلاب العرب الذين يدرسون في الخارج، لا يعودون إلى بلادهم بعد استكمال الدراسة الجامعية. هذه التقريرات تقريرات العرب فقط؟ كيف إذا تكون على المستوى العالمي الإسلامي!

جهود خالد بن عبد الله القسري

في رعاية المسجد الحرام في العصر الأموي

د. فيصل عبد الله بني حمد ❖

نالت مكة وما تزال أهمية كبيرة لدى المسلمين، ففيها أول بيت وضع للناس، وهي قبلة المسلمين، ومهبط الرسالة المحمدية، وعلى ثراها ترعرع خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ. لذا حرص الخلفاء في العصر الأموي على اختيار معظم ولاة الحجاز من أبناء البيت الأموي وذلك لثقتهم بهم من ناحية، ومكافأة لهم على جهودهم الكبيرة في تثبيت أركان الدولة من ناحية أخرى.

كما اكتسبت مكة أهمية خاصة من جانب الخلافة الأموية، لكونها كانت مركزاً لأقطاب المعارضة الأموية، لذا اختار الخلفاء لإدارة شؤونها من يتوسمون فيه الكفاءة والقدرة ، وكان من بين هولاء الولاة خالد بن عبد الله القسري الذي تولى إدارة أمورها في أواخر عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٥-٩٦هـ) وبداية عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ) أي ما بين عامي (٩١- ٩٦هـ) إذ مكث في الحكم حوالي خمس سنوات.

لقد كان لخالد بن عبد الله القسري منجزات واضحة خلال ولايته على مكة وخاصة ما يتعلق بالمسجد الحرام فقد أمر بإضاءة المسجد الحرام حيث وضع مصباحاً كبيراً يعرف بمصباح زمزم مقابل الركن الأسود.

ومنعاً لاختلاط الرجال بالنساء في الطواف اجلس عند كل ركن حرساً معهم السياط يفرقون بين الرجال والنساء. ويروي الازرقي عن جده قال: " : سمعت سفيان بن عيينه يقول: خالد القسري أول من فرق بين الرجال والنساء في الطواف".

ولعل السبب الذي دفع خالد بن عبد الله القسري للقيام بهذا العمل ما بلغه من قول بعض الشعراء:

يا حبذا الموسم من موفد
وحبذا الكعبة من مشهد
وحبذا اللاتي يزاحمننا
عند استلام الحجر الأسود

فقال خالد: أما أنهن لا يزاحمنك بعد هذا فأمر بالتفريق بين النساء والرجال في الطواف.

ولم يكتف خالد القسري بتلك الأعمال فحسب؛ بل عمل على تنظيم الطواف وقت القيام في شهر رمضان الكريم، فقبل ولايته على مكة كان الناس يصلون القيام في أعلى المسجد الحرام، إذ توضع حربة خلف المقام بربوة فيصلي الإمام خلف الحربة والناس وراءه، فمن أراد صلى مع الإمام ومن أراد طاف بالبيت وركع خلف المقام.

فعندما تولى خالد القسري مكة وحضر شهر رمضان أمر القراء أن يتقدموا فيصلوا خلف المقام، وأدار الصفوف حول الكعبة، وذلك أن الناس ضاق عليهم أعلى المسجد فأدارهم حول الكعبة فقيل له: تقطع الطواف لغير المكتوبة قال: فانا آمرهم يطوفون بين كل ترويحتين سبعا فأمرهم ففصلوا بين كل ترويحتين بطواف سبع، فقيل له: فانه يكون في

❖ قسم التاريخ/جامعة حفر الباطن

مؤخرة الكعبة وجوانبها من لا يعلم بانقضاء طواف الطائف من مصل وغيره فيتهيأ للصلاة، فأمر عبيد الكعبة أن يكبروا حول الكعبة يقولون: الحمد لله والله اكبر، فإذا بلغوا الركن الأسود في الطواف السادس سكتوا بين التكبيرتين سكتة حتى يتهيأ الناس ممن في الحجر ومن في جوانب المسجد من مصل وغيره فيعرفون ذلك بانقطاع التكبير ويصلي ويخفف المصلي صلاته ثم يعودون إلى التكبير حتى يفرغوا من السبع، ويقوم مسمع فينادي الصلاة رحمكم الله، قال الازرقي: " وكان عطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار ونظراءهم من العلماء يرون ذلك ولا ينكرونه".

ومن الأعمال المهمة التي تسجل لهذا الوالي تزينه الكعبة بالذهب فقد أمر بضرب تلك الصفائح الذهبية على بابها وأساطينها وأركانها وميزابها، وانفق على ذلك العمل العظيم ما يقرب من ثلاثين ألف دينار، وقد وصل هذا المبلغ من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك . وبهذا الانجاز الكبير يعد خالد القسري أول من ذهب البيت في الإسلام.

لقد نالت تلك الأعمال المتميزة التي قام بها ذلك الوالي في خدمة البيت الحرام احترام الناس وتقديرهم له. كما أعجب بتلك المنجزات الجليلة الخليفة الوليد بن عبد الملك حين أدى مناسك الحج سنة ٩١هـ

والى جانب هذه الأعمال العظيمة التي قام بها خالد القسري فقد حرص على حل مشكلة المياه في مكة، وذلك بتوفير الماء لأهلها والقادمين إليها لا سيما في موسم الحج، ففي عام ٩٣هـ/ ٧١٠م عمل على جر الماء العذب من منطقة منى إلى بركة أقيمت بجوار باب الصفا في المسجد الحرام , وقد تم سحب الماء عبر أنابيب خاصة مصنوعة من الرصاص.

وكانت تلك البركة تعرف ببركة القسري نسبة إلى خالد القسري، وقد ذكر الازرقي أن ما قام به هذا الوالي كان بتكليف من قبل الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ) إذ كتب إلى خالد بن عبد الله القسري:" أن اجر لي عينا تخرج من الثقبة (جبل بين حراء وثبير بمكة وتحته مزارع)، من مائها العذب الزلال، حتى تظهر بين زمزم والركن الأسود، ويضاهى بها ماء زمزم، قال: فعمل خالد بن عبد الله القسري البركة التي بفم الثقبة، يقال لها: بركة القسري، ويقال لها أيضا: بركة البردي ببير ميمون ... فعملها بحجارة منقوشة طوال، واحكمها وانبط ماءها في ذلك الموضع، ثم شق لها عينا تسكب فيها من الثقبة، وبنى سد الثقبة واحكمه،... ثم شق من هذه البركة عينا تجري إلى المسجد الحرام، فأجراها في قصب من رصاص، حتى أظهرها في فوارة تسكب في فسقينة من رخام، بين زمزم والركن والمقام، ... ثم تفر تلك الفسقينة في سرب من رصاص، يخرج إلى وضوء كان عند باب المسجد، باب الصفا، في بركة كانت في السوق". وعندما أنجز ذلك العمل أمر خالد القسري بجزر، فنحرت بمكة وقسمت بين الناس.

والجدير بالذكر أن تلك البركة ظلت قائمة حتى بداية العصر العباسي الأول سنة ١٣٢هـ حيث تم إزالتها وإعادة الوضع إلى سابق عهده.

ومن الأعمال المهمة التي تسجل لهذا الوالي تزينه الكعبة بالذهب فقد أمر بضرب تلك الصفائح الذهبية على بابها وأساطينها وأركانها وميزابها، وانفق على ذلك العمل العظيم ما يقرب من ثلاثين ألف دينار، وقد وصل هذا المبلغ من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك . وبهذا الإنجاز الكبير يعد خالد القسري أول من ذهب البيت في الإسلام.

في ضيافة خادمِ الحرمين الشريفين

الملك سلمانَ بن عبد العزيز آل سعود

بقلم: الأستاذ محمد ساجد القاسمي ❖

جَزى الله عنِّي خيرًا خادمَ الحرمين الشريفين الملكَ سلمانَ بن عبد العزيز آل سعود ـ حفظه الله ورعاه ـ الذي أدَّيتُ شَعيرةَ الحجِّ ضِمْن برنامج ضيوفه لعام ١٤٣٧هـ، البرنامجِ الذي مضى على انطلاقه ٢٠عامًا، والذي يقوم بأداء فريضة الحجِّ ضِمْنَه كُلَّ عَام ٢٤٠٠حَاجٍّ من ٦٠ دولةً في العالم، و وَزِيرَه فضيلة الشيخ الدكتور صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ ـ حفظه الله ـ وزيرَ الشؤون الدينية والدعوة والإرشاد الذي يرعى هذا البرنامج، وسفيرَه سعادة الدكتور سعود بن محمد الساطي سفيرَ المملكة العربية السعودية لدى الهند، والملحقَ الدِّيْنيَّ أحمد بن على الرومي ـ حفظه الله، وأعضاءَ السِّلكِ الدبلوماسيِّ بالسفارة الذين يختارون شخصياتٍ وممثلين لبرنامج ضيوف خادم الحرمين الشريفين.

ثم جَزى الله خيرًا فضيلةَ الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني ـ حفظه الله ـ رئيسَ الجامعة الإسلامية: دار العلوم/ ديوبند؛ حيث اختارني والشيخَ جميل أحمد السكرودوي مُمَثِّلَيْنِ للجامعة لأداءِ فريضة الحجِّ تحت برنامج ضيوف خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيزآل سعود ـ حفظه الله وتولاه ـ.

لقد غمرني الفرح والسرور والسعادة يوم ٢٠/ من شعبان ١٤٣٧هـ الذي بَشَّرَنِيْ فيه رئيس الجامعة، حيث قال: «إنَّك ستحُجُّ هذا العامَ ضَيْفًا على خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيزآل سعود ـ حفظه الله ـ وسَيُرَافِقُك أستاذٌ من أساتذة الجامعة، فهو يُمَثِّلُ الجامعةَ بعلمه وشيخوخته، وأنت تُمَثِّلُها بأدبك ولغتك».

نقلت هذه البشارة إلى أقاربي وأصدقائي ومعارفي، ففرحُوا أشَدَّ الفَرحِ، وهنَّؤوني، ودعوا لي بالخير والبركة.

منذ طويل كنت أدعو الله ـ جَلَّ وعلا ـ دعاءَ الضّارع ذي الحاجة، في ساعات الإجابة، أن يُهيِّئ لي أن أزوربيته المكرَّم حَاجًا ومُعْتَمِرًا، فأجاب دعوتي وحقَّق أمنيَّتي، حيث يسَّر لي أن أعتمر في رمضان سنة ١٤٣٤هـ، وأن أحُجَّ هذا العام١٤٣٧هـ.

مضت الأيام والليالي استبطئُها، وأنتظرُ موعد السفر بفارغ الصبر.. تمت الترتيبات التي تسبق السفر.. أرسلتُ جواز السفر إلى سفارة المملكة العربية السعودية بدهلي الجديدة، فأُبْلِغْتُ موعدَ السفر، وهو ٢/ سبتمبر ٢٠١٦م. وقد طُلِبَ أن نحضرَنحن المشاركين في البرنامج إلى منزل سعادة السفير الدكتور سعود بن محمد الساطي بدهلي الجديدة في ١/ سبتمبر٢٠١٦م.

❖ أستاذ قسم الأدب العربي بالجامعة الإسلامية: دارالعلوم ديوبند (الهند)
sajidqasmideoband@gmail.com

فتحركنا نحن الثلاثة: الشيخ نعمت الله الأعظمي والشيخ جميل أحمد، وكاتب السطور فجرًا من ديوبند ووصلنا إلى المقر الرئيسي لجمعية علماء الهند بدهلي في السابعة صباحًا، ثم حضرنا مع الضيوف الآخرين إلى منزل سعادة السفير ظهر١/ سبتمبر، حيث أقام حفلَ توديعٍ للمشاركين في برنامج ضيوف خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود لعام ١٤٣٧هـ، بحضور أعضاء السلك الدبلوماسيّ والملحق الدِيْنِيّ أحمد بن علي الرومي حفظه الله.

ألقى سعادة السفير الدكتور سعود بن محمد الساطي كلمة نقل فيها تحيات خادم الحرمين الشريفين - حفظه الله- إلى الضيوف، مؤكّدًا أنَّ برنامج الاستضافة رسالة المملكة العربية السعودية واهتمامها المتواصل بالعلماء والمؤثّرين في العالم.

ونوَّه بالمشروعات العملاقة التي تقوم بها حكومة خادم الحرمين الشريفين ــ يحفظه الله ــ كل عام لخدمة الحرمين الشريفين والتسهيل على الحجاج والمعتمرين ورعايتهم، يشهد بهذا القاصي قبل الداني.

فلما انتهى الحفل تَمَّ توزيعُ العُلَبِ على الضيوف، وكانت العُلَبُ تشتمل على ثياب الإحرام والنعال والأشياء اللازمة الأخرى للحاجِّ. ثم رجعنا ــ بعد ما أخذنا العلب ــ إلى المقر الرئيسي لجمعية علماء الهند بدهلي الجديدة، حيث مكثنا الليلة واليوم الذي بعده، وهو يوم الجمعة، وصلينا في مسجده صلاة الجمعة، وتغدينا على مأدبة فضيلة الشيخ أرشد المدني/ حفظه الله.

كان موعد الطائرة الثامنة مساءً، فتأهَّبنا أهبة السفر، ولبسنا ثَوْبَي الإحرام من المقرِّ الرئيسي آخذين بالحيطة، وأصبحنا كالمتكفن بالثياب البيضاء الذي ولَّى عن الدنيا وأقبل على الآخرة، وما رحلة الحج إلا كرحلة الموت.

تحركّنا بالسيارة نحو مطار «إنديرا غاندي» الدولي في الساعة الثالثة والنصف، فوصلنا إليه، وتمت إجراءات ما قبل السفر، حتى حان وقت المغرب، فصلينا المغرب في المطار، ثم ركبنا الطائرة التي أقلَّتنا إلى «جدة» والتي استغرقت في الوصول إليها أربع ساعات ونصف.

فلما طارت بنا الطائرة في جوِّ السماء وقطعت مسافة لا بأس بها نويت العمرة قائلاً: اللهمَّ إنِّي أريد العمرة فيسِّرها لي وتقبَّلها مني، وملبِّيًا: «لبَّيْك اللهُمَّ لبّيْك، لا شَرِيكَ لكَ لَبّيْك، إنَّ الحَمْدَ والنِّعْمَةَ لك والمُلكَ لاشَرِيْكَ لَكَ». أصبَحْتُ محرِمًا، فوجبَ عليَّ تجنُّب محظورات الإحرام من التطيُّب وتغطية الرأس ولبس المخيط وما إلى ذلك.

كنت في الطائرة استأنس بالحديث إلى من كان بجنب مقعدي حينًا، وألهج بالتلبية حينًا آخرَ، حتى وصلت الطائرة إلى مطار الملك عبد العزيز الدولي بجدة بعد أربع ساعات ونصف من إقلاعها، ثم أقَلَّتْنَا الحافلاتُ إلى المكاتب الجمركية فصلَّينا العشاء وأخذنا ننتظر حتى جاء دَورُنا، فاستكملنا الإجراءات الجُمركية وأخذ أحدُ الموظَّفين جوازاتِ سفرنا، ثم خرجنا من المطار.

"كانت حافلات برنامج ضيوف خادم الحرمين الشريفين في انتظارنا خارجَ المطار، فركبناها، ثُمَّ تَمَّ تَوزيعُ وجبات العشاء وقارورات الماء و عُلَب العصير علينا ــ نحن الضيوف ــ فأكلناها هنيئًا مريئًا. ثم سارت بنا الحافلات من «جدَّة» إلى «مكة» المكرمة سيرًا حثيثًا، حتى أوصلتنا إلى فندق الدَّار البيضاء بها، فنزلنا أمام الفندق، فاستقبلنا مسؤولو البرنامج وموظَّفوه استقبالاً حارًّا، وقدَّمَ خَدَمَةُ الفندق إلينا ــ كنُزُلٍ ــ التمور وماء زمزم ممزوجًا بماء الورد."

كان الفندقُ ذا نجوم خمسة يُوَفِّر للضيوف جميع وسائل الراحة وأنواع الطعام الشهي وصنوف المشروبات وأرقى الخدمات. كما كان به مكاتب عديدة لوزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد التي تقوم بالإشراف على هذا البرنامج ونشاطاته.وقد وجدنا المسؤولين والموظفين أولي الصلة بالبرنامج أشدَّ الناس حِرْصًا على خدمة الضيوف وإراحتهم.

نزلنا نحنُ الثلاثة: الشيخ نعمت الله الأعظمي، والشيخ جميل أحمد السكرودوي وكاتب هذه السطور في الغرفة ذات الرقم:٣٤٠٤ في الفندق، وصلَّينا الفجر، وبما أنَّنَا كنا مُتعبين جدًا نِمنَا نومًا هادئًا، ثم استيقظنا في نحو الثامنة صباحًا، واستعددنا للذهاب إلى الحرم. فنزلنا من الفندق و اكترينا سيارة أجرة تُقِلُّنا إلى الحرم، فأنْزَلَنا السائقُ بعيدًا عن الحرم تقيدًا بنظام المرور، فمشينا على الأقدام حتى دخلنا المسجد الحرام.

فلما وقعتْ أوَّلُ نظرة على الكعبة المشرَّفة دعونا الله - جَلَّ وعلا- بما وفَّقنا؛ لأنَّ الدعاء عند أول نظرة إلى الكعبة مستجاب، ثم وصلنا إلى المطاف، واستقبلنا الحجر الأسود واستلمنا بالإشارة إليه؛ لأنَّ الوصول إليه كان صعبًا، وربَّما كان يؤدي إلى الإيذاء، وطُفنا بالبيت سبعةَ أشواط، ثم صلينا ركعتين، وشربنا ماء زمزم، ثم توجَّهنا إلى المسعى، ووقفنا على الصفا مستقبلين الكعبة، ودعونا الله ــ جلَّ وعلا ــ ، لأنَّ الصفا والمروة من شعائر الله ومن الأماكن التي يُستجاب لديها الدعاء، ثم بدأنا بالسعي، فسعينا بين الصفا والمروة سبع مرات، وأسرعنا بين الميلين الأخضرين.

وأثناء السعي ذهب بنا الخيال وراء آلاف السنين، فرأينا أن السيدة هاجر تسعى بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء لابنه الصغير إسماعيل ــ عليه السلام ــ ، وقد رضي الله عن سعيها هذا، حتى جعله عبادة، وأمربممارسته كل من يحجُّ أو يعتمر إلى يوم القيامة.

بعد ما انتهينا من السعي ذهبنا إلى محل الحلاقة، واقتصرنا على تقصير الرأس؛ لأنَّ الحج كان قريبًا، والحلق سيكون بعد رمي جمرة العقبة والذبح. وكان اليوم يوم السبت: غُرَّة ذي الحجة.

رجعنا إلى الفندق، واستحللنا من الإحرام، ثم بقينا نتمتع بمحظوراته إلى يوم السبت: الثامن من ذي الحجة.

كانت حافلات البرنامج تذهب إلى الحرم مرتين في اليوم والليلة: في الثالثة ليلاً وفي الرابعة عصرًا، فكنا نذهب بها إلى الحرم نصلي فيه الصلوات، ونقضي الأوقات في الذكر والدعاء والطواف وانتظار الصلاة.

وأثناء السعي ذهب بنا الخيال وراء آلاف السنين، فرأينا أن السيدة هاجر تسعى بين الصفا والمروة بحثًا عن الماء لابنه الصغير إسماعيل ــ عليه السلام، وقد رضي الله عن سعيها هذا، حتى جعله عبادة، وأمر بممارسته كل من يحجُّ أو يعتمر إلى يوم القيامة.

بقينا كذلك إلى اليوم السابع من ذي الحجة، وقد زارَنا في الفندق خلال هذه الفترة سعادة الدكتور صالح بن عبد العزيزبن محمد آل الشيخ/ حفظه الله وزير الشؤون الدينية والدعوة والإرشاد الذي يُشرِفُ على برنامج الاستضافة.

كان في الفندق دفتر وُضِعَ لتسجيل كلمات الشكر والتقدير والانطباعات عن هذا البرنامج ومدى أهميته للمسلمين، وقد كَتَبَ فيه بعضُ الضيوف آراءَهم وانطباعاتهم، فكتبت فيه انطباعاتي تجاه هذا البرنامج المبارك، وهي فيما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله ـ جلَّ وعلا ـ ، وأشكره على نعمه ومننه التي أسبغها علينا ظاهرة وباطنة، ومن أعظم نعمه أن أتاح لنا فرصة أداء شعيرة الحج التي هي من أهمِّ عبادات الإسلام وفرائضه، وذلك ضِمْنَ برنامج ضيوف خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيزآل سعود حفظه الله.

فأشكر أصالة عن نفسي ونيابة عن الوفد المرافق لي المكوَّن من كل من الشيخ نعمت الله الأعظمي والشيخ جميل أحمد السكرودوي أستاذي الجامعة الإسلامية: دارالعلوم/ ديوبند بالهند، وعن الجامعة ورئيسها فضيلة الشيخ المفتي أبو القاسم النعماني/ حفظه الله، وعن جميع الحجيج الهنود القادمين ضمن البرنامج..

أشكر خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود/ حفظه الله وتولاه، ووزيره معالي الوزير الشيخ صالح بن عبد العزيز بن محمد آل الشيخ/ حفظه الله، الذي يُشرف على هذا البرنامج الهادف البنَّاء.

لا شك أن هذا البرنامج برنامج لا يوجد له نظير في تاريخ خدمة الحجيج وخدمة الحرمين الشريفين.برنامج يُحَقِّقُ التضامن الإسلاميَّ، ويُقَرِّب بين صفوف المسلمين في مختلف دول العالم، ويُتِيْح لهم فرصة طيِّبة لمشاهدة ما تقوم به حكومة خادم الحرمين الشريفين من خدمات جُلَّى نحو الأماكن المقدسة، وتوفير جميع وسائل اليسر والراحة للحجَّاج والمعتمرين.

فجزى الله عنَّا خيرًا خادم الحرمين الشريفين، ومتَّعه بطول العمرمع الصحة، ويصون قيادته الرشيدة من كل شرٍّ وفتنة، ويوفِّقه لما يحبُّه ويرضى.

وصلَّى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وكتبه

محمد ساجد القاسمي

أستاذ التفسير والأدب العربي

بالجامعة الإسلامية دار العلوم

ديوبند، الهند

٧/ ذو الحجة ١٤٣٧هـ = ٩/

سبتمبر٢٠١٦م

فلما كان اليوم الثامن: يوم التروية لبسنا ثوبي الإحرام مرة أخرى: اتَّزرنا ثوبًا وارتدينا ثوبًا آخر. كان من ترتيبات مسؤولي البرنامج والمشرفين عليه أن يذهبوا بنا في اليوم الثامن: يوم التروية بعد صلاة العصر رأسًا إلى عرفة، وقد أعلنوا بعد صلاة الفجرأن يُصلِّي الحجيج العصر في مسجد الفندق، ويعودوا إلى غرفهم، ويبقوا فيها منتظرين النداء؛ لأنَّ المرشد يُنادي باسم كلِّ بلد، فاذا نادى باسم بلد يخرج أهله، وذلك منعا للتدافع والتزاحم في المصاعد وفي أبهاء الفندق.

لا شك أن هذا البرنامج برنامج لا يوجد له نظير في تاريخ خدمة الحجيج وخدمة الحرمين الشريفين. برنامج يُحَقِّقُ التضامن الإسلاميَّ، ويُقَرِّب بين صفوف المسلمين في مختلف دول العالم، ويُتِيْح لهم فرصة طيِّبة لمشاهدة ما تقوم به حكومة خادم الحرمين الشريفين من خدمات جُلَّى نحو الأماكن المقدسة، وتوفير جميع وسائل اليسر والراحة للحجَّاج والمعتمرين.

صلينا عصر يوم التروية في مسجد الفندق عملاً بالتوجيه المسبَّق، ورجعنا إلى غرفنا، وقد بقينا فيها منتظرين النداء، فلما نادى المرشد باسم «الهند» خرجنا من غرفنا ونزلنا بالمصعد إلى الدور الأرضي من الفندق، ووقفنا بباب الفندق، ثم ركبنا حافلة ذات رقم: ١٤، وكانت هذه الحافلة للحجاج الهنود، وركب الحجاج الآخرون من البلاد الأخرى حافلاتهم المختصة بهم، فلما استوى جميع الحجيج المقيمين في الفندق على الحافلات،

زحفت قافلة الحافلات إلى عرفة، وقد فاتتنا صلاة المغرب في الطريق، ووصلنا عرفة في نحو التاسعة والنصف ليلاً، فنزلنا نحن الحجيج الهنود والباكستانيين في مخيم ذي رقم: ٥، وكان المخيم مزوَّدًا بالمكيفات والوسائد والحشايا.

صلينا المغرب والعشاء في المصلّى، ثم تعشَّينا في المطعم الذي كان أمام المخيم. وبما أنَّنا كنا تعبانينَ نِمنا مِلءَ جفوننا، واستيقظنا على أذان التهجد، ثم توضأنا وتوجهنا إلى المصلى، فصلينا ما شاء الله أن نُصلِّي، وبقينا ننتظر لصلاة الفجر، ثم أُذِّنَ لصلاة الفجر، فصلّى بنا الإمام الفجرَ، ثُمَّ ألقى خطبة وجيزة يعرف فيها بأهمية يوم عرفة، وكون الوقوف بها أحد ركني الحج، وبيَّن الأمور اللازمة الأخرى. وبعد الفجر أوينا إلى فراشنا لنأخذ قسطًا من الراحة لنتقوَّى على الوقوف بعد زوال الشمس.

استعددنا في الساعة الحادية عشرة نهارًا، وتوجَّهنا إلى المصلّى، فما إن زالت الشمس حتى صلّى الإمام بنا صلاتي الظهر والعصر جمعَ تقديم قصرًا. ثم ألقى خطبةً بيّن فيها ما فعل رسول الله ـ ﷺ ـ في هذا اليوم المبارك من الجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وإلقاء الخطبة، ودعائه ـ ﷺ ـ رافعًا يديه إلى السماء، والوقوف بعرفة إلى غروب الشمس، ثم التحرك إلى مزدلفة، والجمع بين صلاتي المغرب والعشاء جمعَ تأخيرقصرًا، وما إلى ذلك.

وألقى الشيخ عبد الرحمن السديس من مسجد النمرة خطبة ضافية تناول فيها ما تواجه الأمة الإسلامية من مشكلات وقضايا متنوعة، وقد نشرت الخطبة على الشاشة في المصلى، فتابعناها بكاملها.

بعد ما فرغ الحجيج من الصلاة وسماع الخطبة أصبحوا بين تالٍ للقرآن، وذاكر لله، ومبتهل إليه..حتى مالت الشمس إلى المغيب. ثُمَّ أعلن المرشد بالتحرك نحو الحافلات، فركبناها.. ووقفت الحافلات في مكانها حتى غربت الشمس، ثم زحفت إلى مزدلفة، وكان الطريق مزدحمًا بالمشاة والحافلات والسيارات. فوصلنا إلى «مزدلفة» في الساعة العاشرة والنصف، فصلينا فيها المغرب والعشاء ومكثنا بها نحو ساعتين، ثم تحركت الحافلات في الثانية عشرة والنصف إلى منى، فوصلنا منى في الساعة الواحدة والنصف.

كان مخيَّم ضيوف خادم الحرمين أمام الجمرات وآخرَ مخيَّمٍ بمنى، فدخلنا المخيم وأخذ الحجيج الهنود مضاجعهم.

وقد أهمَّني في هذه الليلة أمر، وهو أن الوقوف بمزدلفة في شيء مما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس واجب عند الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ، فإن فات الوقوف بمزدلفة في شيء من هذا الوقت يجب الدم. فكان لي إما أن أتخلَّف في مزدلفة عن الحافلة للوقوف بعد الفجر، إذًا فيصعُب عَلَيَّ وصولي إلى مخيمي بمنى؛ لإنِّي ما رأيته حتى الآن؛ وإمّا أن أركب الحافلة مع الحجيج الآخرين وأصل إلى مخيمي بمنى وأرى سريري فيه، ثمَّ أعود أدراجي إلى مزدلفة وأقف بها وقوفًا واجبًا.

آثرت الخيارالثاني، فخرجت من مخيمي بمنى في نحو الساعة الثالثة والنصف ليلاً، وسألت الشرطة والمرشدين عن مزدلفة وبُعْدِها، فأخبروني ـ يجزيهم اللّهُ خيرًا ـ ، فمشيت على قدميَّ وحدي إلى مزدلفة، حتى وصلت إليها بعد نحو ساعة ونصف، ووقفت بها بضع عشرة دقيقة حتى أُذِّنَ للفجر، فصليت الفجر، ورجعت بالقطار إلى منى، ووصلت إلى مخيمي وقد طلعت الشمس.

استعدَّ رفقائي في المخيَّم للذهاب لرمي جمرة العقبة، فأفطرتُ على عجَل، وأخذتُ الحصيات التي تزوَّدتُها من مزدلفة، وصحبتهم إلى جمرة العقبة، فرميتُها بسبع حصيات رضًا للرحمن ورغمًا للشيطان، وتشبُّهًا بإبراهيم عليه السلام.

لقد ظهر إبليسُ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وحاول أن يورد شبهة في حجه، أو يفتنه بمعصية، فأمره الله أن يرميه بالحجارة طردًا له وقطعًا لأمله. أما نحن فنرمي الجمرات امتثالًا لأمر الله تعالى وانقيادًا له. ونعم ما قال الإمام الغزالي رحمه الله:

«اعلم أنَّك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة، وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان، وتقصم به ظهره؛ إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثال أمر الله - سبحانه تعالى- تعظيمًا له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه».(إحياء علوم الدين: ٣/٤٨٩)

ثم علينا أن نذبح شاة كدمٍ للتمتُّع، ثم نحلق رؤسنا؛ إلا أنَّ خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز تولّى عن الضيوف دم التمتع، كما أخْبَرَنَا في الفندق مستشاره سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري عضو هيئة كبار العلماء، والمستشار بالديوان الملكي، فحلقنا رؤسنا فور رمي جمرة العقبة.

ثم توجَّهنا إلى الحرم لطواف الزيارة، وبحثنا عن السيارة أو الحافلة التي تُوصِلنا إلى الحرم، و بعد ما مشينا كثيرًا وجدنا سيارةَ أجرةٍ أخذ صاحبُها من كل منا مئة ريال، وأوصلنا من الطريق البعيد إلى مكان قريب من الحرم، فطُفْنا بالبيت طوافَ الزيارة، ثم سعينا بين الصفا والمروة، وما إن فرغنا من السعي حتى كان وقت العصر فصلينا العصر في الحرم.

لقد ظهر إبليسُ لإبراهيم ـ عليه السلام ـ وحاول أن يورد شبهة في حجه، أو يفتنه بمعصية، فأمره الله أن يرميه بالحجارة طردًا له وقطعًا لأمله. أما نحن فنرمي الجمرات امتثالًا لأمر الله تعالى وانقيادًا له. ونعم ما قال الإمام الغزالي رحمه الله:

ثم أردنا أن نرجع إلى منى فاكترينا سيارةً طلب منَّا صاحبُها ثلاثَ مئة ريال موزَّعةً على خمسة أشخاص، واشترط علينا أنَّ شرطة المرور إذا منعه من السير في خطٍ ينزلهم جميعًا، فرضينا بأجرته وشرطه.

أخذ السائق يسوق سيارته في الطريق المؤدِّي إلى منى، فلما وصل إلى إشارة المرور قبل النَّفَقَيْنِ الوَاقِعَينِ قبل منى، منعه الشرطي من السير في الطريق إلى منى، فاضْطُرِرْنَا إلى النزول من السيارة، فمشينا على الأقدام، وعبرنا النفق الأول والثاني، واكترى بعضُ زملائنا العربية، حتى وصلنا مخيمنا في منى بعد المغرب، وقد أخذ التعب والإعياء منَّا كلَّ مأخذٍ.

فلما كان يوم القَرِّ، وهو الحادي عشر من ذي الحجة بقينا في مخيمنا مستريحين حتى إذا زالت الشمس صلينا الظهر و ذهبنا لرمي الجمرات، ثم عدنا أدراجنا إلى المخيم.

وأما في يوم النّفر الأول (وهو اليوم الثاني عشر من ذي الحجة) فقد أعلن مسؤولو البرنامج أنَّ الضيوف يرمون الجمرات بعد صلاة العصر، ويتَّبعون المرشدين الذين يأخذون بهم إلى الحافلات ذات الأرقام الخاصة، فتبعنا المرشد الذي بيده اللواء ذو الرقم ١٤، فمشينا كثيرًا حتى ركبنا إحدى حافلات البرنامج، ولم نجد الحافلة ذات رقم ١٤، ثم أوصلتنا الحافلات إلى فندق الدار البيضاء قبل غروب الشمس بنحو ساعة، فصلينا العصر في الفندق.

وكان من المقرر في هذه الليلة أن تذهب الحافلات بالضيوف لطواف الوداع في الساعة الحادية عشرة، ثم تتحرك بنا إلى المدينة المنورة في الساعة الثالثة سحرًا.

فوفقًا للبرنامج المرسوم توَجَّهنا بالحافلات إلى الحرم، فطُفْنَا ببيتِ الله - عزَّ وجَلَّ- طوافَ الوداع، وفي نهاية الأمر حاولنا الوصول إلى الملتزم وعتبة الباب، فنجحنا في المحاولة، و دعونا الله بما وَفَّقَنا، ثم جلسنا في المطاف برهة نكتحل برؤية الكعبة المشرفة، ثم نظرنا إليها نظرةَ مُوَدِّعٍ وخرجنا إلى موقف السيارات حَزانى آسِفين، ورجعنا إلى الفندق في الساعة الواحدة والنصف. استرحنا في الفندق قليلًا، ثم خرجنا منه في الساعة الثالثة ليلاً، وركبنا الحافلات التي تحركَّت بنا للمدينة المنوَّرة.

صلَّينا الفجر في الطريق، ووصلنا إلى المدينة المنورة في الساعة العاشرة والنصف من اليوم الثالث عشرمن ذي الحجة، ونزلنا في فندق «كراون بلازا» بالمدينة، لم يكن هذا الفندق أقلَّ مستوىً من فندق الدار البيضاء، وكان قريبًا من المسجد النبوي ـ على صاحبه الصلاة والسلام ـ. وقد استقبلنا الغلمان في الفندق بالأغاني العربية المطربة. وضعنا أغراضنا في غرفة ذات رقم:١٣٣ في الدور الأول، واستعددنا للذهاب إلى المسجد النبوي. دخلنا المسجد من باب السلام وقد حان موعد صلاة الظهر، فصلَّينا الظهر، ثم توجَّهنَا إلى الروضة الشريفة على صاحبها ـ ألف تحية وسلام ـ ، وبي من العواطف والأحاسيس ما لا أكاد أصفه، فسلمت على رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبيه أبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ ، كما سلمت عليه وعلى صاحبيه ممن وكلوني بتبليغ سلامهم.

عدنا إلى الفندق وتغدَّينا فيه، ثم اشتغلنا بقضاء بعض شؤوننا ثم صلينا العشاءين في المسجد النبوي. و ما إن رجعنا إلى الفندق في الساعة العاشرة والنصف ، حتى أوْذِنَ بالرَّحِيْل ، فخرجنا من الفندق، وركبنا حافلات البرنامج وقد استلمنا فيها هدية غالية من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود/ حفظه الله، وهي عبارة عن زجاجة من العطر وسبحة وعلبة من التمر. وقد وَدَّعَنَا رجالُ البرنامج ومُوَظَّفُوه معتذرين عن التقصير في الحفاوة والإكرام، كما شَيَّعنا بعضُهم إلى مطار المدينة.

كان موعدُ الطائرة في مطار المدينة ٣:٥٠ فجلسنا منتظرين في المطار، فلما حان الموعدُ ركبنا الطائرة، ثم أقلعت في موعدها، وهبطت على مطار جدة ٤:٥٥، ثم علينا أن ننتظر الطائرة التي تُقِلُّنا إلى دهلي أربع ساعات، فقضينا الساعات الأربع في المطار، ثم ركبنا الطائرة في١٠:٢٠، وهبطت بنا في مطار «إنديرا غاندي» الدولي بدهلي في ٦:١٠.

حضر فضيلة الشيخ أرشد المدني مطار دهلي لاستقبالنا نحن الحجيج لا سيَّما فضيلة الشيخ نعمت الله الأعظمي، ثُمَّ ذهب بنا إلى مقرِّ جمعية علماء الهند حيث صلينا العشاء وتعشينا على مائدة فضيلة الشيخ شأنَنَا في الذهاب. ثم وصلنا إلى ديوبند في الساعة الواحدة والنصف ـ بفضل الله ورحمته ـ سالمين مُعافين.

فخرجنا من الفندق، وركبنا حافلات البرنامج وقد استلمنا فيها هدية غالية من خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود/ حفظه الله، وهي عبارة عن زجاجة من العطر وسبحة وعلبة من التمر. وقد وَدَّعَنَا رجالُ البرنامج ومُوَظَّفُوه معتذرين عن التقصير في الحفاوة والإكرام، كما شَيَّعنا بعضُهم إلى مطار المدينة.

توصيات هيئة الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند

بمناسبة اجتماعها الـ (٢٥) في مدينة كلكتا

من ١٨ إلى ٢٠ نوفمبر ٢٠١٦م

تعريب وتحضير: وسيم أحمد *

"انعقد الاجتماع الخامس والعشرون على مستوى الهند لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند في مدينة كلكتا عاصمة ولاية البنغال، واستمر ثلاثة أيام من ١٨ إلى ٢٠ نوفمبر ٢٠١٦م ضد محاولة الحكومة لإلغاء الطلاقات الثلاث من المجتمع الإسلامي الهندي.

وانتهى بعد المناقشة المبسوطة المشرحة والتفكر والتأمل أعضاء الهيئة بمن فيهم العلماء والمفكرون والأكاديميون والمحاميون ورجالات الدين والسياسة والنشطاء إلى عدد من النتائج والتوصيات، وجاء أبرزها:"

الأولى: فيما يتعلق بالحكومة

(١) إن هذه الجلسة للهيئة تكشف على الحكومة ضرورة تطبيق القانون الشرعي على المسلمين وأوقافهم حسب ما يقتضيه كل من قانون تطبيق الشريعة ١٩٣٧م، والقانون لفسخ النكاح للمسلمين ١٩٣٩م، والقانون كتشي ميمن ١٩٣٨م، وقانون الوقف ٢٠١٣م.

هذا إلى أن المادة الـ ٢٥ و الـ ٢٦ و الـ ٢٩ من الدستور الهندي تتيح لجميع سكان البلاد ولسائر المجموعات الدينية والحضارية بالعيش مع ميزاتها الدينية والحضارية، ومن ثم يعتبر المسلمون الأحوال الشخصية من حقوقهم الأساسية، وظلت المحاكم المحترمة تعترف بها، ولذلك لن يستطيع المسلمون أن يقبلوا أي تبديل وتغيير في قانون الأحوال الشخصية للمسلمين، ويكون أي مسعى للحكومة من هذا النوع بمثابة دوس الدستور.

(٢) والقانون المدني الموحد للأحوال الشخصية ليس واجب النفاذ تماما في مثل بلاد الهند ذات ديانات كثيرة وثقافات متعددة، وهذا ليس غير بمقبول عند المسلمين فحسب بل لا تستطيع الأقليات والمجموعات القبلية كلها أن تقبله أيضا، وضمت الحكومة بنفسها بعضا من كُتلٍ حاملةِ السلاح ضدّ البلاد إلى التيار القومي بموجب هذه الاتفاقية على أن لا تتدخل الحكومة في قواعدهم التقليدية، وتعتبر فوق البرلمان؛ فالقانون المدني الموحد للأحوال الشخصية ليس تطاولا وعدوانا ضد الأقليات المذهبية والحضارية؛ بل هو ضد مصالح البلاد أيضاً، فينبغي للحكومة الامتناع عن أي محاولة في هذا الصدد.

(٣) وهذه الجلسة تطلب من الحكومة أن تؤدي وتقوم بمحاولةٍ جادةٍ لحماية حقوق النساء بشكل لا تتأثر جرائها هوية لأي طائفة، فلتجعل الحكومة عملية فسخ النكاح من خلال

* طالب بالمعهد العالي للغة العربية وآدابها بالجامعة الإسلامية دارالعلوم/حيدرآباد ـ الهند.

المحكمة أسهل و أقل الانفاق، التي تستغرق مدة طويلة، وتكلف مبالغ باهظة، وتمثل سبيلا للحصول على العدل في زمنٍ محدد، وهكذا لا تعطى حصة من الأراضي الزراعية للنساء في بعض الولايات الهندية، على حين الشريعة أعطت لهن نصيبهن، فلا بد من تشريع القوانين هناك لتوفير نصيبهن بحسب القانون الشرعي، كما يناسب أن يقدم الدعم الخاص إلى الأرامل والمطلقات تشجيعا لهن على الزواج الثاني: لأنه هو الحل الوحيد لمسائل النساء من هذا النوع، وبه سوف تتم رعايتهن وتتوافر لهن الحماية الأسرية.

(٤) كمايجب أن تكلف الحكومة مجلس الأوقاف بدفع نفقات النساء اللاتي يحتجن إليها من مكاسب الوقف، وإن لم تكف إيرادات الوقف لها، تسد الحكومة أو وزارة الرعاية الأقلية ذلك النقص، فإن كثيرا من ممتلكات غالية الثمن للوقف في تصرف الحكومة.

الثانية: ما يتعلق بالملة الإسلامية

(٥) وإن جلسة هيئة قانون الأحوال الشخصية هذه تناشد جميع المسلمين أن يصيّروا حياتهم الأسرية مثالا عمليا للشريعة الإسلامية، وأن يقضوا على وقائع الطلاق بشكل غير مشروع وثلاث تطليقات في مجلس واحد، وأن يدفعوا حصص البنات والنساء الأخرى إليهن في الميراث بحسب قواعد الشريعة الثابتة، ويجعلوا النكاح سهلا، وبسيطا ويتابعوا أي متابعة بما أمرتهم الشريعة الإسلامية من الإحسان إلى النسوة.

(١٠) ويناشد جميع المسلمين أن يحققوا الوحدة في صفوهم لصيانة الشريعة منبوذين خلافاتهم الطائفية والمذهبية وراء ظهورهم، ويتمتعون بالوعي البالغ للموامرات التي ليس لها شغل شاغل إلا أن تغرس بذور الاختلاف في صفوف المسلمين، وأن يلبوا الدعوة لهيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين أبداً، لأن هذه الوحدة هي رمز قوتنا.

(٦) وإن ولادة الأبناء والبنات هم جميعا من عند الله، والبنات رمز الرحمة من الله سبحانه وتعالى أيضاً، وبسوء الحظ تقام في بلادنا بفعلات غير إنسانية متمثلة في قتل البنات في أرحام الأمهات، وفريضة وواجبة شرعية للمسلمين أن يقفوا ضد هذه الظاهرة، كما كان حمى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حياة البنات الموءودة، وتقام بوأد البنات ويُقتلن في أرحام الأمهات في الأيام الحاضرة بمساعدة التكنولوجية الحديثة فيتحتم على المسلمين أن يبذلوا مساعيهم الحثيثة الجبارة في القضاء على هذا الفعل الشنيع ولا يدخروا وسعا في سبيل منعه، عاملين بسنة النبي ـ صلى عليه وسلم ـ.

(٧) وهذه الجلسة تناشد العلماء والمدارس الدينية، والمنظمات والمجموعات الدينية، والنساء المتعلمات خاصةً أن يلعبوا دوراً فعالاً في المحاولات لإصلاح المجتمع، ويعنوا به عناية خاصةً.

(٨) وتوجه الهيئة المؤسسات والمنظمات الدينية والاجتماعية إلى تأسيس مراكز الإرشاد لحل الخلافات الزواجية، وهي تساعد على ردع الخلافات الحادثة وحوادث الطلاق بين الزوجين.

(٩) ويُناشد المسلمون والمسلمات برمتهم أن يرفعوا نزاعاتهم الذاتية إلى دور القضاء كي يحصل لهم العدل السهل الرخيص في وقت قليل بحسب القانون الإسلامي الشرعي.

(١٠) ويناشد جميع المسلمين أن يحققوا الوحدة في صفوهم لصيانة الشريعة منبوذين خلافاتهم الطائفية والمذهبية وراء ظهورهم، ويتمتعون بالوعي البالغ للموامرات التي ليس لها شغل شاغل إلا أن تغرس بذور

الاختلاف في صفوف المسلمين،وأن يلبوا الدعوة لهيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين أبداً، لأن هذه الوحدة هي رمز قوتنا.

الثالثة: مركز البحوث والتوثيق

(١١) ويتخذ المجلس قرارا بشأن تأسيس مركز البحوث والتوثيق التابع لهيئة الأحوال الشخصية للمسلمين لمراقبة ومعالجة التدخل مباشراً أو غير مباشر في الأحوال الشخصية للمسلمين، الذي يقوم بخدمة تجميع وتحليل التشريعات المناهضة للشريعة، والأمور الإذاعية وأحكام العديد من محاكم الاستئناف والمحاكم العليا المقالات التي تنشر في الجرائد والمجلات عن قانون الأحوال الشخصية للمسلم، وتمارس الأمور الإدارية لهذا القسم وفق الأصول، التي كانت تقررت في اللجنة التنفيذية بمناسبة اجتماع الهيئة بمدينة أمروهة (مدينة ومديرية لولاية أترا براديش) الذي تم عقده في ٩/ من ديسمبر ٢٠١٥ م.

(١٢) الرابعة: جناح النساء

(الف) شهدت الأكثر من ٧٥ مندوبة و٥٠ عضو الهيئة من النساء في اجتماع الهيئة بمدينة كلكتا الذي استمر من ١٨ إلى ٢٠ نوفمبر ٢٠١٦م، ومثلت النساء من كل ولاية دهلي الجديدة، وأترا براديش، وراجستهان، ومدهيه براديش، ومهاراشترا، وكيرالا، وتاملناد، وكرناتكا، وتيلنغانه، والبنغال الغربية، وشاركت النساء في أعمال الهيئة مشاركة فعالة، وقدمت المشاور المفيدة.

(ج) وحكم بإنشاء مركز الاتصال بعموم الهند باسم "خط المساعدة للنساء المسلمات بعموم الهند" التابع لهيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند، كي يحسن به الإشارة على النساء التي تتعرض للمشاكل العائلية والزواجية، ويحسن إرشاد النساء التي لا تعلم عن المجموعات الدينية المحلية ودارالقضاء.

سوف يعمل من غرة ديسمبر الرقم المجاني 1800-102-8426 لمركز الاتصال بعوم الهند لخط المساعدة للنساء المسلمة بعموم الهند.

(ب) اتخذت هيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند قرارا تاريخيا زاد النساء تمثيلا واتخذت قرار إنشاء قسم منسق للنساء باسم "جناح النساء" وأسندت مسئوليته إلى الدكتورة أسماء زهره، وحُكم بتكثيف النشاطات لصيانة الشريعة وإصلاح المجتمع في السناء عبر البلاد بمساعدة الجناح.

(ج) وحكم بإنشاء مركز الاتصال بعموم الهند باسم "خط المساعدة للنساء المسلمات بعموم الهند" التابع لهيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند، كي يحسن به الإشارة على النساء التي تتعرض للمشاكل العائلية والزواجية، ويحسن إرشاد النساء التي لا تعلم عن المجموعات الدينية المحلية ودارالقضاء.

سوف يعمل من غرة ديسمبر الرقم المجاني 1800-102-8426 لمركز الاتصال بعوم الهند لخط المساعدة للنساء المسلمة بعموم الهند.

ويمكن الاتصال من خلاله للنساء التي يحسنّ اللغة الأردية، والإنجليزية، والتيلوغوية والميالمية، والتملية، والبنجالية، والكانتر برية، بالنساء المستشارات المؤهلات ذات الخبرة.

الخامسة: الأمور الإدارية

(١٣) سوف تحاول الهيئة أن تكوّن في ولايات الدولة لجانا تضم محامين وعلماء، التي تراقب الأحكام التي تحكم بها محاكم الاستئناف والمحاكم الابتدائية ضد قانون الأحوال الشخصية للمسلمين، وترفع القضية إلى المحاكم المحلية تحت مراقبة اللجنة القانونية المركزية للهيئة،

وتتخذ الإجراءات المناسبة.

(١٤) ويتحتم أن يأتي إنشاء دور القضاء في أسرع وقت ممكن في المناطق التي لم تتأسس فيها بعد.

(١٥) وتعقد الورشة لتفهيم الشريعة للعلماء في كل منطقة بعد تقسيم البلاد في العديد من المناطق، وأن يُحاول أن تستوعب الورشة البلاد برمتها إلى سنة ٢٠١٧م، كي يقوم العلماء بعمل تفهيم الشريعة من تلقاء نفوسهم في كل منطقة.

(١٦) وأن تعقد الورشات التدريبية للنساء خاصةً نظرا إلى الظروف الحالية، ويقام بتأهيلهن للتمثيل الفعال للإسلام.

(١٧) أن توضع الدروس الشهرية لتفهيم الشريعة سوى برامج تفهيم الشريعة، وتدشن هذه الدروس من دهلي.

(١٨) وأن تنشر وتصدر في اللغات الإقليمية مؤلفاتٌ تحتوي على تعارف قانون الأحوال الشخصية للمسلم، وأهميته، والمسائل التي ينطويها تفهيم الشريعة، وخاصةً توضع مجلةٌ مبسوطة في موضوع القانون المدني الموحد وآثاره.

(١٩) وأن تعنى بالأعلام عنايةً خاصةً حول تقديم المسائل بشكل فعال التي تتعلق بقانون الأحوال الشخصية للمسلم، وتعقد ورشة خاصةً للعلماء والخبراء القانونيين، والمحنكين في وسائل الإبلاغ، وأن تُبذل المجهودات في إقامة خلية الإعلام.

السادسة: اقتراح التعازي

(٢٠) قد رحل عدد من المسئولين للهيئة وأعضائها الكرام إلى ذمة الله في الفترة المتراوحة بين يوليو ٢٠١٥م وبين نوفمبر ٢٠١٦م وأسماؤهم على النحو التالي:

الشيخ مولانا أحمد علي القاسمي دهلي، الشيخ مولانا السيد نظام الدين بتنه، الدكتور السيد عبد الحليم السلفي، دربنغا، الشيخ مولانا عبد السلام الرحماني بلرامبور، الشيخ مولانا خواجه مظفر حسين فيض آباد، الشيخ محمد عبد الرحيم القريشي حيدرآباد، الشيخ عبد الستار يوسف شيخ تهانے، الشيخ القاضي عبد الوحيد خان أورنغ آباد، الشيخ مولانا محمد رياض الدين الفاروقي الندوي أورنغ آباد، الشيخ مولانا المقري محمد قاسم الأنصاري تشنائي، الحاج منصور أحمد كلكتا، الشيخ هارون الأخ صاحب الخف بمبائي، الشيخ محمد عصمت الله المحامي حيدرآباد، الشيخ مولانا قدير أحمد شاه أداء الآمري بنغلور، الشيخ مولانا محمد ولي الله الرشادي ويلور، الشيخ المفتي شمس الدين آفريدي بوفال، الشيخ القاضي محمد جسيم الدين الرحماني بهار، السيدة الدكتورة صفية نسيم لكناؤ، الدكتورة أنجمن آراء أنجم.

هؤلاء الناس برمتهم كانوا أجزاءً لقافلة حماية الشريعة هذه، وقد أقاموا بأفضل الخدمات الصادقة للهيئة حسب قدراتهم، وتذكّر خدماتهم دائماً في تاريخ الهيئة، وانتقالهم إلى الدار الآخرة خسارة كبرى للهيئة، اشكر الله سبحانه وتعالى خدماتهم، ورفع درجاتهم في الجنة، ووفّر للهيئة خير بديلهم.

السابعة: اقتراح الشكر

إن هيئة قانون الأحوال الشخصية للمسلمين بعموم الهند ترفع شعارات الثناء والشكر من أعماق القلوب، للسيد سطان أحمد عضو البرلمان الهندي ورئيس للجنة الاستقبال للاجتماع ، وللأمين العام السيد جميل منظر، ولجميع أعضاء اللجنة، وللمسلمين المتحمسين لمدينة كلكتا، فإنهم استضافوا هذا الاجتماع الهام على النحو البديع الجميل، وقاموا بالمأدبة المثالية لكلكتا، ووفروا جميع الأنواع من المرافق والتسهيلات للمشاركين.

فجزى الله سبحانه وتعالى جميع المساعدين في أداء الوظيفة الدينية الخطيرة، وكافأهم الله سبحانه وتعالى بحسب ما يليق به من العظمة والجود.

استأثرت رحمة الله بالعالم الرباني والعبد الصالح

الشيخ عبد الحق المحدث الأعظمي رحمه الله

شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند

إلى جنة الخلد يا شيخنا الأعظمي

إمداد الحق بختيار القاسمي *

قد فجعت الأوساط العلمية الإسلامية الدينية بوفاة الشيخ المحدث عبد الحق الأعظمي نائب شيخ الحديث بدارالعلوم/ديوبند. وذلك عشاء الجمعة (الليلة المتخللة بين الجمعة والسبت) في التاريخ ١/ربيع الآخر ١٤٣٨هـ الموافق ٣٠/ديسمبر ٢٠١٦م قرب وقت العشاء.

قد لبّى الشيخ دعوة ربه الغفور في المستشفى للطبيب دي.كے جين (D.K. JAIN) الواقع بجانب الشارع الذاهب إلى محطة القطار بمدينة ديوبند، عن عمر يناهز ٩١ سنة، و ٩ شهور بالمقياس إلى التقويم الهجري و٨٩ سنة بالمقياس إلى التقويم الميلادي، فكان من مواليد سنة خمس وأربعين وثلاث مائة وألف (١٣٤٥هـ الموافق ١٠/ يناير ١٩٢٧م).

وكان الشيخ يعاني من عدة الأمراض الناتجة من الشيخوخة والضعف والبدانة منذ سنوات، فقد لجأ الكرسي المتحرك منذ عشر سنين أو تزيد، وعلى الرغم من ذلك لم تلق جهوده التعليمية والتربوية والدعوية، ورحلاته الدانية والقاصية أي خلل ونقص في إلقاء الخطب، وتدشين المدارس والمساجد، وحضوره في الاحتفالات للمدارس على نهاية السنة الدراسية، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده وهو العزيز الحكيم.

وما لفظ الشيخ الأعظمي أنفاسه الأخيرة حتى انتشر نبأ وفاته عبر وسائل الاتصال الحديثة السريعة في مشارق الأرض ومغاربها انتشار النار في الهشيم لا بعموم الهند فقط بل بشبه القارة الآسيوية (باكستان وبنجلا ديش وسري لانكا) وبالدول الأخرى الإسلامية، وعمت النبأ عديدا من التواصل الاجتماعي، وانهالت رسالات التعزية والتسلية والدعاء، وكهرب النبأ كلَّ مسلم لا فقط العلماء ومنسوبي دارالعلوم/ديوبند، وأعرب كبار رجال الدين عن حزنهم وانطباعاتهم الرقيقة على هذه الفاجعة. وخرج الناس والعلماء وطلاب المدارس الإسلامية من القرى والمدن القريبة على بكرة أبيهم، ليودعوا هذا المحدث الفقيد الوداع الأخير، فقد ناجت ساحات الجامعة وطرقها بالمتوافدين.

وصلى عليه بالناس فضيلة الشيخ أرشد المدني أستاذ الحديث الشريف بدارالعلوم ديوبند، حضر الصلاة الآلاف المؤلفة من العلماء والفقهاء والمحدثين وطلبة العلم والمشائخ والصلحاء وذوي قرابته ومحبيه وتلامذته والحشد الكبير من المسلمين، حشد قلما تراه أرض ديوبند مثيله، حتى

* Email: ihbq1982@gmail.com

اكتظ بهم محيط الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند بما رحب، بل جاوز تدفق المصلين والمشيعين رحاب الجامعة، وذلك في اليوم التالي ١/ربيع الآخر ١٤٣٨هـ الموافق ٣١/ديسمبر ٢٠١٦م يوم السبت عقيب صلاة الظهر في الساعة الثانية، وتم تورية جثمانه في المقبرة القاسمية التي تضم قبور علماء ومشائخ دارالعلوم ديوبند، مع العيون الذارفة والدموع الساخنة.

كانت حياة الشيخ حافلة بالأمجاد والمكارم والبر والإحسان والعطف والحنان، والدعوة والعرفان، والجهود والكدح والدئب، فكان نموذجا لحياة الأسلاف، وتذكارا لمآثر الأصحاب (رضي الله عنهم وأرضاهم) وداعيا لسنة الأبرار ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخادما للحديث الشريف؛ لا سيما جامع الصحيح للإمام البخاري.

وكان الشيخ من جيل العلماء الهنود الذي جمع بين العلم الواسع والصلاح الكامل، وعاش في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيل، وكان متواضعا جدا، وكان بسيط المأكل والملبس، مؤمنا بالله إيمانا راسخا واثقا به الثقة كلها.

وكان الشيخ شديد الاتباع بالسنة النبوية المطهرة؛ كما كان داعيا إليها، فلا تسره أي هدية يقدمها الطلاب أو المعارف إليه أكثر مما تسره هدية السواك، ما تعكس على مدى اهتمامه بالسنة الشريفة، وكذلك يهتم أي اهتمام بصلاة الجماعة، فعلى الرغم من ذلك أنه كان يتعرّض للضعف والشيخوخة والبدانة وعدة الأمرض يشارك الجماعة، ويحاول كلما لديه من الطاقة أن لا تفوته جماعة صلاة.

واشتهر الشيخ بأنه مستجاب الدعوات، كان الناس حتى العلماء يزورونه ويطلبون إليه الدعاء؛ وفي الحفلات الدينية في دارالعلوم/ديوبند وغيرها يُقَدَّم الشيخ للدعاء، وذلك لصلاحه وتقواه وعفة نفسه وسمو روحه.

وكان طلاب الجامعة يحبونه كثيرا ويكرمونه بالغ الإكرام، فإنهم يجدون فيه عطف الأب وحنان الأم؛ فكان الشيخ كثير الشفقة على الطلاب، وعميم الإحسان بهم، سواء كان من خلال إرشادهم في التعليم والتربية، أو من خلال دعمهم المادي، وكان الشيخ يتمتع بالشعبية الشديدة بين الطلاب والجماهير من المسلمين.

قد تفرغ الشيخ للتعليم والتربية وإصلاح المجتمع الإسلامي، فلا تجده إلا بين كومة الكتب في غرفته الصغيرة الحافلة بالكتب، أو بين طلاب الفصل، أو بين المسلمين في الاحتفال الديني الإصلاحي، ولا يحب السمعة الزائفة وأن يشار إليه بالبنان، ويذكر عنه في الجرائد والمجلات، فكان بعيدا كل البعد من الادعاءات والصيت والرياء.

كان الشيخ يدرس في الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ديوبند في نهاية المطاف من حياته نزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر ومقدمة أصول الحديث للشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي، ومشكاة المصابيح للخطيب التبريزي، والجامع الصحيح للإمام البخاري (المجلد الثاني من كتاب المغازي إلى النهاية) والأشباه والنظائر لابن نجيم، ولقد أسعدني الله بأن درست هذه الكتب كافة على الشيخ رحمه الله في نفس الجامعة؛ حيث درست نزهة النظر والمقدمة ومشكاة المصابيح (المجلد الأول من البداية إلى كتاب النكاح) في الصف السابع العربي، وصحيح البخاري في السنة النهائية من الفضيلة، والأشباه والنظائر في قسم الإفتاء التابع لدارالعلوم ديوبند، وتخرجت منها حاملا شهادة الفضيلة في العلوم الشرعية والتخصص في اللغة والأدب العربي والتخصص في الفقه الحنفي.

وتجلت خلال تدريسه لها مقدرته البيانية وأهليته التفهيمية ودراسته المتأنية العميقة، وتأصيله لمنهجية دارالعلوم ديوبند في أسلوب تدريس الفقه والتفسير والحديث وفي نشر علوم الكتاب والسنة.

ومنهج التدريس في بلادنا أن أحدا من الطلاب يقرأ نص الكتاب ثم يشرحه الأستاذ؛ فلا يروق الشيخَ في درس الجامع الصحيح للبخاري إلا أن يقرأ الطالب

قراءة تتسم بالصحة والسرعة المعتدلة، ولا يشوبها تصنع وتكلف، وعلى الرغم من ذلك ربما ينبه القارئَ على أسلوبه وطراز قراءته وأدائه كلمات الحديث الشريف، وذلك في لهجة تسر الطلاب، وتملأ بيئة الفصل فرحا وسرورا.

ومن أهم ميزات تدريس الشيخ أنه لا يعدل خلال شرح الكتاب عن نصه وكلماته، فكان ينقل كلمات الكتاب العربية إلى الأردية كلمة ثم كلمة، وتنسجم ترجمته الأردية وشرحه مع نص الكتاب انسجاما تاما، ووجدنا خلال درس مشكاة المصابيح أنه يحكي كثيرا من حكايات الأسلاف؛ وتجارب حياته؛ كي ينشط الطلاب ويتقرر معنى الحديث في أذهانهم.

كما كان كثير الاهتمام بإثبات ترجمة الباب في درس صحيح البخاري، فينبه جميع الطلاب إذا جاء محل الاستشهاد وما تثبت به ترجمة الباب من كلمات الحديث، ويقول: ألا ها هو ذا، ألا ها هو ذا، وفي نهاية السنة الدراسية في شهر رجب يدرّس الشيخ الحديث المسلسل بالأولية وسائر المسلسلات عن الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، يشهد الدرس كثير من طلاب الجامعات الأخرى، وتوزع التمور وزمزم بين الطلاب خلال الدرس، كما يمنحهم الشيخ شهادة إجازة الحديث الشريف، وفي نهاية الدرس يدعو الشيخ دعاء متضرع خاشع مودع، تذرف العيون، وتبكي الطلاب.

ويتبدى في تدريسه للحديث الشريف تذوقه للفن، واهتمامه البالغ به، وحرصه المتناهي عليه، وملامح الحب بصاحب الكلام ــ عليه آلاف تحية وسلام ــ وتوفره على دراسته رواية ودراية ومتنا وسندا وألفاظا ومعاني، فأصبح من العلماء البارزين بالحديث الشريف وعلومه، وغدا معروفا بالنسبة إليه، فكان يلقّب ويذكر باسم "الشيخ الثاني" في الطلاب والأوساط العلمية، فكانت وفاته خسارة أي خسارة، من حيث كونه محدثا يتقن تدريس الحديث الشريف، ومن حيث كونه مربياً كبيراً يستخبر مواطن الضعف الديني والدراسي في حياة الطلاب وعامة المسلمين، ومن حيث كونه داعيا إلى اتباع سنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وعاملا بها بكل معنى الكلمة.

كما يعجب الناس أسلوب خطبته، فكانت تجمع خطبته بين غزارة العلم ورصانة البراهين، واللغة الأردية الفصحى السهلة التي يفهمها جميع المشاركين من عامة الناس وخاصتهم، كما يأتي خلال الكلمة بحكايات وأمثال وأبيات تساعد الناس في فهم الكلام؛ ومن ثم يحبه الناس ويستقدمه في الحفلات الدينية، ومن ثمار جهوده الدعوية أنه اعتنق الإسلام على يده زهاء أربعين غير مسلم.

ولد الشيخ المحدث عبد الحق بن محمد عمر الأعظمي في ٦/رجب ١٣٤٥هـ الموافق ١٠/يناير ١٩٢٧م في قرية جغديش فور من أعمال أعظم جراه، يو. بى (الهند) وتوفي أبوه وهو ابن ست سنين (١٩٣٢م) وكفله الشيخ أبو الحسن محمد مسلم من كبار علماء قرية بوتريا من مديرية جونفور.

تلقى المبادي في كُتَّاب القرية، ثم التحق للعلوم العربية بالمدرسة العربية بيت العلوم سرائمير، أعظم جراه؛ حيث أخذ إلى الصف الرابع العربي (شرح الوقاية)؛ كما درس إلى الصف السابع العربي في دارالعلوم/ مئو، الكائنة بمدينة مئوناث بهانجان (MAU NATH BHANJAN) يو.بي،الهند. ثم توجّه إلى أكبر وأعرق جامعة إسلامية أهلية في شبه القارة الهندية: الجامعة الإسلامية دارالعلوم/ ديوبند ، وانتسب إليها ليتلقى بها التعليم المتبقي من الحديث الشريف والدراسات العليا وينهل من مناهل كبار علمائها الربانيين ويتخرج منها حاملا لشهادة الفضيلة في العلوم الدينية والشريعة الإسلامية، وذلك في الفترة ما بين (١٩٤٨م ـ ١٩٤٩م الموافق ٦٧ـ ١٣٦٦هـ ـ ٦٨ـ ١٣٦٧هـ) حيث درس على العالم الرباني والمجاهد الباسل شيخ الإسلام

حسين أحمد المدني (١٢٩٥هـ ـ ١٣٧٧هـ/ ١٨٧٩م ـ ١٩٥٧م)، والعلامة محمد إبراهيم البلياوي (١٣٠٤هـ ـ ١٣٨٧هـ/ ١٨٨٦م ـ ١٩٦٧م)، وشيخ الأدب إعزاز علي الأمروهي (١٣٠٠هـ ـ ١٤٧٤هـ/ ١٨٨٢م ـ ١٩٥٤م) ومن إلى ذلك من عباقرة الدار وجهابذتها؛ كما كان له إجازة في الحديث الشريف من المحدث الكبير الفريد الشيخ حبيب الرحمان الأعظمي (١٣١٩هـ ـ ١٤١٢ هـ/١٩٠١م ـ ١٩٩٢م) فأجازه الشيخ في أمهات الست وسنن سعيد بن سنبل؛ كما أجازه في الحديث الشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي (١٣١٥هـ/الموافق ١٨٩٨م ـ ١٤٠٢هـ الموافق ١٩٨٣) صاحب أوجز المسالك شرح الموطأ للإمام مالك، والمقرئ محمد طيب القاسمي (محرم ١٣١٥هـ/مايو ١٨٩٧م ـ شوال ١٤٠٣هـ الموافق يوليو ١٩٨٣م)، والشيخ المحدث فخر الدين أحمد المراد آبادي (١٣٠٧هـ ـ ١٣٩٢هـ/١٨٨٩م ـ١٩٧٢م)، والعالم المربي الشيخ عبد الغني الفولفوري (١٢٩٣هـ ـ ١٣٨٢هـ).

وبعد أنه كان تلقى العلوم الشرعية من عباقرة العلم وجهابذة التحقيق من أمثال شيخ الإسلام حسين أحمد المدني، والشيخ المحدث محمد زكريا الكاندهلوي، وأبي المآثر المحدث حبيب الرحمن الأعظمي، توجه إلى عتبة الزهد والرقاق والتزكية والإحسان والسلوك والعرفان، وأخذ يد الشيخ المربي الكبير محيي السنة أبرار الحق رحمه الله (١٣٣٩هـ ـ ١٤٢٦هـ/١٩٢٠ـ ٢٠٠٥م)، وبايعه وسلك في رعايته ورقابته مسالك العرفان والتوجه إلى الله الحنان المنان، وأجازه الشيخ أبرار الحق بالتربية والإصلاح والبيعة بعد أنه لمس فيه أنه بلغ الكمال في مسالك الطريقة والعرفان.

وإثر تخرجه في الجامعة الإسلامية دار العلوم ديوبند تقلب في عديد من المدارس للتعليم والتربية، وقضى حصة لا بأس بها، حصة تمتد إلى ستة عقود في التعليم والتربية، وأهّل خلالها آلافا من الطلاب، وأرشد جمعية كبيرة من المسلمين إلى الصراط المستقيم، وبذل كل ما لديه في هذا السبيل من العلم والمعرفة وثمرة تجاربه أعواما طوالا، فغذى بها الطلاب وزوّد بها المسلمين الذين يكونون بمثابة صدقة جارية له في يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قام بخدمات تدريسية مشكورة في شتى المدارس بعموم البلاد من بينها مدرسة مطلع العلوم بمدينة بنارس؛ حيث بذل من حياته العزيزة ١٦ سنة في التعليم والتربية إلى جانب مدرسة في ولاية بيهار (درّس هناك إلى ٩ شهور في قرية كوديهال من مديرية غريديه، جهاركهند) والمدرسة الحسينية بجونفور، ودارالعلوم مئو؛ حيث درس عديدا من الكتب الدراسية، ولقد استوعب تدريسا جميع الكتب المدرجة ضمن المقررات الدراسية التي يتضمنها المنهج الدراسي المتبع لدى الجامعة الإسلامية دار العلوم/ديوبند التي تقود الجامعات والمعاهد الإسلامية الأهلية في شبه القارة الهندية.

وعين أستاذا للحديث الشريف بدار العلوم/ديوبند في ١٤٠٢هـ الموافق ١٩٨٢م؛ حيث قام بتدريس الكتب العديدة من المقررات الدراسية إلى آخر حياته من بينها الجامع الصحيح للإمام البخاري الذي درسه إلى أكثر من ثلاثة عقود.

كما علّق الشيخ على المجلد الثاني من الصحيح البخاري، ولكن يحتاج هذا التعليق إلى التهذيب والتسويد والتبييض، عسى أن يلبسه الله ثوب الطباعة والنشر والقبول.

وخلف الشيخ من بعده أسرة مكوّنة من حرمه وسبعة بنيه وبنتيه، والأبناء هم: عبد الحكيم، وعبد البر، وعبد التواب، وعبد المنعم، وعبد المتعال، وعبد المقتدر، وأحمد.

جزا الله شيخنا عن عظيم خدماته وجليل أعماله وأسكنه بحبوحة جنانه وعوّضنا عن خسارته.

(**بقية صفحة**: ٩٦)

فيُزَجُّ بالمسلمين في الزنزانات لمدة تجهل نهايتها، بحجج تافهة، واتهامات مخترعة، وإذا خافت الشرطة على أنفسها، وداخلها الشعور بأن المحكمة سوف تحكم لهم بالبراءة، مكرت مكر الذئب وكادت كيد الشيطان، وقتلتهم في السجون أوتطلق عنانهم ليعدوا من السجن ثم تقتلهم في مواجهة عدوانية، ولا تتخذ إجراءات التحقيق ضد الشرطة ورجال الأمن، ولو حصل التحقيق ضد أحد منهم، لا ينفذ ولا يطبق فلا يعاقب أحد منهم أبدا.

وصدق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا قال: «وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ» (سنن أبي داود، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم الحديث:٤٢٩٧) فالمسلمون اليوم ـ إلى جانب كثرتهم وكبير عدوهم مما مضى، وتوافر دولهم، وسيل منظماتهم وجمعياتهم ومدارسهم وجامعاتهم ـ غثاء كغثاء السيل، ينضمون إلى التيار الأوروبي، ويفقدون هويتهم، وينسون مسؤوليتهم؛ باعتبارهم ملة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ (آل عمران: ١١٠) كانت هذه الأمة في بداية أمرها رعاة الغنم فأصبحت ـ بفضل الإسلام ـ دعاة الأمم، ثم عاد الأمر إلى ماضيه، وعادت الأمة ترعاها اليوم سائر الأمم، تسوقها بعصي الثقافة الماجنة، والتطور المزعوم حينا، وتروّعها وتخوّفها بتفجير القنابل وتدمير المنازل، وتقتيل أبناء الأمة وتشريدهم مرة أخرى.

وصارت الأمة إلى ما صارت اليوم إلا بفقدها الإيمان بالفلاح والفوز الذي هداها إليه كتاب عالم الغيب والشهادة، الذي يعز من يشاء، ويذل من يشاء بيده الخير، إنه على كل شيء قدير، وأرشدتها إليه السنة البيضاء ليلها كنهارها.

وبعدم انسجام عمل الأمة مع الإيمان، فشتان بينهما، فهم في المسجد وفي المراكز الدينية والمحافل الإصلاحية مسلمون؛ ولكنهم لا يتركون أي دقيقة من السعي بأن يسبقوا الهنادك في اتباع التقاليد غير الشرعية بمناسبة الزواج، والفرح والترح، ويحاولون بقدر الاستطاع أن يخلّفوا اليهود والنصارى في مظهرهم، وفي بيئة منازلهم، ومجرى حياتهم.

وبفقد المواصفات وما يقتضيه الإسلام أن يتمتع به كل مسلم، فنبّه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أسباب الوهن لدى الأمة، إذا سأله أحد من أصحابه ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، وها هو ذا، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» (سنن أبي داود، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم الحديث:٤٢٩٧) فنحن اليوم نعيش كأننا لا نموت أبدا، ونقضي أيامنا وليالينا جريا وراء الدنيا ومتاعها؛ ولا يدور بخلدنا أنها ألقيت على كواهلنا من المسؤوليات باعتبارنا مسلمين وباعتبارنا خير أمة، وباعتبارنا آخر أمة لا يبعث الله فيها نبيا ولا رسولا إلى يوم القيامة، وعادت مسؤولية النهوض بأعباء رسالة النبوة والرسالة الخالدة إلينا. ولكن مدت غطاء الغفلة من قمة الرأس إلى أخمص قدمنا، وجراء هذه الغطاء لا تستطيع أعيننا أن تبصر إلى الفوز، والفوز أمامها، ألا! وهو التمسك بالكتاب والسنة.

وما أصيب بهذه الأمة ما أصيبت من النكبات والمهن والشدائد والمصاعب والويلات إلا تعمل ورائها هذه العوامل والأسباب.

فأول عمل تبدأ به الأمة أن تصحح إيمانهم بالكتاب والسنة، وتحاول أن تصبغ حياتها بالصبغة الإسلامية، وتخوض في الكتاب والسنة، وتبحث عن ما يعيد عليها النجاح والرقي والأمن والسلام، ويجعلها أمة بارزة شامة بين

فإن تتقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، وأمره أن لا يكون من شيء من عدوه أشد احتزاسا منه لنفسه ومن معه من معاصي الله؛ فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم وإنما نعادي عدونا وننصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم؛ فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد؛ فإن لا ننصر عليهم بحقنا، لا نغلبهم بقوتنا.

الأمم الأخرى.

فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٣)

فبينت الآية الكريمة أن الصبر والصلاة خير عدة يستعين بهما المسلمون في كل مأساة وفتنة، فيجب على الأمة أن تعض عليهما بالنواجذ، عسى الله أن يفرج عنها كل كربة، وما ذلك على الله بعزيز.

وقال المولى عزوجل: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ (البقرة: ١٥٥ـ ١٥٦)

وقال ـ تعالى ـ في موضع: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيرًا وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (آل عمران: ١٨٦)

أفادت الآية أمرا ثالثا وهي التقوى، والتقوى ترك المعصية؛ فإن الله لا تتوجه رحمته إلى قوم يقترفون المعاصي ولا يجيب الله دعائهم؛ كما أفادت الآية الآتية من خيرات ومكاسب التقوى وفوائد التوكل على الله، وهي: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢ ـ ٣)

وكتب عمر بن عبد العزيز: هذا ما عهد به عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب وحربه من استعرض من أهل الصلح أمره في ذلك بتقوى الله على كل حال نزل به من أمر الله؛ فإن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، وأمره أن لا يكون من شيء من عدوه أشد احتراسا منه لنفسه ومن معه من معاصي الله؛ فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم وإنما نعادي عدونا وننصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم؛ لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم؛ فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد؛ فإن لا ننصر عليهم بحقنا، لا نغلبهم بقوتنا، ولا تكونوا لعداوة أحد من الناس أحذر منكم لذنوبكم، ولا تكونوا بالقدرة لكم أشد تعاهدا منكم لذنوبكم، وأعلموا أن معكم من الله حفظة عليكم يعلمون ما تفعلون في مسيركم ومنزلكم؛ فاستحيوا منهم، وأحسنوا صحابتهم، ولا تؤذوهم بمعاصي الله، وأنتم زعمتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا، فلن يسلطوا علينا، وإن أذنبنا، فرب قوم قد سلط عليهم شر منهم بذنوبهم، فاسألوا الله العون على أنفسكم، ما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم.

(أبو محمد المصري، عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، (المتوفى: ٢١٤هـ)، سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، المحقق: أحمد عبيد، الناشر:

عالم الكتب – بيروت – لبنان، الطبعة: السادسة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، باب عهد عمر إلى منصور بن غالب حين بعثه على قتال أهل الحرب، ج:١، ص:٧٦)

وكذلك يهدينا القرآن إلى إكثار الدعاء والرجوع إلى الله؛ فإنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه.

كما قال الله ـ سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ (النمل: ٦٢)

فيتحتم على المسلمين عن آخرهم أن ينيبوا إليه ـ تعالى ـ ويتضرع إلى المولى الحنان المنان، لعلهم يفلحون، فقال ـ عز اسمه: ﴿أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)

وجاء في القرآن المبشر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:٢٠٠)

كما بشر القرآن: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (هود:٤٩) ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (الروم:٦٠)

فلابد من صبر النفس وتعويدها على المصابرة والثبات على الدين والتمسك بالسنة، والصبر هو حبس النفس عن الجزع والتسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التشويش؛ فمن هدي القرآن أن يتم ترسيخ معنى الصبر في القلوب لمواجهة الشدائد والمحن.

وأضف إلى ذلك التوكل على الله وحسن الظن به، وذلك لا يكون بكلمة تلوكها الألسن، وتعيها القلوب، وتتحرك بها الشفاه، وتفهمها العقول؛ بل من خلال عمل وأمل مع هدوء قلب، وطمأنينة نفس واعتقاد جازم، أن ماشاء الله كان ومالم يشأ لم يكن، ونقول: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَآ آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم:١٢)

كما لا بد أن يكثر الاستغفار في الأمة؛ فإنه يدفع البلايا ويجلب الخير قال ـ تعالى ـ في التنزيل الحميد: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾ (هود:٥٢)

ويقول رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ لَزِمَ الِاسْتِغْفَارَ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا، وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» (سنن أبي داود، باب في الاستغفار، رقم الحديث: ١٥١٨)

وإذا تعمل الأمة المسلمة بهذه الآيات الهادية ترى بعيني رؤوسهم تتحول من قلة مستضعفة مقهورة ـ أحاطت بهم البلايا والمحن من كل حدب وصوب ـ إلى أمة يرثون مشارق الأرض ومغاربها، ويقودون ركب البشرية خلال سنين وجيزة من أعمار الأمم؛ ليتحقق لهم سنة الله الماضية في الأمم كلها من التمكين للصالحين ورفع الاستضعاف عنهم: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص:٥)

أضف إلى ذلك قوله ـ عزوجل: ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: ١٣٩)

فالمناشدة الأخوية الرقيقة إلى جميع إخواننا في العالم كافة أن لا تغترّوا بالثقافة الجديدة والحضارة الغربية، والبيئة الماجنة، وارجعوا أنفسكم إلى حضارة الصحابة وثقافة الإسلام وبيئة السنة، فإن هذه الأمة لن تصلح آخرها إلا بما صلحت أولها؛ كما صرّح به إمام دار الهجرة مالك بن أنس ـ رحمه الله تعالى ـ وقوموا بأداء مسؤوليتكم في رعيتكم، فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فيجب أن نقوم بترسيخ جذور الإيمان وثوابت الإسلام في قلوب جيلنا الجديد، ونهتم بدراستهم الإسلامية؛ كما نكثف جهودنا وراء دراستهم العصرية؛ ولو لم يكن ذلك ليمكن أن يعيد تاريخ الأندلس نفسه في الهند، وما إلى ذلك من الدول.

اللهم احفظنا من كل بلاء الدنيا وعذاب الآخرة.

أمة ممتحنة

إمداد الحق بختيار القاسمي *

بعد تفجير الثورة التكنولوجية، وشيوع الشبكات العنكبوتية، وانسلال مواقع التواصل الاجتماعي، وتبادل القنوات الدولية، أصبحت الدنيا صنو قرية صغيرة، يعرف فيها كل واحد آخره، ويعلم ما يجري حوله، ولا نصبح يوما من حياتنا إلا نشاهد على شاشة هذه الثورة الدماء المسفوكة، والحرمات المنتهكة، والمدن المخربة، والأمة المنكوبة، والوجوه الصارخة الباكية المذروعة، والقنابل المتفجرة، والنيران المندلعة، والأموال المنهوبة، وما إلى ذلك من العمليات الإجرامية البشعة غير الإنسانية.

وأكبر وأكثر ضحية لهذه الإرهابية والعنصرية والتطرفية هي الأمة الإسلامية، وما زاد الطين بلة أن هذه الأمة المستهدفة تتهم بالإرهابية والقائمة بالأعمال المنبوذة، والساعية لزعزعة الأمن العالمي، مع أنها هي التي تكابد هذه الأمة أكبر خسارة وأفدح إصابة في النفس والمال، ولا يختلف فيه إثنان، ولا يجحده إلا من به جنة أو سفاهة.

والفعلة العدوانية والإبادة الجماعية وعملية تطهير العرق في كل من البورما والشام وفلسطين والعراق لا تزال تجري بخطة مدروسة ومشروع ممنهج منذ أكثر من ثلاث سنوات، والقوات الدولية التي سرعان ما اقتحمت في ميدان العراق وليبيا وأفغانستان، وغيرت خريطة هذه الدول خلال ثوان، اتخذت السكوت والصمت شعارها ودثارها على المآسي الإنسانية الخطيرة للدول العربية.

وليس مسلمون في الدول الأخرى بمعزل عن هذه المصائب، فإنه عين ما أخبر به النبي الصادق محمد بن عبد الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قائلا! «يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا» (السِّجِسْتاني، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، باب في تداعي الأمم على الإسلام، رقم الحديث: ٤٢٩٧) فأصبح المسلمون لقمة سائغة وأكلة هنيئة تتنافس القوات في استهلاكها ومضغها وهضمها وإطفاء نورها وطمس هويتها، ودرس رسمها.

وليست قضايا الأمة الإسلامية الهندية ببعيدة عنا، فعلى الرغم من أن الدولة تتمتع بالديمقراطية والجمهورية، وتعد من كبرى الجمهوريات فى العالم ولكن الشعب الهندي يشعر يوما فيوما، أن الهند تفقد مصداقية الديمقرا طية جراء مواقفها الحيادية، وسلو كياتها الاستبدادية. (**البقية على صفحة: ٩٣**)

* Email: ihbq1982@gmail.com

شعار سلماننا خدمة إسلامنا

بمناسبة وقوع الاختيار على خادم الحرمين الشريفين لجائزة الملك الفيصل العالمية لعام ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م تنويهاً بعنايته الممتازة بخدمة الحرمين الشريفين وقاصديهما واهتمامه بالسيرة النبوية ودعمه لمشروع الأطلس التاريخي للسيرة النبوية وسعيه الدائم لجمع كلمة العرب والمسلمين لمواجهة الظروف الصعبة التي تمر بها الأمتان العربية والإسلامية

يرفع **سعادة الأستاذ محمد رحيم الدين الأنصاري**

رئيس الجامعة الإسلامية دارالعلوم/حيدرآباد - الهند باسمه وباسم جميع منسوبي الجامعة وحكومة حيدرآباد وقطانها

بأجمل وأرق التهاني وصادق التبريكات

إلى مقام خادم الحرمين الشريفين

الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود أيده الله

كما يصل الشكر إلى رئيس مؤسسة الملك الفيصل الخيرية

الأمير خالد الفيصل آل سعود يحفظه الله

أمين الجائزة مستشار خادم الحرمين الشريفين أمير منطقة مكة المكرمة

نسأل الله تعالى أن يوفق خادم الحرمين الشريفين وسمو ولي عهده الأمين وسمو ولي ولي عهده وسمو أمين الجائزة مستشار خادم الحرمين الشريفين أمير منطقة مكة المكرمة لكل ما من شأنه خدمة الإسلام والمسلمين ودعم قضاياهم.

الجامعة الإسلامية دارالعلوم حيدرآباد (الهند)

JAMIA ISLAMIA DARULULOOM HYDERABAD, INDIA

JAMIA NAGAR, PO. S.V.P.N.P.A. HYDERABAD-500052. T.S. (INDIA)

Ph: +91 9849044900, 040- 20024146, darululoom.hyd@gmail.com

Regd. No. 45044/90

AL SAHWAH AL-ISLAMIA

(Quarterly Arabic Magazine)

alakramgraphics.in 7396460830

Jamia Islamia Darul Uloom Hyderabad

Jamia Nagar, Post S.V.P.N.P.A. Hyderabad - 500 052 (T.S.) INDIA

Phone : 0091 40 20024146, 040-24016479, Email : darululoom.hyd@gmail.com